

١١١٨ - يُبَغِي لِمَنْ صَحِبَ سُلْطَانًا أَوْ مُحْتَشِمًا أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ مَعَهُ، وَبَاطِنُهُ سَوَاءً؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَدُسُّ إِلَيْهِ مَنْ يَخْتَبِرُهُ^(١)، فَرُبَّمَا افْتَضَحَ فِي الْإِبْتِلَاءِ.

١١١٩ - وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ يَفْصِدُونَ تَقْرِيبَ الْمُتَادِمِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ حُجْرَةً فِي دُورِهِمْ؛ فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْتَصُّوهُ؛ اخْتَبَرُوهُ بَاطِنًا، وَذَلِكَ لَا يَدْرِي، فَيُظْهِرُ مِنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ فَيُطْرَدُ!

١١٢٠ - وَلَقَدْ امْتَحَنَ أَبُو رَيْزٍ^(٢) رَجُلًا مِنْ خَاصَّتِهِ، فَدَسَّ إِلَيْهِ جَارِيَةً، مَعَهَا الْطَافُ^(٣)، وَأَمَرَهَا أَنْ لَا تَقْعُدَ عِنْدَهُ، فَحَمَلَتْهَا. ثُمَّ أَنْفَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقْعُدَ بَعْدَ التَّسْلِيمِ هُنَيْهَةً، فَفَعَلَتْ، فَلَا حَظَّهَا الرَّجُلُ. ثُمَّ بَعَثَهَا مَرَّةً ثَالِثَةً، وَأَمَرَهَا أَنْ تُطِيلَ الْقُعُودَ عِنْدَهُ، وَتُحَدِّثَهُ، فَأَطَالَتْ الْحَدِيثَ مَعَهُ، فَأَبْدَى لَهَا شَيْئًا مِنَ الْمَيْلِ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَخَافُ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْنَا، وَلَكِنْ؛ دَعْنِي أُدَبِّرْ فِي هَذَا.

فَذَهَبَتْ، فَأَخْبَرَتِ الْمَلِكَ بِذَلِكَ! فَوَجَّهَ غَيْرَهَا مِنْ حَوَاصِّ جَوَارِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ؛ قَالَ: مَا فَعَلْتَ فُلَانَةً؟ قَالَتْ: مَرِيضَةٌ. فَأَرَبَدُ^(٤) لَوْنُهُ. ثُمَّ فَعَلَتْ الْجَارِيَةُ الثَّانِيَةَ مِثْلَ مَا فَعَلَتْ الْأُولَى. فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ الْمَلِكَ يَمْضِي إِلَى بُسْتَانِهِ، فَيَقِيمُ هُنَاكَ؛ فَإِنْ أَرَادَكَ عَلَى أَنْ تَمْضِيَ مَعَهُ؛ فَأُظْهِرْ أَنَّكَ عَلِيلٌ، فَإِنَّ خَيْرَكَ بَيْنَ الْأَنْصِرَافِ إِلَى دُورِ نِسَائِكَ أَوْ الْمَقَامِ هَاهُنَا؛ فَأَخْتَرِ الْمَقَامَ هَاهُنَا، وَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى الْحَرَكَةِ، فَإِنْ أَجَابَكَ إِلَى ذَلِكَ؛ جِئْتُ إِلَيْكَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَا دَامَ الْمَلِكُ غَائِبًا! فَسَكَنَ إِلَى قَوْلِهَا.

ثُمَّ مَضَتْ، وَأَخْبَرَتِ الْمَلِكَ بِذَلِكَ. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ؛ اسْتَدْعَاهُ الْمَلِكُ، فَقَالَ:

(١) في الأصل: يخبره، وهو تصحيف.

(٢) أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان حكم بلاد فارس ثمان وثلاثين سنة كانت أبرز صفاته الجشع، جمع أموالاً عظيمة، و(أبرويز) تعني المظفر، انظر: (إيران في عهد الساسانيين) لآرثر كريستنسن ص(٤٢٨ و ٤٣٦).

(٤) أريد: تغير وجهه.

(٣) الألفاظ: الهدايا.

إِنِّي مَرِيضٌ، فَعَادَ الرَّسُولُ، فَأَخْبَرَهُ، فَتَبَسَّمَ، وَقَالَ: هَذَا أَوَّلُ الشَّرِّ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَحْفَةً حُمِلَ فِيهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ أَبُو رَيْزٍ: قَالَ: وَالْمَحْفَةُ الشَّرُّ الثَّانِي. فَرَأَى الْعِصَابَةَ عَلَى رَأْسِهِ؛ قَالَ: وَالْعِصَابَةُ الشَّرُّ الثَّلَاثُ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: الْإِنْصِرَافُ إِلَى نِسَائِكَ لِيَمْرَضَنَّكَ، أَوِ الْمَقَامُ هَاهُنَا إِلَى وَقْتِ رُجُوعِي؟ قَالَ: الْمَقَامُ هَاهُنَا أَرْفَقُ لِي؛ لِقَلَّةِ الْحَرَكَةِ. فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: حَرَكْتُكَ هَاهُنَا إِنْ تُرِكْتَ أَكْثَرَ مِنْ حَرَكَتِكَ إِلَى مَنْزِلِكَ! ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَصَا الرُّنَاةِ، الَّتِي كَانَ يُوَسِّمُ^(١) بِهَا مَنْ زَنَا، فَأَيَقَنَ الرَّجُلُ بِالْأَمْرِ! وَأَمَرَ^(٢) أَنْ يُكْتَبَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ حَرْفًا حَرْفًا، فَيُقْرَأَ عَلَى النَّاسِ حَرْفًا حَرْفًا إِذَا حَضَرُوا، وَأَنْ يُنْفَى إِلَى أَقْصَى الْمَمْلَكَةِ، وَتُجْعَلَ الْعَصَا عَلَى رَأْسِ رُوحٍ، يَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ؛ لِيَحْذَرَ مِنْهُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ. فَلَمَّا نَفِيَ؛ أَخَذَ مِنْ بَعْضِ الْمُؤَكَّلِينَ مُدِيَّةً، فَجَبَّ^(٣) بِهَا ذَكَرَهُ، وَقَالَ: مَنْ أَطَاعَ عَضْوًا صَغِيرًا أَفْسَدَ عَلَيْهِ جَمِيعَ أَعْضَائِهِ. وَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ.

١١٢١ - قُلْتُ: وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ يَتَنَكَّرُونَ، وَيَسْأَلُونَ الْعَوَامَّ عَنْ سِيرَتِهِمْ، فَيَتَكَلَّمُ الْعَامِيُّ بِمَا لَا يَصْلُحُ، فَيَضْطُّونَهُ عَلَيْهِ. وَرُبَّمَا بَعَثُوا دَسِيسًا [عَلَيْهِ]. وَرُبَّ كَلِمَاتٍ قَالَهَا مُسْتَرْسِلٌ، فَبَلَّغَهَا فُضُولِي، [فَأَهْلَكَتْ صَاحِبَهَا].

١١٢٢ - وَرَأَى عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَجُلًا مِنَ الْعُمَّالِ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، فَدَسَّ عَلَيْهِ مَنْ قَالَ لَهُ: إِنْ أَخَذْتَ لَكَ الْوِلَايَةَ الْفُلَانِيَّةَ؛ فَمَا تُعْطِينِي؟ قَالَ: أَعْطَيْتُكَ كَذَا وَكَذَا!! قَالَ لَهُ عُمَرُ: عَرَزْنَا بِصَلَاتِكَ.

١١٢٣ - وَقَدْ بُلِّغْتُ أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ أَمْرَأَةً، فَأَجَابَتْهُ، فَاسْتَدَعَتْهُ إِلَى دَارِهَا، فَلَمَّا دَخَلَ؛ أَقَامَتْ عَلَى قَتْلِهِ.

١١٢٤ - فَقَدْ يُنْجَلِي مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَكَّنَ إِلَى قَوْلِ أَمْرَأَةٍ أَوْ بَعْلِ يَجُوزُ أَنَّهُ يَكُونُ جَاسُوسًا وَمُخْتَبِرًا، وَكَذَلِكَ لَا يُظْهَرُ مَا يَنْبَغِي إِخْفَاؤُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ سَبِّ رَجُلٍ؛ قَرِيبًا كَانَ لَهُ فِي الْحَاضِرِينَ قَرِيبٌ. وَلَا يُؤْتَقُ بِمَوَدَّةٍ لَا أَصْلَ لَهَا؛ قَرِيبًا كَانَتْ تَحْتَهَا آفَةٌ تَقْصِدُهُ.

(١) يوسم: يكوى بالنار علامة على فجوره.

(٢) الأمر هنا هو أبو ريز.

(٣) جب: قطع.

١١٢٥ - وَلِيَحْذَرَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يُحْتَمَلُ، وَرُبَّ كَلِمَةٍ نَقَلَهَا صَدِيقٌ إِلَى صَدِيقٍ، فَتَحَدَّثَ بِهَا مَنْ لَا يَقْصِدُ أَدَى لِقَائِلِ، فَبُلَّغَتْ، فَتَأَذَى. وَرُبَّ مُظْهِرٍ لِلْمَحَبَّةِ مُبَالِغٍ حَتَّى يَسْتَمَكِّنَ مِنْ مُرَادِهِ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الطَّمَأْنِينَةِ إِلَى أَحَدٍ، خُصُوصًا مِنْ عَدُوِّ آذَيْتَهُ، أَوْ قَتَلَتْ لَهُ قَرِيبًا، فَرَبَّمَا أَظْهَرَ الْجَمِيلَ شَبَكَةً لِأَصْطِيَادِكَ؛ كَحَدِيثِ الرَّبَاءِ^(١).

٢٤٣ - فصل: الحرص والأمل

١١٢٦ - رَأَيْتُ النَّفْسَ بَعْدَ عُلُوِّ السَّنِّ يَقْوَى أَمَلَهَا، وَيَزْدَادُ حِرْصُهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ، وَتَشِيبُ مِنْهُ خَصْلَتَانِ: الْحِرْصُ وَالْأَمَلُ»^(٢).
وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَسْبَابِ ذَلِكَ فَرَاغَ الْيَدِ مِنَ الدُّنْيَا، وَكَثْرَةَ الْعَانِلَةِ، وَقُوَّةَ الْحَاجَةِ، فَيَحْتَاجُ الْإِنْسَانَ إِلَى التَّعَرُّضِ بِمَا يَشِينُ الْعِرْضَ، لِيَحْضَلَ الْعَرَضُ! فَقُلْتُ: إِلَهِي! أَبْعَدَ رُؤْيَا جِبَالِ عَرَفَةَ أَضَلُّ؟! أَبْعَدَ مُشَارَفَةَ الْحَرَمِ تَأْخُذُنِي أَعْرَابُ الْبَادِيَةِ؟!
وَإِسْفَا! أَيَطْلُعُ فَجْرُ النَّحْرِ وَمَا وَصَلْتُ إِلَى عَرَفَاتٍ؟! وَيَا ضِيَاعَ سَفْرِ الْعُمْرِ وَمَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ!

قَدْ كُنْتُ أَرْجُوكَ لِنَيْلِ الْمُنَى وَالْيَوْمَ لَا أَطْلُبُ إِلَّا الرِّضَا
ثُمَّ قُلْتُ: يَا نَفْسُ! مَا لِكَ مَلَجًا إِلَّا اللَّجَأَ، وَاسْتِغَاثَةَ الْغَرِيقِ؛ فَإِنْ رُحِمْتِ، وَإِلَّا؛ فَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَحْتَ التُّرَابِ!

٢٤٤ - فصل: كبير السن ينكح الصغيرة

١١٢٧ - شَكَأ لِي بَعْضُ الْأَشْيَاحِ، فَقَالَ: قَدْ عَلَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَنَفْسِي تَطْلُبُ مِنِّي شِرَاءَ الْجَوَارِي الصَّغَارِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ النَّكَاحَ، وَلَيْسَ فِيَّ،

(١) تقدمت الإشارة إليه في الفصل (١٨٥).

(٢) صح بلفظ: «يهرم ابن آدم وتشب معه خصلتان: الحرص على المال، والحرص على العمر» رواه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧)، عن أنس رضي الله عنه.

وَلَا تَقْنَعُ مِنِّي النَّفْسُ بِرَبِّهِ الْبَيْتِ؛ إِذْ قَدْ كَبِرَتْ. فَقُلْتُ لَهُ: عِنْدِي جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْجَوَابُ الْعَامِّيُّ، وَهُوَ أَنْ أَقُولَ: يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَغْلَلَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَمَا قَدْ تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ، وَتَحَذَرَ مِنْ اشْتِرَاءِ جَارِيَةٍ؛ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِيفَاءِ حَقِّهَا؛ فَإِنَّهَا تُبْغِضُكَ. فَإِنْ أَجْهَدْتَ؛ اسْتَعْجَلْتَ التَّلَفَ، وَإِنْ اسْتَبَقَيْتَ فُوتَكَ؛ غَضِبْتَ هِيَ، عَلَى أَنَّهَا لَا تُرِيدُ شَيْخًا كَيْفَ كَانَ.

وَقَدْ أَنْشَدَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ؛ قَالَ: أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ التَّمِيمِيُّ:

أَفِقْ يَا فُؤَادِي مِنْ غَرَامِكَ وَاسْتَمِعْ مَقَالَةَ مَحْزُونٍ عَلَيْكَ شَفِيقِي
عَلِمْتُ فَتَاءَ قَلْبِهَا مُتَعَلِّقٌ بِغَيْرِكَ، فَاسْتَوْنَقْتُ غَيْرَ وَثِيقِي
وَأَصْبَحْتَ مَوْثُوقًا، وَرَاحَتْ طَلِيقَةً فَكَمْ بَيْنَ مَوْثُوقٍ وَبَيْنَ طَلِيقِ

فَاعْلَمْ أَنَّهَا تَعُدُّ عَلَيْكَ الْأَيَّامَ، وَتَطْلُبُ مِنْكَ فَضْلَ الْمَالِ؛ لِتَسْتَعِدَّ لِعَيْرِكَ، وَرَبِّمَا قَصَدْتَ حَنْفَكَ؛ فَأَحْذَرُ! وَالسَّلَامَةُ فِي التَّرْكِ، وَالِاقْتِنَاعُ بِمَا يَدْفَعُ الزَّمَانَ.

وَالْجَوَابُ الثَّانِي: فَإِنِّي أَقُولُ: لَا يَخْلُو أَنْ تَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْوَطْءِ فِي وَفْتِ، أَوْ لَا تَكُونَ.

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَقْدِرُ؛ فَالْأَوْلَى مُصَابِرَةُ التَّرْكِ لِلْكُلِّ، وَإِنْ كَانَ يُمَكِّنُ لِلْحَازِمِ أَنْ يُدَارِيَ الْمَرْأَةَ بِالنَّفَقَةِ، وَطَيْبِ الْخُلُقِ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَاطِرُ.

وَإِنْ كُنْتَ تَقْدِرُ فِي أَوْقَاتِ عَلَى ذَلِكَ، وَرَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ تَوْقًا شَدِيدًا؛ فَعَلَيْكَ بِالْمُرَاهِقَاتِ؛ فَإِنَّهُنَّ مَا عَرَفْنَ النِّكَاحَ، وَمَا طَلَبْنَ الْوَطْءَ، وَاعْمُرُهُنَّ بِالْإِنْفَاقِ، وَحَسَنِ الْخُلُقِ، مَعَ الْاِحْتِيَاطِ عَلَيْهِنَّ، وَالْمَنْعِ مِنْ مُخَالَطَةِ النِّسْوَةِ، وَإِذَا اتَّفَقَ وَطْءٌ؛ فَتَصَبَّرْ عَنِ الْإِنْزَالِ، رِيئَمَا تَقْضِي الْمَرْأَةَ حَاجَتَهَا!

وَاعْتَمِدْ وَعَظِّمِهَا وَتَذَكَّرِهَا بِالْآخِرَةِ! وَادْكُرْ لَهَا حِكَايَاتِ الْعُشَاقِ مِنْ غَيْرِ نِكَاحٍ، وَقُبْحِ صُورَةَ الْفِعْلِ! وَالْفِتْنَةُ قَلْبُهَا إِلَى ذِكْرِ الصَّالِحِينَ! وَلَا تُخَلِّ نَفْسَكَ مِنَ الطَّيِّبِ وَالتَّرْتِيبِ، وَالْكَيْسَةِ، وَالْمُدَارَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ الْوَاسِعِ! فَهَذَا رَبِّمَا حَرَّكَ النَّاقَةَ لِلْمَسِيرِ، مَعَ خَطَرِ السَّلَامَةِ.

١١٢٨ - أَبْلَهُ النَّاسِ مَنْ عَمِلَ عَلَى الْحَالِ الْحَاضِرَةِ، وَلَمْ يَتَصَوَّرْ تَغْيِيرَهَا، وَلَا وُقُوعَ مَا يَجُوزُ وَقُوعُهُ.

١١٢٩ - مِثَالُهُ: أَنْ يَغْتَرَّ بِدَوْلَةٍ، فَيَعْمَلُ بِمُقْتَضَى مُلْكِهِ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ؛ هَلَكَ! وَرَبِّمَا عَادَى خَلْقًا؛ اغْتِرَّارًا بِأَنَّهُ مُتَسَلِّطٌ، أَوْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُلْطَانٍ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ حَالُهُ؛ أَكَلَ كَفَّهُ نَدْمًا عِنْدَ فَوَاتِ التَّدَارُكِ!

١١٣٠ - وَكَذَلِكَ مَنْ لَهُ مَالٌ يُبْذَرُهُ؛ سُكُونًا إِلَى وُجُودِ الْمَالِ، وَيَنْسَى حَالَهُ عِنْدَ الْعَدَمِ! وَمَنْ يَتَنَاوَلُ الشَّهَوَاتِ، وَيُكْثِرُ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالنِّكَاحِ؛ ثِقَةً بِعَافِيَتِهِ، وَيَنْسَى مَا يَعْتَبُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ!

١١٣١ - وَمِنْ أَظْرَفِ الْأَحْوَالِ أَنْ يُحِبَّ جَارِيَتَهُ، فَيَعْتَقَهَا، وَيَهَبَ لَهَا، أَوْ امْرَأَةً فَيَسْكُنَ إِلَيْهَا، وَيَهَبَ لَهَا، فَتَتَمَكَّنَ، وَلَا تَمْضِي الْأَيَّامُ حَتَّى يَسْلُوهَا، أَوْ يَطْلُبَ غَيْرَهَا، وَلَا يَجِدُ طَرِيقًا لِلْخَلَاصِ؛ فَإِنْ تَخَلَّصَ مِنْهَا؛ أَخَذَتْ مَا غَنِمَتْ مِنْهُ، فَلَقِي مِنَ الْعَيْظِ أَضْعَافَ مَا يَلْتَدُّ بِهِ.

١١٣٢ - فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُوتَقَ بِامْرَأَةٍ، وَلَا بِمَحَبَّةِ إِنْسَانٍ! فَإِنَّهُ قَدْ يُحِبُّ امْرَأَةً، وَيَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَسْلُوهَا أَبَدًا، فَيَسْتَرْسِلُ إِلَيْهَا، وَالسُّلُوبُ يَحْدُثُ، وَرَبِّمَا أَحَبَّ غَيْرَهَا، فَيَنْسَى الْأَوْلَى، فَيَضَعُ عَلَيْهِ الْخَلَاصُ مِنَ الْأَوْلَى!

١١٣٣ - فَالْعَاقِلُ لَا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يُهَيِّئَ الْخُرُوجَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ لَا تَبُثُّ، وَالْمَحَبَّةَ لَا تَدُومُ، وَالتَّغْيِيرَ مَقْرُونٌ بِكُلِّ حَالٍ.

١١٣٤ - وَكَذَلِكَ يُعْطِي مَالَهُ وَوَلَدَهُ، ثُمَّ يَبْقَى كَلًّا^(١) عَلَيْهِ، فَيَتَمَنَّى الْوَلَدَ هَلَاكَهُ، وَرَبِّمَا عَلَّ بِهِ^(٢) فِي النِّفَقَةِ.

١١٣٥ - وَكَذَلِكَ قَدْ يَتَّقُ بِالصَّدِيقِ، فَيَبِثُّ أَسْرَارَهُ إِلَيْهِ، فَرَبِّمَا أَظْهَرَ ذَلِكَ، فَكَانَ مِنْهَا مَا يُوجِبُ هَلَاكَهُ.

(٢) عَلَّ بِهِ: قَتر عليه.

(١) كَلًّا: عالة.

١١٣٦ - وَكَذَلِكَ يَعْتَرِ الْإِنْسَانُ بِالسَّلَامَةِ، وَيَنْسَى طُرُوقَ الْمَوْتِ، فَيَأْتِيهِ بَغْتَةً، فَيَبْهَتُهُ^(١)، وَقَدْ فَاتَ الْأَسْتِدْرَاكَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا النَّدَمُ.

١١٣٧ - فَالْعَاقِلُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ مُرَاقِبَةً لِلْعَوَاقِبِ، مُحْتَرِزَةً مِمَّا يَجُوزُ وَقُوعُهُ، عَامِلَةً بِالْأَحْتِيَاظِ فِي كُلِّ حَالٍ، حَافِظَةً لِلْمَالِ وَالسَّرِّ، غَيْرَ وَائِقَةٍ بِرُوحَةٍ وَلَا وَلَدٍ وَلَا صَدِيقٍ، مُتَأَهِّبَةً لِلرَّحِيلِ، مُتَهَيِّئَةً لِلنُّقْلَةِ. هَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْحَزْمِ. وَالتَّفْرِيطُ الْوَاسِعُ^(٢) [وقت] البذر.

٢٤٦ - فصل: ليس إلا المعرفة بالجملة

١١٣٨ - مِنْ أَعْجَبِ الْأُمُورِ طَلَبُ الْأَطْلَاعِ عَلَى تَحْقِيقِ الْعِرْفَانِ لِذَاتِ اللَّهِ ﷻ، وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ! وَهَيْهَاتَ؛ لَيْسَ إِلَّا الْمَعْرِفَةُ بِالْجُمْلَةِ. وَلَقَدْ أَوْغَلَ الْمُتَكَلِّمُونَ، فَمَا وَقَعُوا بِشَيْءٍ، فَرَجَعَ عَقْلًا وَهُمْ إِلَى التَّسْلِيمِ.

١١٣٩ - وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ، مَأَلُوا إِلَى الْقِيَاسِ؛ فَإِذَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ بَعَكْسٍ مُرَادِهِمْ، فَلَمْ يَجِدُوا مَلْجَأً إِلَّا التَّسْلِيمَ، فَسَمَّوْا مَا خَالَفَهُمْ اسْتِحْسَانًا.

١١٤٠ - فَالْفَقِيهُ مَنْ عَلَّلَ بِمَا يُمَكِّنُ؛ فَإِذَا عَجَزَ؛ اسْتَطْرَحَ لِلتَّسْلِيمِ. هَذَا شَأْنُ الْعَبِيدِ.

١١٤١ - فَأَمَّا مَنْ يَقُولُ: لِمَ فَعَلَ كَذَا؟ وَمَا مَعْنَى كَذَا؟ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الْأَطْلَاعَ عَلَى سِرِّ الْمَلِكِ، وَمَا يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا؛ لِيُوجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَتَرَ كَثِيرًا مِنْ حِكْمِهِ عَنِ الْخَلْقِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُوَى الْبَشَرِ إِدْرَاكُ حِكْمِ اللَّهِ تَعَالَى كُلِّهَا.

فَلَا يَبْقَى مَعَ الْمُعْتَرِضِ سِوَى الْأَعْتِرَاضِ الْمُخْرَجِ إِلَى الْكُفْرِ، ﴿فَلْيَمْدُدْ سَبَبًا إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهَبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، وَالْمَعْنَى: مَنْ رَضِيَ بِأَفْعَالِي، وَإِلَّا؛ فَلْيَحْتَقِ نَفْسَهُ؛ فَمَا أَفْعَلُ إِلَّا مَا أُرِيدُ.

(٢) في الأصل: المدسع.

(١) يبهته: يدهشه.

١١٤٢ - مَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى الْعِلْمَ وَالنَّظَرَ فِي سِيرِ السَّلَفِ؛ رَأَى أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ ظَلَمَةٌ، وَجُمُهُورُهُمْ عَلَى غَيْرِ الْجَادَّةِ، وَالْمُخَالَطَةُ لَهُمْ تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ! فَالْعَجَبُ لِمَنْ يَتَرَخَّصُ فِي الْمُخَالَطَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الطَّيْعَ لِصِّ^(١) يَسْرِقُ مِنَ الْمُخَالِطِ!

١١٤٣ - وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَفَعَ الْمُخَالَطَةَ لِلأَرْفَعِ وَالأَعْلَى فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ لِيُسْتَفَادَ مِنْهُ؛ فَأَمَّا مُخَالَطَةُ الدُّونِ؛ فَإِنَّهَا تُؤْذِي؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَامِيًّا يَقْبَلُ مِنْ مُعَلِّمِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَالَطَ بِالِاخْتِرَازِ.

١١٤٤ - وَفِي هَذَا الزَّمَانِ: إِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلْعَوَامِّ؛ فَهُمْ ظُلْمَةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ؛ فَإِذَا ابْتَلَى الْعَالِمُ بِمُخَالَطَتِهِمْ؛ فَلْيُسْمِرْ ثِيَابَ الْحَذَرِ، وَلْتَكُنْ مُجَالَسَتُهُ إِيَّاهُمْ لِلتَّذَكُّرَةِ وَالتَّأْدِيبِ فَحَسْبُ.

١١٤٥ - وَإِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلْعُلَمَاءِ؛ فَأَكْثَرُهُمْ عَلَى غَيْرِ الْجَادَّةِ، مَقْصُودُهُمْ صُورَةُ الْعِلْمِ لَا الْعَمَلُ بِهِ؛ فَلَا تَكَادُ تَرَى مِنْ تَذَاكُرِهِ أَمْرَ الآخِرَةِ، إِنَّمَا شَعْلُهُمُ الْغَيْبَةَ، وَقَصْدُ الْغَلْبَةِ، وَاجْتِلَابُ الدُّنْيَا، ثُمَّ فِيهِمْ مِنَ الْحَسَدِ لِلنُّظَرَاءِ مَا لَا يُوصَفُ!

١١٤٦ - وَإِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلأَمْرَاءِ؛ فَذَاكَ تَعَرُّضٌ لِفَسَادِ الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ تَوَلَّى لَهُمْ وَايَةَ دُنْيَوِيَّةً؛ فَالظُّلْمُ مِنْ ضَرُورَاتِهَا؛ لِغَلْبَةِ الْعَادَةِ عَلَيْهِمْ، وَالإِعْرَاضِ عَنِ الشَّرْعِ. وَإِنْ كَانَتْ وَايَةَ دُنْيَوِيَّةً؛ كَالْقَضَاءِ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَهُ بِأَشْيَاءَ لَا يَكَادُ يُمْكِنُهُ المُرَاجَعَةُ فِيهَا، وَلَوْ رَاجَعَ؛ لَمْ يَقْبَلُوا، وَأَكْثَرُ القَوْمِ يَخَافُ عَلَى مَنْصِبِهِ، فَيَفْعَلُ مَا أَمَرَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَجُزْ.

١١٤٧ - وَرَبَّمَا رَأَيْتُ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَقْوَامًا يَبْدُلُونَ المَالَ لِيَكُونُوا قُضَاةً أَوْ شُهُودًا، وَمَقْصُودُهُمُ الرِّفْعَةُ. ثُمَّ أَكْثَرُ الشُّهُودِ يَشْهَدُ عَلَى مَنْ لَا يَعْرِفُهُ، وَيَقُولُ: إِنَّهُ مَعْرُوفٌ! وَيَدْرِي أَنَّهُ كَذَّابٌ! وَإِنَّمَا عَرِفَ لِأَجْلِ حَبَّةٍ يُعْطَاهَا. وَكَمْ قَدْ وَقَعَتْ شَهَادَةٌ عَلَى غَيْرِ المَشْهُودِ عَلَيْهِ وَعَلَى مُكْرِهِ!

(١) فِي الأَصْلِ: بَصِيرًا، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

١١٤٨ - وَإِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلْمُتَزَهِّدِينَ؛ فَأَكْثَرُهُمْ عَلَى غَيْرِ الْجَادَّةِ، وَعَلَى خِلَافِ الْعِلْمِ؛ قَدْ جَعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ نَوَامِيسَ؛ فَلَا يَتَسَمَّوْنَ^(١)، وَلَا يَخْرُجُونَ إِلَى سُوقٍ، وَيُظَهَّرُونَ التَّخَشُّعَ الرَّائِدَ، وَكُلَّهُ نِفَاقٌ. وَفِيهِمْ مَنْ يَلْبَسُ الصُّوفَ تَحْتَ ثِيَابِهِ، وَرَبَّمَا لَوْحَ بُكْمِهِ لِيرَى!

١١٤٩ - وَقَدْ حُكِيَ عَنِ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ: أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ الْمُتَزَهِّدِينَ: مُذْ كَمْ قَدِمْتَ الْعِرَاقَ؟ قَالَ: دَخَلْتُهَا مُنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً، وَأَنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً صَائِمٌ! قَالَ: سَأَلْنَاكَ مَسْأَلَةً، فَأَجِبْتَ عَنِ اثْنَتَيْنِ.

١١٥٠ - وَبَتَّ^(٢) الصُّوفِيَّةُ أَرْبَطَةً^(٣)؛ فَهِيَ خَوَارِجٌ عَلَى الْمَسَاجِدِ، وَهِيَ ذَكَائِكُنْ كَرِيهَةٌ؛ يَقْعُدُ فِيهَا الْكُسَالَى عَنِ الْكَسْبِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَتَعَرَّضُونَ بِالْقُعُودِ لِلصَّدَقَاتِ، وَلَا أَحْوَالِ الظُّلْمَةِ، وَقَدْ أَرَاخُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِعَادَةِ الْعِلْمِ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُصَلِّي نَافِلَةً، وَلَا يَقُومُ اللَّيْلَ، بَلْ هُمُّهُمْ^(٤) الْمَأْكُولُ وَالْمَشْرُوبُ وَالرَّقِصُ.

وَقَدْ اتَّخَذُوا سُنَنًا تُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ؛ فَهُمْ يَلْبَسُونَ الْمُرَقَّعَ، لَا مِنْ فَقْرٍ، وَهَذَا قَبِيحٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَمَارَاتِ^(٥) الزُّهْدِ سِوَى الْمَلْبَسِ الدُّونِ؛ فَثِيَابُهُمْ تَصِيحٌ: نَحْنُ زُهَادٌ! وَبَاقِي أَعْمَالِهِمُ الْمَسْتُورَةُ تَفْضَحُهُمْ إِذَا أُطْلِعَ عَلَيْهَا!! فَالْمَطْبَخُ دَائِرٌ، وَالْحَمَّامُ، وَالْحَلْوَى كَثِيرَةٌ، وَالطَّيْبُ وَالِدَّعَّةُ وَالْكَبِيرُ حَاصِلٌ بِذَلِكَ الرَّيِّ!

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ^(٦) وَقَدْ رَأَاهُ أَشَعَثَ الْهَيْئَةَ: «أَمَا لَكَ مَالٌ؟». قَالَ: بَلَى؛ مِنْ كُلِّ الْمَالِ آتَانِي اللَّهُ ﷻ. قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً؛ أَحَبَّ أَنْ يُرَى عَلَيْهِ»^(٧).

وَمِنْ أَخْلَاقِهِمْ تَغْيِيرُ النَّاسِ عَنِ الْعِلْمِ، وَيَزْعُمُونَ أَلَّا حَاجَةَ إِلَى الْوَسَائِطِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَلْبٌ وَرَبٌّ!

(١) يتسمون: يخرجون للتنزه والتفريح عن النفس.

(٢) في الأصل: بيوت، وهو تصحيف.

(٣) جمع رباط.

(٤) في الأصل: يههمهم.

(٥) أمارات: علامات.

(٦) مالك بن عوف بن نضلة الجشمي، صحابي قليل الحديث.

(٧) رواه أبو داود (٢٠٠٦)، والترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٥٢٣٩)، وأحمد (٤٧٦/٣).

وَلَهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْمُنْكَرَاتِ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ فِي (تَلْبِيسِ إِبْلِيسِ). أَوْ لَوْ
كَانَ لِهَذَا الزَّمَانِ عُمْرٌ؛ لاحتاجَ كُلُّ يَوْمٍ إِلَى مِئَةِ دِرَّةٍ^(١)، لَا؛ بَلْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ السَّيْفَ
فِي هَوْلَاءِ الْحَوَارِجِ. وَهُمْ دَاخِلَ الْبَلَدِ لَا قُدْرَةَ لِلْعُلَمَاءِ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ قَوْلُهُمْ فِيهِمْ لَا
يُقْبَلُ.

١١٥١ - فَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ النَّظَرَ فِي سِيرِ السَّلَفِ، وَوَفَّقَهُ لِإِقْتِدَاءِ بِهِمْ: آثَرَ
أَنْ يَعْتَرَلَ عَنْ أَكْثَرِ الْخَلْقِ، وَلَا يُخَالِطُهُمْ؛ فَإِنَّهُ مِنْ خَالِطِهِمْ؛ أُوذِيَ، وَمَنْ دَارَى؛ لَمْ
يَسْلَمْ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ؛ فَالْتُّصُحُ الْيَوْمَ مَرْدُودٌ.

٢٤٨ - فصل: من البله أن تبادر عدواً بالمخاصمة

١١٥٢ - مِنَ الْبَلْهِ أَنْ تُبَادِرَ عَدُوًّا أَوْ حَسُودًا بِالْمُخَاصَمَةِ. وَإِنَّمَا يَنْبَغِي إِنْ عَرَفْتَ
حَالَهُ أَنْ تُظْهِرَ لَهُ مَا يُوجِبُ السَّلَامَةَ بَيْنَكُمَا؛ إِنْ اعْتَذَرَ قَبِلْتَ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الْخُصُومَةِ
صَفَحْتَ، وَأَرَيْتَهُ أَنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ، ثُمَّ تُبْطِنُ الْحَذَرَ مِنْهُ؛ فَلَا تَتَّقُ بِهِ فِي حَالٍ، وَتَتَجَافَاهُ
بَاطِنًا، مَعَ إِظْهَارِ الْمُخَالَطَةِ فِي الظَّاهِرِ.

١١٥٣ - فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤْذِيَهُ؛ فَأَوَّلُ مَا تُؤْذِيهِ بِهِ إِضْلَاحُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِيمَا
يَرْفَعُكَ. وَمِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ لَهُ الْعَفْوُ عَنْ زَلَلِهِ. وَإِنْ بَالَعَ فِي السَّبِّ؛ فَبَالَعَ فِي
الْصَّفْحِ؛ تُنَبِّ عَنَّكَ الْعَوَامُّ فِي شَتْمِهِ، وَيَحْمَدُكَ الْعُلَمَاءُ عَلَى حِلْمِكَ! وَمَا تُؤْذِيهِ بِهِ مِنْ
ذَلِكَ، [وَتُورِثُهُ بِهِ الْكَمَدَ ظَاهِرًا]، وَعَيْرَهُ فِي الْبَاطِنِ أَضْعَافٌ، وَ[خَيْرٌ] مِمَّا تُؤْذِيهِ بِهِ مِنْ
كَلِمَةٍ إِذَا قُلْتَهَا لَهُ سَمِعَتْ أَضْعَافَهَا.

١١٥٤ - ثُمَّ بِالْخُصُومَةِ تُعَلِّمُهُ أَنَّكَ عَدُوُّهُ؛ فَيَأْخُذُ الْحَذَرَ، وَيَبْسُطُ اللِّسَانَ،
وَبِالْصَّفْحِ يَجْهَلُ مَا فِي بَاطِنِكَ؛ فَيَمَكِّنُكَ حِينَئِذٍ أَنْ تَشْتَفِيَ مِنْهُ، أَمَا أَنْ تَلْقَاهُ بِمَا يُؤْذِي
دِينَكَ، فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي قَدِ اشْتَفَى مِنْكَ! وَمَا ظَفَرَ قَطُّ مِنْ ظَفَرٍ بِهِ الْإِثْمُ، بَلِ الصَّفْحُ
الْجَمِيلُ. وَإِنَّمَا يَقَعُ هَذَا مِمَّنْ يَرَى أَنْ تَسْلِيْطُهُ عَلَيْهِ: إِمَّا عُقُوبَةً لِدَنْبٍ، أَوْ لِرَفْعِ دَرَجَةٍ،
أَوْ لِلْإِتِّبَالِ؛ فَهُوَ لَا يَرَى الْخِصْمَ، وَإِنَّمَا يَرَى الْقُدْرَةَ.

(١) الدرّة: سوط أو عصا لينة يؤدب بها.

١١٥٥ - إِذَا وَقَعْتَ فِي مِحْنَةٍ يَضَعُ الْخَلَاصُ مِنْهَا؛ فَلَيْسَ لَكَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَاللَّجَأُ إِلَى اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ تُقَدِّمَ التَّوْبَةَ مِنَ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ الزَّلَلَ يُوجِبُ الْعُقُوبَةَ؛ فَإِذَا زَالَ الزَّلَلُ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ؛ ارْتَفَعَ السَّبَبُ.

١١٥٦ - فَإِذَا ثُبَّتْ وَدَعَوْتَ، وَلَمْ تَرَ لِلْإِجَابَةِ أَثْرًا؛ فَتَفَقَّدْ أَمْرَكَ؛ فَرُبَّمَا كَانَتْ التَّوْبَةُ مَا صَحَّتْ، فَصَحَّحَهَا، ثُمَّ أَدْعُ، وَلَا تَمَلَّ مِنَ الدُّعَاءِ؛ فَرُبَّمَا كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ فِي تَأْخِيرِ الْإِجَابَةِ، وَرُبَّمَا لَمْ تَكُنِ الْمَصْلَحَةُ فِي الْإِجَابَةِ؛ فَأَنْتِ تَثَابُ، وَتُجَابُ إِلَى مَنَافِعِكَ، وَمِنْ مَنَافِعِكَ أَلَّا تُعْطَى مَا طَلَبْتِ، بَلْ تُعَوِّضَ غَيْرَهُ.

١١٥٧ - فَإِذَا جَاءَ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: كَمْ تَدْعُوهُ وَلَا تَرَى إِجَابَةً! فَقُلْ: أَنَا أَتَعْبُدُ بِالْدُّعَاءِ، وَأَنَا مُوقِنٌ أَنَّ الْجَوَابَ حَاصِلٌ؛ غَيْرَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ تَأْخِيرُهُ لِبَعْضِ الْمَصَالِحِ عَلَيَّ مُنَاسِبٌ، وَلَوْ لَمْ يَحْضُرْ؛ حَصَلَ التَّعَبُّدُ وَالذُّلُّ.

١١٥٨ - فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَ شَيْئًا إِلَّا وَتُقِرَّنُهُ بِسُؤَالِ الْخَيْرَةِ؛ فَرُبَّ مَطْلُوبٍ مِنَ الدُّنْيَا كَانَ حُصُولُهُ سَبَبًا لِلْهَلَاكِ. وَإِذَا كُنْتَ قَدْ أَمَرْتَ بِالْمُشَاوَرَةِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا لِجَلِيسِكَ، لِيُبَيِّنَ لَكَ فِي بَعْضِ الْأَرَاءِ مَا يُعْجِزُ رَأْيَكَ، وَتَرَى أَنَّ مَا وَقَعَ لَكَ لَا يَصْلُحُ؛ فَكَيْفَ لَا تَسْأَلَ الْخَيْرَ رَبِّكَ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ؟! وَالِاسْتِخَارَةَ مِنْ حُسْنِ الْمُشَاوَرَةِ.

١١٥٩ - نَظَرْتُ إِلَى النَّاسِ، فَرَأَيْتُهُمْ يَنْقَسِمُونَ بَيْنَ عَالِمٍ وَجَاهِلٍ: فَأَمَّا الْجُهَالُ؛ فَانْقَسَمُوا:

فَمِنْهُمْ سُلْطَانٌ قَدْ رَبِّي فِي الْجَهْلِ، وَلُبْسِ الْحَرِيرِ، وَشُرْبِ الْخُمُورِ، وَظُلْمِ النَّاسِ، وَلَهُ عَمَّالٌ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ؛ فَهَؤُلَاءِ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْخَيْرِ بِالْجُمْلَةِ. وَمِنْهُمْ تَجَارٌّ؛ هِمَّتُهُمُ الْاِكْتِسَابُ، وَجَمْعُ الْأَمْوَالِ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَلَا يَتَحَاشَى مِنَ الرِّبَا؛ فَهَؤُلَاءِ فِي صُورِ النَّاسِ^(١).

(١) أي: لا يملكون من الإنسانية إلا الشكل.

وَمِنْهُمْ أَرْبَابٌ مَعَاشٍ؛ يَطْفُقُونَ الْمِكْيَالَ، وَيُخْسِرُونَ الْمِيزَانَ، وَيَبْخَسُونَ النَّاسَ، وَيَتَعَامَلُونَ بِالرِّبَا، وَهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ طُولُ النَّهَارِ، لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ؛ فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ؛ وَقَعُوا نِيَامًا كَالسُّكَارَى؛ فَهِمَّةٌ أَحَدِهِمْ مَا يَأْكُلُ، وَيَلْتَذُّ بِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ خَبْرٌ؛ فَإِنْ صَلَّى أَحَدُهُمْ؛ نَقَرَهَا، أَوْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا؛ فَهَوْلَاءِ فِي عِدَادِ الْبَهَائِمِ.

وَمِنَ النَّاسِ ذُوو رَذَالَةٍ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ؛ فَهَذَا كَنَاسٌ، وَهَذَا زَبَالٌ، وَهَذَا نَخَالٌ، وَهَذَا يَكْسَحُ الْحُشَّ^(١)؛ فَهَوْلَاءِ أَرْدَلُ الْقَوْمِ^(٢).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ اللَّذَاتِ، وَلَا يُسَاعِدُهُ الْمَعَاشُ، فَيَخْرُجُ إِلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ! وَهَوْلَاءِ أَحَمَقُ الْجَمَاعَةِ؛ إِذْ لَا عَيْشَ لَهُمْ؛ فَإِنَّ التَّذْوَا لِحِظَةٌ بِأَكْلِ أَوْ شُرْبِ، فَحَرَكَتْ الرِّيْحُ قَصْبَةً؛ هَرَبُوا خَوْفًا مِنَ السُّلْطَانِ، وَمَا أَقَلَّ بَقَاءَهُمْ! ثُمَّ الْقَتْلُ وَالصَّلْبُ، مَعَ إِثْمِ الْآخِرَةِ.

وَمِنْهُمْ أَرْبَابٌ قُرَى، قَدْ عَمَّهُمُ الْجَهْلُ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَتَحَاشَى مِنْ نَجَاسَةٍ؛ فَهُمْ فِي زُمْرَةِ الْبَقَرِ.

١١٦٠ - وَرَأَيْتُ النَّسَاءَ يَنْقَسِمْنَ أَيْضًا؛ فَمِنْهُنَّ الْمُسْتَحْسَنَةُ الَّتِي تَبْغِي^(٣)، وَمِنْهُنَّ الْخَائِنَةُ لِرُؤُوسِهَا فِي مَالِهِ، وَمِنْهُنَّ مَنْ لَا تُصَلِّي، وَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ؛ فَهَوْلَاءِ حَشَوُ النَّارِ؛ فَإِذَا سَمِعْنَ مَوْعِظَةً؛ فَإِنَّهَا كَمَا مَرَّتْ عَلَى حَجْرٍ! وَإِذَا قُرِئَ عِنْدَهُنَّ الْقُرْآنُ؛ فَكَأَنَّهُنَّ يَسْمَعْنَ السَّمَرَ!!

١١٦١ - وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ: فَالْمُبْتَدِئُونَ مِنْهُمْ يَنْقَسِمُونَ إِلَى ذِي نِيَّةٍ حَبِيبَةٍ؛ يَقْصِدُ بِالْعِلْمِ الْمُبَاهَاةَ لَا الْعَمَلَ، وَيَمِيلُ إِلَى الْفِسْقِ؛ ظَنًّا أَنَّ الْعِلْمَ يَدْفَعُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ. وَأَمَّا الْمُتَوَسِّطُونَ وَالْمَشْهُورُونَ؛ فَأَكْثَرُهُمْ يَعْشَى السَّلَاطِينَ، وَيَسْكُتُ عَنْ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ.

وَقَلِيلٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ تَسَلَّمَ لَهُ نَيْتُهُ، وَيَحْسُنُ قَصْدُهُ.

(١) الحش: المرحاض.

(٢) أي عمل مباح أشرف من الكسب الحرام. (٣) تبغي: تفجر.

١١٦٢ - فَمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا؛ رَزَقَهُ حُسْنَ الْقَصْدِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَهُوَ يُحْصِلُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَيَنْفَعُ، وَلَا يُبَالِي بِعَمَلٍ، مِمَّا يَدُلُّهُ عَلَيْهِ الْعِلْمُ؛ فَتَرَاهُ يَتَجَافَى أَرْبَابَ الدُّنْيَا، وَيَحْذَرُ مَخَالَطَةَ الْعَوَامِّ، وَيَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ؛ خَوْفًا مِنَ الْمُخَاطَرَةِ فِي الدُّنْيَا فِي تَحْصِيلِ الْكَثِيرِ، وَيُؤَثِّرُ الْعُزْلَةَ؛ فَلَيْسَ مُذَكِّرًا لِلْآخِرَةِ مِثْلَهَا.

١١٦٣ - وَلَيْسَ عَلَى الْعَالِمِ أَضْرٌ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى السَّلَاطِينِ؛ فَإِنَّهُ يُحَسِّنُ لِلْعَالِمِ الدُّنْيَا، وَيَهُونُ عَلَيْهِ الْمُنْكَرُ، وَرُبَّمَا أَرَادَ أَنْ يُنْكَرَ فَلَا يَصِحُّ لَهُ! فَإِنْ عَدِمَ الْقَنَاعَةَ، وَغَلَبَتْهُ نَفْسُهُ فِي طَلَبِ فَضُولِ الدُّنْيَا؛ سَلَّمَ عَلَيْهِ^(١)؛ لِأَنَّهُ يَتَعَرَّضُ بِأَرْبَابِهَا.

١١٦٤ - وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَمْشِي فِي السُّوقِ سَاعَةً، فَيَنْسَى بِمَا يَرَى مَا يَعْلَمُ؛ فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ التَّرَدُّدِ إِلَى الْأَعْيَاءِ، وَالطَّمَعِ فِي أَمْوَالِهِمْ؟!

فَأَمَّا الْوَحْدَةَ؛ فَإِنَّهَا سَبَبُ رُجُوعِ الْقَلْبِ، وَجَمْعِ الْهَمِّ، وَالنَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ، وَالتَّهَيُّؤِ لِلرَّحِيلِ، وَتَحْصِيلِ الرَّادِ؛ فَإِذَا انْضَمَّتْ إِلَيْهَا الْقَنَاعَةُ؛ جَلَبَتِ الْأَحْوَالَ الْمُسْتَحْسَنَةَ.

١١٦٥ - وَلَا تَحْسُنِ الْيَوْمَ الْمُجَالَسَةَ إِلَّا لِكِتَابٍ يُحَدِّثُكَ عَنْ أَسْرَارِ السَّلَفِ؛ فَأَمَّا مُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ؛ فَمُخَاطَرَةٌ؛ إِذْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ذِكْرِ الْآخِرَةِ فِي الْأَعْلَبِ، وَمُجَالَسَةَ الْعَوَامِّ فَتَنَةٌ لِلدِّينِ؛ إِلَّا أَنْ يَحْتَرِزَ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْقَوْلِ، فَيَقُولُ هُوَ، وَيَكْلِفُهُمُ السَّمَاعَ، ثُمَّ يَسْتَوْفِرُ^(٢) لِلْبُعْدِ عَنْهُمْ.

١١٦٦ - وَلَا يُمَكِّنُ الْانْقِطَاعُ الْكُلِّيَّ إِلَّا بِقَطْعِ الطَّمَعِ، وَلَا يَنْقَطِعُ الطَّمَعُ إِلَّا بِالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ، أَوْ يَتَجَرَّبُ بِتِجَارَةٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَقَارٌ يَسْتَغْلُهُ؛ فَإِنَّهُ مَتَى احتَاجَ تَشَتَّتَ الْهَمُّ، وَمَتَى انْقَطَعَ الْعَالِمُ عَنِ الْحَلْقِ، وَقَطَعَ طَمَعَهُ فِيهِمْ، وَتَوَقَّرَ عَلَى ذِكْرِ الْآخِرَةِ؛ فَذَلِكَ الَّذِي يَنْفَعُ وَيَنْتَفَعُ بِهِ. وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

(١) سقط اعتباره، وهو تعبير ما زال مستعملًا عند أهل الشام.

(٢) أي: يتحفز ويستعد.

١١٦٧ - مَنْ تَأَمَّلَ بَعَيْنِ الْفِكْرِ دَوَامَ الْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ؛ فِي صَفَاءٍ بِلَا كَدَرٍ، وَلَذَاتِ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَبُلُوغِ كُلِّ مَطْلُوبٍ لِلنَّفْسِ، وَالزِّيَادَةِ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُدْنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ وَلَا زَوَالٍ؛ إِذْ لَا يُقَالُ: أَلْفُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَلَا مِئَةُ أَلْفِ أَلْفٍ، بَلْ وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ عَدَّ الْأُلُوفَ أُلُوفَ السِّنِينَ لَانْقَضَى عَدُّهُ، وَكَانَ لَهُ نِهَآئَةٌ، وَبَقَاءُ الْآخِرَةِ لَا نَفَادَ لَهُ. إِلَّا أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَقْدِ هَذَا الْعُمُرِ.

١١٦٨ - وَمَا مِقْدَارُ عُمُرٍ غَايَتُهُ مِئَةُ سَنَةٍ، مِنْهَا خَمْسَةٌ عَشَرَ صَبُوءَةً وَجَهْلٌ، وَثَلَاثُونَ بَعْدَ السَّبْعِينَ - إِنْ حَصَلَتْ - ضَعْفٌ وَعَجْزٌ، وَالتَّوَسُّطُ نِصْفُهُ نَوْمٌ، وَبَعْضُهُ زَمَانٌ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَكَسْبٍ، وَالْمُنْتَحَلُ مِنْهُ لِلْعِبَادَاتِ يَسِيرٌ؟! أَفَلَا يُشْتَرَى ذَلِكَ الدَّائِمُ بِهَذَا الْقَلِيلِ!؟

١١٦٩ - إِنَّ الْإِعْرَاضَ عَنِ الشُّرُوعِ فِي هَذَا الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ لَعَبْنٌ فَاحِشٌ فِي الْعَقْلِ، وَخَلَلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْوَعْدِ. فَإِنَّ مَنْ يَدْرِي كَيْفَ يُعْقَدُ الْبَيْعُ بِالْعِلْمِ؛ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ، وَيُعَرِّفُ مَا يَصْلُحُ لَهَا، وَيَحذَرُ مِنْ قُطَاعِهَا^(١).

١١٧٠ - وَلَقَدْ دَخَلَ إِبْلِيسُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ بِآفَاتٍ، أَعْظَمَهَا أَنَّهُ صَرَفَهُمْ عَنِ الْعِلْمِ، فَكَأَنَّهُ شَرَعَ فِي إِظْفَاءِ الْمِصْبَاحِ لِيَسْرِقَ فِي الظُّلْمَةِ، حَتَّى إِنَّهُ أَخَذَ قَوْمًا مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ، فَسَلَكَ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَنْهَى عَنْهُ الْعِلْمُ.

١١٧١ - فَرَأَيْتُ أَبَا حَامِدٍ الطُّوسِيَّ يَحْكِي عَنْ نَفْسِهِ فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِ؛ قَالَ: شَاوَرْتُ مَتَبُوعًا مُقَدِّمًا مِنَ الصُّوفِيَّةِ فِي الْمَوَاطَبَةِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؟ فَمَنْعَنِي مِنْهُ! وَقَالَ: السَّبِيلُ أَنْ تَقْطَعَ عِلَاقَتَكَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْكُلِّيَّةِ؛ بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُكَ إِلَى أَهْلِ وَوَلَدٍ وَمَالٍ وَعِلْمٍ، بَلْ تَصِيرُ إِلَى حَالَةٍ يَسْتَوِي عِنْدَكَ وَجُودُ ذَلِكَ وَعَدَمُهُ، ثُمَّ تَخْلُو بِنَفْسِكَ فِي زَاوِيَةٍ، فَتَقْتَصِرُ مِنَ الْعِبَادَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالرَّوَاتِبِ، وَتَجْلِسُ فَارِعَ الْقَلْبِ،

(١) فِي الْأَصْلِ: فِظَاعَتَهَا، وَهِيَ تَصْحِيفٌ.

وَلَا تَزَالُ تَقُولُ: اللهُ، اللهُ. إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى حَالَةٍ؛ لَوْ تَرَكَتَ^(١) تَحْرِيكَ اللِّسَانِ؛
رَأَيْتَ كَأَنَّ الْكَلِمَةَ جَارِيَةٌ عَلَى لِسَانِكَ، ثُمَّ تَنْظُرُ مَا يَفْتَحُ عَلَيْكَ مِمَّا فُتِحَ مِثْلُهُ عَلَى
الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ!!

قُلْتُ: وَهَذَا أَمْرٌ لَا أَتَعَجَّبُ أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُوصِي بِهِ، وَإِنَّمَا أَتَعَجَّبُ مِنَ الَّذِي
قَبْلَهُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ وَفَهْمِهِ!! وَهَلْ يُقَطِّعُ الطَّرِيقَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؟! وَهَلْ يُفْتَحُ
لِلْأَنْبِيَاءِ مَا فُتِحَ بِمُجَاهَدَتِهِمْ وَرِيَاضَتِهِمْ؟! وَهَلْ يُوثِقُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِكِ؟! ثُمَّ
مَا الَّذِي يُفْتَحُ؟! أَتَمَّ إِطْلَاعٌ عَلَى عِلْمِ الْغَيْبِ؟ أَمْ هُوَ وَحْيِي؟!
فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ تَلَاعُبِ إِبْلِيسَ بِالْقَوْمِ، وَرُبَّمَا كَانَ مَا يَتَحَايَلُ لَهُمْ مِنْ أَثَرِ
الْمَالِئِخُولِيَا أَوْ مِنْ إِبْلِيسَ.

فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ، وَانظُرْ فِي سِيرِ السَّلَفِ؛ هَلْ فَعَلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَوْ أَمْرًا
بِهِ؟! وَإِنَّمَا تَشَاعَلُوا بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، فَدَلَّاهُمْ عَلَى إِصْلَاحِ الْبَوَاطِنِ وَتَضْفِيفَتِهَا.
نَسَأَلُ اللَّهَ ﷻ عِلْمًا نَافِعًا، وَدَفْعًا لِلْعَدُوِّ مَآئِعًا؛ إِنَّهُ قَادِرٌ.

٢٥٢ - فصل: الحزم في كتمان الحب والبغض

١١٧٢ - مَنْ أَرَادَ اضْطِفَاءَ مَحْبُوبٍ؛ فَالْمَحْبُوبُ نَوْعَانِ: أَمْرًا يُقْصَدُ مِنْهَا حُسْنُ
الصُّورَةِ، وَصَدِيقٌ يُقْصَدُ مِنْهُ حُسْنُ الْمَعْنَى. فَإِذَا أَعْجَبَتْكَ صُورَةُ أَمْرًا؛ فَتَأَمَّلْ
خِلَالَهَا^(٢) الْبَاطِنَةَ مُدْبِدَةً^(٣) قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ الْقَلْبُ بِهَا تَعَلُّقًا مُحْكَمًا؛ فَإِنْ رَأَيْتَهَا كَمَا
تُحِبُّ - وَأَصْلُ ذَلِكَ كُلُّهُ الدِّينُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ»^(٤)؛ فَمِلْ إِلَيْهَا،
وَاسْتَوْلِدْهَا، وَكُنْ فِي مِيلِكَ مُعْتَدِلًا^(٥)؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْعَلَطِ أَنْ تُظْهِرَ لِمَحْبُوبِكَ الْمَحَبَّةَ؛ فَإِنَّهُ
يَسْتَشْطِرُ عَلَيْكَ، وَتَلْقَى مِنْهُ الْأَذَى مِنَ التَّجَنِّيِّ وَالْهَجْرَانِ، وَالْإِدْزَالِ وَطَلَبِ الْإِنْفَاقِ الْكَثِيرِ
- وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّكَ -؛ لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَجْتَلِبُهُ حُبُّ الْإِدْزَالِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى الْمَقْهُورِ.

(٢) خلالها: صفاتها وخصالها.

(١) في الأصل: ترك.

(٣) مديدة: مدة قصيرة.

(٤) رواه البخاري (٤٤٣)، ومسلم (١٤٦٦)، عن جابر رضي الله عنه.

(٥) في الأصل: معتدل الميل.

١١٧٣ - وَتَمَّ نُكْتَةُ عَجِيبَةٍ، وَهُوَ أَنَّكَ رُبَّمَا عَمِلْتَ بِمُقْتَضَى الْحَالِ الْحَاضِرَةِ،
 وَهِيَ تَحْكُمُ بِكَمَالِ الْحُبِّ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ لَا يَثْبُتُ إِلَيْكَ، فَتَقَعُ، وَتَبْقَى مَقْهُورًا،
 وَيَضَعُبُ عَلَيْكَ الْخَلَاصُ! وَرُبَّمَا تَمَكَّنْتَ مِنْكَ بِمَعْرِفَةِ سِرِّكَ، أَوْ بِأَخْذِ كَثِيرٍ مِنْ مَالِكَ.
 ١١٧٤ - وَمِنْ أَحْسَنِ مَا بَلَغَنِي فِي هَذَا أَنْ جَارِيَةً لِبَعْضِ الْخُلَفَاءِ كَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا
 شَدِيدًا، وَلَا تَظْهَرُ لَهُ ذَلِكَ، فَسُئِلَتْ عَنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ: لَوْ أَظْهَرْتُ مَا عِنْدِي، فَجَفَانِي؛
 هَلَكْتُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تُظْهَرَنَّ مَوَدَّةَ لِحَبِيبٍ فَتَرَى بِعَيْنِكَ مِنْهُ كُلَّ عَجِيبٍ
 أَظْهَرْتُ يَوْمًا لِلْحَبِيبِ مَوَدَّتِي فَأَخَذْتُ مِنْ هِجْرَانِهِ بِنَصِيبِي

١١٧٥ - وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكْتُمَ بَعْضَ حُبِّكَ لِلْوَلَدِ، لِأَنَّهُ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكَ، وَيُضَيِّعُ
 مَالَكَ، وَيَبَالِغُ فِي الْإِذْلَالِ، وَيَمْتَنِعُ عَنِ التَّعَلُّمِ وَالتَّأْدِبِ.

١١٧٦ - وَكَذَلِكَ إِذَا اصْطَفَيْتَ صَدِيقًا وَخَبِرْتَهُ؛ فَلَا تُخْبِرْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَكَ، بَلْ
 تَعَاهَدْهُ بِالْإِحْسَانِ، كَمَا تَتَعَاهَدُ الشَّجَرَةَ؛ فَإِنَّهَا إِذَا كَانَتْ جَيِّدَةً الْأَصْلِ؛ حَسُنَتْ ثَمَرُهَا
 بِالتَّعَاهُدِ، ثُمَّ كُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ؛ فَقَدْ تَتَغَيَّرُ الْأَحْوَالُ، وَقَدْ قِيلَ:

أَخَذَرُ عَدُوَّكَ مَرَّةً وَأَخَذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةٍ
 فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ قِي فَكَانَ أَدْرِي بِالْمَضْرَبَةِ

٢٥٣ - فصل: لا تظهر بغضك لمن تبغضه

١١٧٧ - وَأَمَّا إِذَا أَبْغَضْتَ شَخْصًا [لأنه يسؤوك]؛ فَلَا تَظْهَرَنَّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّكَ
 تُنْبِئُهُ عَلَى أَخْذِ الْحَذَرِ مِنْكَ، وَتَدْعُوهُ إِلَى الْمُبَارَاةِ، فَيَبَالِغُ فِي حَرْبِكَ وَالْإِحْتِيَالِ
 عَلَيْكَ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَظْهَرَ لَهُ الْجَمِيلَ إِنْ قَدَرْتَ، وَتَبْرَهُ مَا اسْتَطَعْتَ، حَتَّى تَنْكَسِرَ^(١)
 مُعَادَاتُهُ بِالْحَيَاءِ^(٢) مِنْ بَعْضِكَ؛ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ؛ فَهَجِّرْ جَمِيلًا؛ لَا تُبَيِّنُ فِيهِ مَا يُؤْذِي،
 وَمَتَى سَمِعْتَ عَنْهُ كَلِمَةً قَدِيعَةً؛ فَاجْعَلْ جَوَابَهَا كَلِمَةً جَمِيلَةً؛ فَهِيَ أَقْوَى فِي كَفِّ
 لِسَانِهِ.

(٢) في الأصل: جيلة.

(١) في الأصل: فانكسرت.

وَكذَلِكَ جَمِيعٌ مَا يُخَافُ إِظْهَارُهُ؛ فَلَا تَتَكَلَّمَنَّ بِهِ؛ فَرُبَّمَا وَقَعَتْ كَلِمَةٌ أَسْقَطَتْ بِهَا عِزَّ السُّلْطَانِ، فَنُقِلْتَ إِلَيْهِ، فَكَانَتْ سَبَبَ هَلَاكِكَ. أَوْ عَنْ صَدِيقِي، فَكَانَتْ سَبَبَ عَدَاوَتِهِ، أَوْ صِرَتْ رَهِينًا لِمَنْ سَمِعَهَا؛ خَائِفًا أَنْ يُظْهِرَهَا. فَالْحَرَمُ كَثْمَانُ الْحَبِّ وَالْبُغْضِ.

١١٧٨ - وَكَذَا يُنْبَغِي أَنْ تَكْتُمَ سِنَّكَ؛ فَإِنْ كُنْتَ كَبِيرًا؛ اسْتَهْرَمُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ صَغِيرًا؛ اسْتَحْضَرُوكَ. وَكَذَلِكَ مِقْدَارُ مَالِكَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ كَثِيرًا؛ نَسَبُوكَ فِي نَفَقَتِكَ إِلَى الْبُخْلِ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا؛ طَلَبُوا الرَّاحَةَ مِنْكَ. وَكَذَلِكَ الْمَذْهَبُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَظْهَرْتَهُ؛ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَسْمَعَهُ مُخَالِفٌ، فَيَقْطَعُ بِكُفْرِكَ. وَقَدْ أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِيِّ الْبِرَازُ:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَبْحَ بِثَلَاثَةٍ سِنَّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ
فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلَاثَةٍ بِمُؤَمِّهِ وَمُخْرِقِ وَمُكَدِّبِ

٢٥٤ - فصل: خادم السلطان يُخشى على دينه ودينه

١١٧٩ - طَالَ تَعَجُّبِي مِنْ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ ﷻ، مُؤْمِنٍ بِحِرَائِهِ، يُؤَثِّرُ خِدْمَةَ السُّلْطَانِ، مَعَ مَا يَرَى مِنْهُ مِنَ الْجَوْرِ الظَّاهِرِ؛ فَوَا عَجَبًا! مَا الَّذِي يُعْجِبُهُ؟! إِنْ كَانَ الَّذِي يُعْجِبُهُ دُنْيَوِيًّا؛ فَلَيْسَ ثُمَّ إِلَّا أَنْ يُصَاحَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ، وَأَنْ يَتَّصِدَرَ فِي الْمَجَالِسِ، وَيَلْوِي عُنُقَهُ كَبْرًا عَلَى النُّظَرَاءِ، وَيَأْخُذُ الْأَسْحَاتَ^(١)، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ حَصَلَ، وَرُبَّمَا انْبَسَطَ فِي الْبِرَاطِيلِ^(٢).

ثُمَّ يَقَابِلُ هَذَا أَنْ يُصَادَرَ، وَيُعْزَلَ، فَتَسْتَخْرِجُ مِنْهُ تِلْكَ الْمَرَارَةَ كُلَّ حَلَاوَةٍ كَانَتْ فِي الْوِلَايَةِ. وَرُبَّمَا كَانَ قَرِيبَ الْحَالِ^(٣)، فَافْتَقَرَ بِالْمُصَادَرَةِ جِدًّا، ثُمَّ تَنْطَلِقُ الْأَلْسُنُ الْمَادِحَةَ بِالذَّمِّ. ثُمَّ لَوْ سَلِمَ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنَ الرَّقِيبِ لَهُ، وَالْحَذَرِ مِنْهُ؛ فَهُوَ كَرَائِبِ الْبَحْرِ، إِنْ سَلِمَ بَدَنُهُ مِنَ الْعَرَقِ؛ لَمْ يَسْلَمْ قَلْبُهُ مِنَ الْخَوْفِ.

وَإِنْ كَانَ دِينًا؛ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُمَكِّنُونَهُ فِي الْعَالِبِ مِنَ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى الدِّينِ؛

(١) الْأَسْحَاتُ: جَمْعُ سَحْتٍ وَهُوَ الْمَالُ الْحَرَامُ. (٢) الْبِرَطِيلُ: الرِّشْوَةُ.

(٣) أَيُّ بَيْنِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى.

فَانْهَم بِأَمْرُوْنَه بِتَرْك مَا يَجِبُ، وَفَعَلَ مَا لَا يَجُوزُ، فَيَذْهَبُ دِيْنَه عَلَى الْبَارِدِ! وَلِعِقَابِ
الْآخِرَةِ أَشَقُّ.

٢٥٥ - فصل: من أنف الذل تجافى عن منن الأندال

١١٨٠ - الْعَجَبُ مِنَ الَّذِي أَنْفَ الذُّلَّ! كَيْفَ لَا يَصْبِرُ عَلَى جَافِ الْخُبْرِ، وَلَا

يَتَعَرَّضُ لِمِنَّ الْأَنْدَالِ؟!!

أَتَرَاهُ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا بَقِيَ صَاحِبُ مُرُوَّةٍ؟! وَأَنَّهُ إِنْ سَأَلَ؛ سَأَلَ بِخَيْلًا لَا يُعْطَى؛

فَإِنْ أَعْطِيَ تَزْرَأَ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَعْبِدُ الْمُعْطَى بِذَلِكَ الْعُمْرَ؟!!

ثُمَّ ذَاكَ الْقَدْرُ التَّزْرُ يُذْهَبُ عَاجِلًا، وَتَبْقَى الْمِنَّ وَالْحَجَلُ وَرُؤْيَةُ النَّفْسِ بَعَيْنِ

الْأَحْتِقَارِ؛ إِذْ صَارَتْ سَائِلَةً، وَرُؤْيَةُ الْمُعْطَى بَعَيْنِ التَّعْظِيمِ أَبَدًا. ثُمَّ يُوجِبُ ذَلِكَ

السُّكُوتَ عَنِ مَعَايِبِ الْمُعْطَى، وَالْبِدَارَ إِلَى قَضَاءِ حُقُوقِهِ، وَخِدْمَتِهِ فِيمَا بَقِيَ (١).

١١٨١ - وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَعْبِدَ الْأَحْرَارَ بِقَلِيلِ الْعَطَاءِ الْفَانِي وَلَا

يَفْعَلُ؛ فَإِنَّ الْحُرَّ لَا يُشْتَرَى إِلَّا بِالْإِحْسَانِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

تَفَضَّلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ وَأَعْنِ بِأَمْرِهِ فَأَنْتَ، وَلَوْ كَانَ الْأَمِيرَ، أَمِيرُهُ

وَكُنْ ذَا غِنَى عَمَّنْ تَشَاءُ مِنَ الْوَرَى وَلَوْ كَانَ سُلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيرُهُ

وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَوَاقِفًا عَلَى طَمَعٍ مِنْهُ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ

٢٥٦ - فصل: يتضمّن وصية للشباب*

١١٨٢ - يَنْبَغِي لِلصَّبِيِّ إِذَا بَلَغَ أَنْ يَحْذَرَ كَثْرَةَ الْجِمَاعِ؛ لِيَتَّقَى جَوْهَرَهُ، فَيُفَيْدَهُ

ذَلِكَ فِي الْكِبَرِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْجَائِزِ كِبَرُهُ، وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْجَائِزِ حَزْمٌ؛ فَكَيْفَ لِلْغَالِبِ؟! كَمَا

يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلشَّاءِ قَبْلَ هُجُومِهِ، وَمَتَى أَنْفَقَ الْحَاصِلَ وَقَتَ الْقُدْرَةِ؛ تَأَدَّى بِالْفَقْرِ

إِلَيْهِ وَقَتَ الْفَاقَةِ.

١١٨٣ - وَلْيَعْلَمْ ذُو الدِّينِ وَالْفَهْمِ أَنَّ الْمُتَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَبِيبِ،

(١) بقي من العمر، انظر الفصل (٢٦٤).

وَالْقُرْبُ يَحْصُلُ بِالتَّقْبِيلِ وَالضَّمِّ، وَذَلِكَ يُقَوِّي الْمَحَبَّةَ، وَالْمَحَبَّةُ يَلِدُ وُجُودَهَا، وَالْوَطْءُ يُنْقِصُ الْمَحَبَّةَ، وَيُعِدُّ تِلْكَ اللَّذَّةَ!! وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَعْشَقُونَ، وَلَا يَرَوْنَ وَطْءَ الْمَعْشُوقِ! قَالَ قَائِلُهُمْ^(١):

..... إِنَّ نِكْحَ الْحُبِّ فَسَدٌ

فَأَمَّا الْإِلْتِدَادُ بِنَفْسِ الْوَطْءِ؛ فَشَأْنُ الْبَهَائِمِ^(٢).

١١٨٤ - وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ الْمُرَادَ مِنَ الْوَطْءِ^(٣)، فَوَجَدْتُ فِيهِ مَعْنَى عَجِيبًا يَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا عَشِقَتْ شَخْصًا؛ أَحَبَّتِ الْقُرْبَ مِنْهُ؛ فَهِيَ تُؤَثِّرُ الضَّمَّ وَالْمَعَانِقَةَ؛ لِأَنَّهَا غَايَةٌ فِي الْقُرْبِ. ثُمَّ تُرِيدُ قُرْبًا يَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَتَقْبَلُ الْحَدَّ. ثُمَّ تَطْلُبُ الْقُرْبَ مِنَ الرُّوحِ، فَتَقْبَلُ الضَّمَّ؛ لِأَنَّهُ مَنْقَدٌ إِلَى الرُّوحِ. ثُمَّ تَطْلُبُ الزِّيَادَةَ، فَتَمُصُّ لِسَانَ الْمَحْبُوبِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَشَّحُ عَائِشَةَ^(٤)، وَيُقَبِّلُهَا، وَيَمَصُّ لِسَانَهَا. فَإِذَا طَلَبَتِ النَّفْسُ زِيَادَةَ فِي الْقُرْبِ إِلَى النَّفْسِ؛ اسْتَعْمَلَتِ الْوَطْءَ. فَهَذَا سِرُّهُ الْمَعْنَوِيُّ، وَيَحْصُلُ مِنْهُ الْإِلْتِدَادُ الْحِسِّيُّ.

٢٥٧ - فصل: ضرر علم الكلام على العوام

١١٨٥ - لَيْسَ عَلَى الْعَوَامِّ أَضْرٌ مِنْ سَمَاعِهِمْ عِلْمَ الْكَلَامِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَدَّرَ الْعَوَامُّ مِنْ سَمَاعِهِ وَالْحَوْضِ فِيهِ، كَمَا يُحَدَّرُ الصَّبِيُّ مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ خَوْفَ الْعَرَقِ. وَرَبَّمَا ظَنَّ الْعَامِيُّ أَنَّ لَهُ قُوَّةَ يُدْرِكُ بِهَا هَذَا، وَهُوَ فَاسِدٌ؛ فَإِنَّهُ قَدْ زَلَّ فِي هَذَا خَلْقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ فَكَيْفَ الْعَوَامُّ!؟

١١٨٦ - وَمَا رَأَيْتُ أَحَمَقَ مِنْ جُمُهورِ قُصَّاصِ زَمَانِنَا؛ فَإِنَّهُ يَحْضُرُ عِنْدَهُمْ

(١) سبقت الأبيات في الفصل (٢٣٥).

(٢) قال المؤلف في الفصل (٢٨): ولما كانت صورة النكاح تأبأها النفوس الشريفة من كشف عورة، وملافاة ما لا يستحسن لنفسه جعلت الشهوة تحث عليه ليحصل المقصود.

(٣) قال المؤلف في الفصل (٢٨): تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه فرأيت الأصل الأكبر في وضعه وجود النسل.

(٤) التوشح: المعانقة والتقبيل، انظر: الحديث في نهاية ابن الأثير (وشح).

الْعَوَامُّ الْعُشْمُ، فَلَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ حَمْرِ وَرْنَا وَغَيْبِيَّةٍ، وَلَا يُعَلِّمُونَهُمْ أَرْكَانَ الصَّلَاةِ،
وَوَظَائِفَ التَّعْبُدِ، بَلْ يَمْلُؤُونَ الزَّمَانَ بِذِكْرِ الاستِوَاءِ، وَتَأْوِيلِ الصِّفَاتِ، وَأَنَّ الْكَلَامَ
قَائِمٌ بِالذَّاتِ، فَيَتَأَذَى بِذَلِكَ مَنْ كَانَ قَلْبُهُ سَلِيمًا.

١١٨٧ - وَإِنَّمَا عَلَى الْعَامِّيِّ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْأُصُولِ الْخَمْسَةِ^(١)؛ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ،
وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَقْنَعَ بِمَا قَالَ السَّلَفُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ،
وَالاستِوَاءُ حَقٌّ، وَالْكِيفُ مَجْهُولٌ.

١١٨٨ - وَلْيُعْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُكَلِّفِ الْأَعْرَابَ سِوَى مُجَرَّدِ الْإِيمَانِ،
وَلَمْ تَتَكَلَّمِ الصَّحَابَةُ فِي الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ؛ فَمَنْ مَاتَ عَلَى طَرِيقِهِمْ؛ مَاتَ مُؤْمِنًا
سَلِيمًا مِنْ بِدْعَةٍ. وَمِنْ تَعَرَّضَ لِسَاحِلِ الْبَحْرِ، وَهُوَ لَا يُحْسِنُ السَّبَاحَةَ؛ فَالظَّاهِرُ
عَرَفُهُ.

٢٥٨ - فصل: أشد الناس جهلاً منهوم بالذات

١١٨٩ - أَشَدُّ النَّاسِ جَهْلًا مَنْهُومٌ بِالذَّاتِ. وَالذَّاتُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: مُبَاحَةٌ
وَمَحْظُورَةٌ: فَالْمُبَاحَةُ لَا يَكَادُ يَحْصُلُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا بِضِيَاعِ مَا هُوَ مُهِمٌّ مِنَ الدِّينِ؛ فَإِذَا
حَصَلَتْ مِنْهَا حَبَّةٌ؛ قَارَنَهَا فَنظَارٌ مِنَ الْهَمِّ.

ثُمَّ لَا تَكَادُ تَصْفُو فِي نَفْسِهَا، بَلْ مُكَدِّرَاتُهَا أَلْوَفٌ، فَإِذَا صَوَّرَ عَدَمُهَا [بَعْدَ
انْقِضَائِهَا، وَبَقَاءِ هَذِهِ] الْأَلْوَفِ [الْمُكَدِّرَةِ]؛ صَارَ التَّصْوِيرُ مُغْلَصِمًا^(٢) لِلْهَوَى، مُحْزَنًا^(٣)
لِلنَّفْسِ.

فَإِذَا أَنْفَتَ^(٤)؛ أَنْفَتَ مِنَ الْأَسْفِ عَلَى الدَّوَامِ مَا لَا تَحْوِيهِ صِفَةٌ؛ فَهِيَ تَعْرِ
الْعَمْرِ^(٥)، وَتَهْدِمُ الْعَمْرَ، وَتُدِيمُ الْأَسَى.

(١) بل أصول الإيمان ستة، يضاف إليها الإيمان بالقدر خيره وشره كما جاء في حديث جبريل.

(٢) مغلصمًا: ذابحًا. (٣) في الأصل مجرتًا: وهو تصحيف.

(٤) أنفت: عزفت.

(٥) الغمر: الساذج الذي لا علم له ولا تجربة.

وَمَعَ هَذَا؛ فَالْمَنْهُومُ كُلَّمَا عَبَّ مِنْ لَذَّةٍ؛ طَلَبَ أُخْتَهَا، وَقَدْ عَرَفَ جِنَايَةَ الْأُوَلَى
وَحَيَاتِنَهَا - وَهَذَا مَرَضُ الْعَقْلِ، وَدَاءُ الطَّبَعِ - فَلَا يَزَالُ هَذَا كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يُخْتَطَفَ
بِالْمَوْتِ، فَيُلْقَى عَلَى سِاطِ نَدَمٍ لَا يُسْتَدْرَكُ.

فَالعَجَبُ مِمَّنْ هَمَّتْهُ هَكَذَا مَعَ قِصْرِ العُمُرِ، ثُمَّ لَا يَهْتَمُّ بِأَخِرَتِهِ؛ الَّتِي لَدَتْهَا
سَلِيمَةٌ مِنْ شَائِبٍ^(١)، مُنَزَّهَةٌ عَنِ مَعَايِبِ، دَائِمَةٌ إِلَى الْأَمَدِ، بَاقِيَةٌ بِبَقَاءِ الْأَبَدِ! وَإِنَّمَا
يَحْصُلُ تَقْرِيْبُ هَذِهِ بِإِبْعَادِ تِلْكَ، وَعِمْرَانُ هَذِهِ بِتَخْرِيْبِ تِلْكَ. فَوَا عَجَبًا لِعَاقِلٍ حَصِيْفٍ
حَسَنِ التَّدْبِيرِ؛ فَاتَهُ النَّظَرُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَعَقَلَ عَنِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ!
وَإِنْ كَانَتْ اللَّذَّةُ مَعْصِيَةً؛ انْضَمَّ إِلَى مَا ذَكَرْنَا: عَارُ الدُّنْيَا، وَالْفَضِيحَةُ بَيْنَ
الْخَلْقِ، وَعُقُوبَةُ الْحُدُودِ، وَعِقَابُ الْآخِرَةِ، وَعَضْبُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ.

بِاللهِ؛ إِنَّ الْمُبَاحَاتِ تَشْغَلُ عَنِ تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ؛ فَذَمُّ ذَلِكَ لِبَيَانِ الْحَزْمِ؛ فَكَيْفَ
بِالْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الرَّدَائِلِ؟!
نَسَأَلُ اللَّهَ ﷻ يَقْظَةً تُحَرِّكُنَا إِلَى مَنَافِعِنَا، وَتُرْعِجُنَا عَنِ خَوَادِعِنَا؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ.

٢٥٩ - فصل: الهوى والتسوييف والاعتذار بالرحمة

١١٩٠ - تَأَمَّلْتُ عَلَى الْخَلْقِ، وَإِذَا هُمْ فِي حَالَةٍ عَجِيبَةٍ، يَكَادُ يُقْطَعُ مَعَهَا بِنَسَادِ
الْعَقْلِ! وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْمَعُ الْمَوَاعِظَ، وَتَذَكَّرُ لَهُ الْآخِرَةَ، فَيَعْلَمُ صِدْقَ الْقَائِلِ،
فَيَبْكِي وَيَنْزِعُ عَلَى تَفْرِيطِهِ، وَيَعَزِّمُ عَلَى الْاسْتِدْرَاكِ، ثُمَّ يَتَرَاحَى عَمَلُهُ بِمُقْتَضَى مَا
عَزَمَ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا قِيلَ لَهُ: أَتَشْكُ فِيمَا وَعَدْتَ بِهِ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ. فَيُقَالُ لَهُ: فَأَعْمَلْ!
فَيَنْوِي ذَلِكَ، ثُمَّ يَتَوَقَّفُ عَنِ الْعَمَلِ، وَرُبَّمَا مَالَ إِلَى لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ النَّهْيَ
عَنْهَا!

١١٩١ - وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ تَأَخَّرُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِفُوا^(٢)، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُدْرٌ،
وَهُمْ يَعْلَمُونَ قُبْحَ التَّأَخُّرِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ عَاصٍ وَمُفْرِطٍ.

(١) في الأصل: شامت وهو تصحيف.

(٢) هم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، انظر قصتهم في البخاري (٤٤١٨)،
ومسلم (٢٧٣٩) عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

فَتَأَمَّلْتُ السَّبَبَ - مَعَ أَنَّ الِاعْتِقَادَ صَاحِحٌ، وَالْفِعْلَ بَطِيءٌ - فَإِذَا لَهُ ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ:
أَحَدُهَا: رُؤْيَةُ الْهَوَى الْعَاجِلِ؛ فَإِنَّ رُؤْيَتَهُ تَشْعَلُ عَنِ الْفِكْرِ فِيمَا يَجْنِيهِ.

والثاني: التَّسْوِيفُ بِالتَّوْبَةِ؛ فَلَوْ حَضَرَ الْعَقْلُ؛ لَحَدَّرَ مِنْ آفَاتِ التَّأخِيرِ؛ فَرُبَّمَا هَجَمَ الْمَوْتُ وَلَمْ تَحْضُرِ التَّوْبَةُ! وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يُجَوِّزُ سَلْبَ رُوحِهِ قَبْلَ مُضِيِّ سَاعَةٍ، وَلَا يَعْمَلُ عَلَى الْحَزْمِ! غَيْرَ أَنَّ الْهَوَى يُطِيلُ الْأَمَدَ. وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ الشَّرْحِ رحمته: «صَلِّ صَلَاةَ مُودَعٍ»^(١)، وَهَذَا نَهَايَةُ الدَّوَاءِ لِهَذَا الدَّاءِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَبْقَى إِلَى صَلَاةٍ أُخْرَى؛ جَدًّا وَاجْتَهَدًا.

والثالث: رَجَاءُ الرَّحْمَةِ، فَيَرَى الْعَاصِي يَقُولُ: رَبِّي رَحِيمٌ! وَيَنْسَى أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ!! وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَيْسَتْ رِقَّةً - إِذْ لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ؛ لَمَا ذَبَحَ عُصْفُورًا وَلَا أَلَمَ طِفْلًا - وَعِقَابُهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ - فَإِنَّهُ شَرَعَ قَطَعَ الْيَدَ الشَّرِيفَةَ^(٢) بِسَرِقَةِ حَمْسَةِ قَرَارِيضٍ^(٣) -؛ لَجَدًّا وَأَنَابَ. فَسَأَلَ اللَّهُ تعالى أَنْ يَهَبَ لَنَا حَزْمًا يَبِيْثُ الْمَصَالِحَ جَزْمًا.

٢٦٠ - فصل: الإعراض عما يحرك الفخر والزهو والعجب

١١٩٢ - نَظَرْتُ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا لَبَسَ الْخَاتَمَ، ثُمَّ رَمَى بِهِ، وَقَالَ: «شَغَلَنِي وَنَظَرَةٌ إِلَيْكُمْ وَنَظَرَةٌ إِلَيْهِ»^(٤)، وَقَوْلُهُ: «هَذَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي حُلَّتِهِ، مُرَجَّلًا جُمَّتَهُ؛ حُسَيْفٌ بِهِ الْأَرْضُ؛ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٥)، فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَلْبَسَ ثَوْبًا مُعْجَبًا، وَلَا شَيْئًا مِنْ زِينَتِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ النَّظَرَ إِلَى النَّفْسِ بِعَيْنِ الْإِعْجَابِ، وَالنَّفْسُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ذَلِيلَةً لِلْخَالِقِ.

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧١)، وأحمد (٤١٢/٥)، والبخاري في التاريخ (٢/٣/٢١٦)، وأبو نعيم في (٣٦٢/١)، قال الهيثمي: إسناده ضعيف، وله شاهدان أحدهما صحيح رواه الحاكم (٤/٣٢٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) كانت اليد شريفة قبل أن تسرق كما قال أحدهم: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت.

(٣) القيراط = ٠,٢٢٣٢ غ.

(٤) رواه النسائي (٥٢٨٩)، وأحمد (٣٢٢/١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١١٩٣ - وَقَدْ كَانَ قُدَمَاءُ الْأَحْبَارِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمْشُونَ عَلَى الْعِصِيِّ؛ لِئَلَّا يَقَعَ مِنْهُمْ بَطْرٌ فِي الْمَشْيِ.

١١٩٤ - وَلَيْسَتْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دِرْعًا لَهَا، فَأَعْجَبَتْ بِهِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ فِي حَالَتِكَ هَذِهِ»^(١).

١١٩٥ - وَلَمَّا لَبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمِيصَةً لَهَا أَعْلَامٌ؛ قَالَ: «أَلْهَيْتَنِي هَذِهِ عَنْ صَلَاتِي»^(٢).

وَهَذَا كُلُّهُ يُوجِبُ الْإِعْرَاضَ عَنِ الزَّيْتَةِ، وَمَا يُحَرِّكُ إِلَى الْفَخْرِ وَالرُّهُو وَالْعُجْبِ. وَلِهَذَا حَرَّمَ الْحَرِيرُ.

١١٩٦ - وَأَقُولُ عَلَى سَبَابِ هَذَا: إِنَّ الْمُرَقَّعَاتِ الَّتِي يَتَنَوَّقُ^(٣) فِيهَا الْمُتَصَوِّفَةُ بِالسَّوَارِكِ وَالتَّلْمِيْعِ، رَبَّمَا أَوْجَبَتْ زُهْوً اللَّائِسِ: إِمَّا لِحُسْنِهَا فِي دَاتِهَا، أَوْ لِعِلْمِهَا أَنَّهَا تُنْبِئُ عَنْهُ بِالتَّصَوُّفِ وَالرُّهْدِ. وَكَذَلِكَ الْخَاتَمُ فِي الْيَدِ، وَطَوُّ الْأَكْمَامِ، وَالنَّعَالُ الصَّرَارَةُ^(٤). وَلَا أَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَحْرُمُ، بَلْ رَبَّمَا جَلَبَتْ مَا يَحْرُمُ مِنَ الزُّهُوِّ. فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَهُ بِمَا قُلْتُ فِي دَفْعِ كُلِّ مَا يَحْذَرُ مِنْ شَرِّهِ.

١١٩٧ - وَقَدْ رَكَبَ ابْنُ عُمَرَ نَجِيًّا^(٥)، فَأَعْجَبَهُ مَشْيُهُ، فَتَزَلَّ، وَقَالَ: يَا نَافِعُ! أَخْلِهِ فِي الْبُذْنِ^(٦).

٢٦١ - فصل: العزلة حمية

١١٩٨ - مَنْ أَرَادَ اجْتِمَاعَ هَمِّهِ وَإِصْلَاحَ قَلْبِهِ؛ فَلْيَحْذَرْ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يَقَعُ الْاجْتِمَاعُ عَلَى مَا يَنْفَعُ ذِكْرَهُ، فَصَارَ الْاجْتِمَاعُ عَلَى مَا يَضُرُّ!

(١) رواه أبو نعيم (٣٧/١) وفي سننه إسحاق بن بشر: كذاب (لا أصل له).

(٢) رواه البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، و(الخميصة) كساء مربع له علمان.

(٣) يتنوق: يتأنق.

(٤) النعال الصرارة: التي لها صرير، وهو الصوت الذي يلفت انتباه الناس.

(٥) النجيب: السريع من الإبل. (٦) البدن: النوق التي تهدى للبيت الحرام.

١١٩٩ - وَقَدْ جَرَّبْتُ عَلَى نَفْسِي مِرَارًا أَنْ أَحْضَرَهَا فِي بَيْتِ الْعُزْلَةِ، فَتَجْتَمِعَ هِيَ، وَيُضَافَ إِلَى ذَلِكَ النَّظْرُ فِي سِيرِ السَّلَفِ، فَأَرَى الْعُزْلَةَ حِمِيَّةً، وَالنَّظْرَ فِي سِيرِ الْقَوْمِ دَوَاءً، وَاسْتِعْمَالَ الدَّوَاءِ مَعَ الْحِمِيَّةِ عَنِ التَّخْلِيْطِ نَافِعٌ. فَإِذَا فَسَحَتْ لِنَفْسِي فِي مُجَالَسَةِ النَّاسِ وَلِقَائِهِمْ؛ تَشَتَّتَ الْقَلْبُ الْمُجْتَمِعُ، وَوَقَعَ الذُّهُوْلُ عَمَّا كُنْتُ أُرَاعِيهِ، وَانْتَقَشَ فِي الْقَلْبِ مَا قَدْ رَأَتْهُ الْعَيْنُ، وَفِي الضَّمِيرِ مَا تَسْمَعُهُ الْأُذُنُ، وَفِي النَّفْسِ مَا تَطْمَعُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِذَا جُمُهُورُ الْمُخَالِطِينَ أَرْبَابَ عَقْلِيَّةٍ، وَالطَّيْبُ بِمُجَالَسَتِهِمْ يَسْرِقُ مِنْ طِبَاعِهِمْ. فَإِذَا عُدْتُ أَطْلُبُ الْقَلْبَ؛ لَمْ أَجِدْهُ، وَأُرُومُ ذَلِكَ الْحُضُورَ فَأَفْقِدُهُ، فَيَبْقَى فُؤَادِي فِي عِمَارِ ذَلِكَ اللَّقَاءِ لِلنَّاسِ أَيَّامًا، حَتَّى يَسْلُوَ الْهَوَى.

١٢٠٠ - وَمَا فَائِدَةُ تَعْرِِيضِ الْبِنَاءِ لِلنَّقْصِ؟! فَإِنَّ دَوَامَ الْعُزْلَةِ كَالْبِنَاءِ، وَالنَّظْرُ فِي سِيرِ السَّلَفِ يَرْفَعُهُ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْمُخَالِطَةُ؛ انْتَقَضَ مَا بُنِيَ فِي مُدَّةٍ فِي لَحْظَةٍ، وَصَعِبَ التَّلَافِي، وَضَعُفَ الْقَلْبُ! وَمَنْ لَهُ فَهْمٌ يَعْرِفُ أَمْرَاضَ الْقَلْبِ، وَإِعْرَاضَهُ عَنِ صَاحِبِهِ، وَخُرُوجَ طَائِرِهِ مِنْ قَفْصِهِ. وَلَا يُؤْمِنُ عَلَى هَذَا الْمَرِيضِ أَنْ يَكُونَ مَرَضُهُ هَذَا سَبَبَ التَّلَفِ، وَلَا عَلَى هَذَا الطَّائِرِ الْمَحْضُورِ أَنْ يَقَعَ فِي الشَّبَكَةِ.

١٢٠١ - وَسَبَبُ مَرَضِ الْقَلْبِ أَنَّهُ كَانَ مَحْمِيًّا عَنِ التَّخْلِيْطِ، مُعَدًّا بِالْعِلْمِ وَسِيرِ السَّلَفِ، فَخَلَطَ، فَلَمْ يَحْتَمِلْ مِرَاجُهُ، فَوَقَعَ الْمَرَضُ.

فَالجِدِّ الْجِدِّ؛ فَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ. وَمَا نَرَى مَنْ يُلْقَى، وَلَا مَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ، وَلَا مَنْ تَنَفَّعَ مُجَالَسَتُهُ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَادِرًا مَا أَعْرِفُهُ.

مَا فِي الصَّحَابِ أَخُو وَجِدٍ نَطَارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا صَبَّ نَجَارِيهِ

١٢٠٢ - فَالزَّمْ خَلْوَتَكَ! وَرَاعِ مَا بَقِيَتْ! وَإِذَا فَلِقَتْ النَّفْسُ مُشْتَاقَةً إِلَى لِقَاءِ الْخَلْقِ؛ فَأَعْلَمَ أَنَّهَا بَعْدُ كِدْرَةٌ؛ فَرُضْهَا، لِيَصِيرَ لِقَاؤُهُمْ عِنْدَهَا مَكْرُوهًا... وَلَوْ كَانَ عِنْدَهَا شُغْلٌ بِالْخَالِقِ؛ لَمَا أَحَبَّتِ الرَّحْمَةَ؛ كَمَا أَنَّ الَّذِي يَخْلُو بِحَبِيبِهِ لَا يُؤَثِّرُ حُضُورَ غَيْرِهِ. وَلَوْ أَنَّهَا عَشِقَتْ طَرِيقَ الْيَمَنِ؛ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى الشَّامِ.

١٢٠٣ - تَفَكَّرْتُ فِي سَبَبِ هِدَايَةِ مَنْ يَهْتَدِي، وَانْتِبَاهِ مَنْ يَتَّقِظُ مِنْ رُقَادِ عَقْلِيهِ، فَوَجَدْتُ السَّبَبَ الْأَكْبَرَ اخْتِيَارَ الْحَقِّ ﷻ لِذَلِكَ الشَّخْصِ؛ كَمَا قِيلَ: إِذَا أَرَادَكَ لِأَمْرٍ؛ هَيَّاكَ لَهُ.

فَتَارَةً تَقَعُ الْيَقِظَةُ بِمُجَرَّدِ فِكْرٍ يُوجِبُهُ نَظْرُ الْعَقْلِ، فَيَتَلَمَّحُ الْإِنْسَانُ وَجُودَ نَفْسِهِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ لَهَا صَانِعًا، وَقَدْ طَالَبَهُ بِحَقِّهِ، وَشَكَرَ نِعْمَتِهِ، وَخَوَّفَهُ عِقَابَ مُخَالَفَتِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ظَاهِرٍ.

١٢٠٤ - وَمِنْ هَذَا مَا جَرَى لِأَهْلِ الْكَهْفِ؛ «إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» [الكهف: ١٤]. وَفِي التَّفْسِيرِ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَلْفِي^(١) فِي قَلْبِهِ يَقِظَةٌ، فَقَالَ: لَا بُدَّ لِهَذَا الْخَلْقِ مِنْ خَالِقٍ. فَاشْتَدَّ كَرْبُ بَوَاطِنِهِمْ مِنْ وَقُودِ نَارِ الْحَذَرِ، فَخَرَجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ، فَاجْتَمَعُوا عَنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ يَسْأَلُ الْآخَرَ: مَا الَّذِي أَخْرَجَكَ فَتَصَادَقُوا.

١٢٠٥ - وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ الْخَالِقَ ﷻ - لِذَلِكَ السَّبَبِ الَّذِي هُوَ الْفِكْرُ وَالنَّظْرُ - سَبَبًا ظَاهِرًا، إِمَّا مِنْ مَوْعِظَةٍ يَسْمَعُهَا، أَوْ يَرَاهَا، فَيَحْرُكُ هَذَا السَّبَبُ الظَّاهِرُ فِكْرَةَ الْقَلْبِ الْبَاطِنَةِ.

١٢٠٦ - ثُمَّ يَنْقَسِمُ الْمُتَيَقِّظُونَ: فَمِنْهُمْ: مَنْ يَعْلِبُهُ هَوَاهُ، وَيَقْتَضِيهِ طَبْعُهُ مَا يَشْتَهِي مِمَّا قَدِ اعْتَادَهُ، فَيَعُودُ الْقَهْقَرَى، وَلَا يَنْفَعُهُ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِنْتِبَاهِ، فَاِنْتِبَاهٌ مِثْلُ هَذَا زِيَادَةٌ فِي الْحُجَّةِ عَلَيْهِ. وَمِنْهُمْ: مَنْ هُوَ وَاقِفٌ فِي مَقَامِ الْمُجَاهَدَةِ بَيْنَ صَفَيْنِ: الْعَقْلِ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى، وَالْهَوَى الْمُتَقَاضِي بِالشَّهَوَاتِ. فَمِنْهُمْ: مَنْ يُغْلَبُ بَعْدَ الْمُجَاهَدَاتِ الطَّوِيلَةِ، فَيَعُودُ إِلَى الشَّرِّ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِهِ. وَمِنْهُمْ: مَنْ يُغْلَبُ تَارَةً، وَيُغْلَبُ أُخْرَى؛ فَجِرَاحَاتُهُ لَا فِي مَقْتَلٍ. وَمِنْهُمْ: مَنْ يَقْهَرُ عَدُوَّهُ، فَيَسْجُنُهُ فِي حَبْسٍ، فَلَا يَبْقَى لِلْعَدُوِّ مِنَ الْحِيلَةِ إِلَّا الْوَسَاوِسُ. وَمِنَ الصَّفْوَةِ أَقْوَامٌ؛ مُذْ تَيَقَّظُوا مَا نَامُوا^(٢)، وَمُذْ سَلَكُوا مَا

(٢) فِي الْأَصْلِ: مَا قَامُوا. وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

(١) أَلْفِي: وَجَدَ.

وَقَفُوا؛ فَهَمُّهُمْ صُعُودٌ وَتَرْقٌ، كُلَّمَا عَبَرُوا مَقَامًا إِلَى مَقَامٍ؛ رَأَوْا نَقْصَ مَا كَانُوا فِيهِ، فَاسْتَغْفَرُوا. وَمِنْهُمْ: مَنْ يَرْقَى عَنِ الْاِحْتِيَاجِ إِلَى مُجَاهِدَةٍ: إِمَّا لِخِسَّةِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الطَّبْعُ عِنْدَهُ، وَلَا وَقَعَ لَهُ، وَإِمَّا لِشَرَفِ مَطْلُوبِهِ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى عَائِقِ عَنُّهُ.

١٢٠٧ - وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لَيْسَتْ مِمَّا يُقْطَعُ بِالْأَقْدَامِ، وَإِنَّمَا يُقْطَعُ بِالْقُلُوبِ، وَالشَّهَوَاتُ الْعَاجِلَةُ قُطَاعُ الطَّرِيقِ، وَالسَّبِيلُ كَاللَّيْلِ الْمُدْلِهِمِّ؛ غَيْرَ أَنَّ عَيْنَ الْمُوَفَّقِ بَصَرُ فَرَسٍ؛ لِأَنَّهُ يَرَى فِي الظُّلْمَةِ كَمَا يَرَى فِي الضُّوءِ، وَالصَّدْقُ فِي الطَّلَبِ مَنَارٌ^(١)؛ أَيْنَ وَجَدَ يَدُلُّ عَلَى الْجَادَّةِ. وَإِنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَنْ لَمْ يُخْلِصْ، وَإِنَّمَا يَمْتَنِعُ الْإِحْلَاصُ مِمَّنْ لَا يُرَادُ. فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٢٦٣ - فصل: عجبت لمن يُعجَبُ بصورته وينسى مبدأ أمره

١٢٠٨ - عَجِبْتُ لِمَنْ يُعْجَبُ بِصُورَتِهِ، وَيَحْتَالُ فِي مَشِيئِهِ، وَيُنْسَى مَبْدَأَ أَمْرِهِ! إِنَّمَا أَوَّلُهُ لُقْمَةٌ ضُمَّتْ إِلَيْهَا جُرْعَةٌ مَاءٍ. فَإِنْ شِئْتَ؛ فَقُلْ: كَسِيرَةٌ خُبْزٍ، مَعَهَا ثَمَرَاتٌ، وَقِطْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ، وَمِدْقَةٌ^(٢) مِنْ لَبَنٍ، وَجُرْعَةٌ مِنْ مَاءٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ، طَبَخْتَهُ الْكَبِدُ، فَأَخْرَجَتْ مِنْهُ قَطْرَاتٍ مَنِيٍّ، فَاسْتَقَرَّ فِي الْأُنْثَيْنِ^(٣)، فَحَرَكَتْهَا الشَّهْوَةُ، فَصَبَّتْ، فَبَقِيَتْ فِي بَطْنِ الْأُمِّ مُدَّةً حَتَّى تَكَامَلَتْ صُورَتُهَا، فَخَرَجَتْ طِفْلًا، يَتَقَلَّبُ فِي خِرْقِ الْبَوْلِ.

وَأَمَّا آخِرُهُ؛ فَإِنَّهُ يُلْقَى فِي الشَّرَابِ، فَيَأْكُلُهُ الدُّودُ، وَيَصِيرُ رُفَاتًا تَسْفِيهِ السَّوَافِي^(٤). وَكَمْ يَخْرُجُ تُرَابٌ بَدَنِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَيُقَلَّبُ فِي أَحْوَالٍ، إِلَى أَنْ يَعُودَ فَيُجْمَعُ!

هَذَا خَبِيرُ الْبَدَنِ. إِنَّمَا الرُّوحُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ: فَإِنْ تَجَوَّهَرَتْ بِالْأَدَبِ، وَتَقَوَّمَتْ بِالْعِلْمِ، وَعَرَفَتْ الصَّانِعَ، وَقَامَتْ بِحَقِّهِ؛ فَمَا يَضُرُّهَا نَقْضُ الْمَرْكَبِ. وَإِنْ هِيَ بَقِيَتْ عَلَى صِفَتِهَا مِنَ الْجَهَالَةِ؛ شَابَهَتْ الطَّيْنَ، بَلْ صَارَتْ إِلَى أَحْسَنِ حَالَةٍ مِنْهُ.

(٢) جُرْعَةٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ: أَيْنَارٌ.

(٣) الْأُنْثَيْنِ: الْخَصِيَّتَيْنِ.

(٤) السَّوَافِي: الرِّيحَ الَّتِي تَحْمِلُ الرَّمَالَ وَتَشْرَاهَا.

١٢٠٩ - هَيْهَاتَ أَنْ يَجْتَمَعَ الْهَمُّ مَعَ التَّلَبُّسِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا! خُصُوصًا الشَّابَّ الْفَقِيرَ، الَّذِي قَدْ أَلِفَ الْفَقْرَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا؛ أَهْتَمَّ بِالْكَسْبِ، أَوْ بِالطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ، فَتَشَتَّتْ هِمَّتُهُ، وَجَاءَهُ الْأَوْلَادُ، فَزَادَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ يُرْحَصُ لِنَفْسِهِ فِيمَا يُحْصَلُ إِلَى أَنْ يَتَلَبَّسَ بِالْحَرَامِ.

وَمَنْ يُفَكِّرُ؛ فَهِمَّتُهُ مَا يَأْكُلُ، وَمَا يَأْكُلُهُ أَهْلُهُ، وَمَا تَرْضَى بِهِ الزَّوْجَةُ مِنَ النَّفَقَةِ وَالْكِسْوَةِ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ يَحْضُرُ لَهُ؟! وَأَيُّ هَمٍّ يَجْتَمِعُ؟!!

هَيْهَاتَ! وَاللَّهِ؛ لَا يَجْتَمِعُ الْهَمُّ؛ وَالْعَيْنُ تَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّمْعُ يَسْمَعُ حَدِيثَهُمْ، وَاللِّسَانُ يُخَاطِبُهُمْ، وَالْقَلْبُ مُتَوَزِّعٌ فِي تَحْصِيلِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ.

١٢١٠ - فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟! قُلْتُ: إِنْ وَجَدْتَ مَا يَكْفِيكَ مِنَ الدُّنْيَا، أَوْ مَعِيشَةً تَكْفُكَ؛ فَاقْنَعْ بِهَا، وَانْفِرْ فِي خَلْوَةٍ عَنِ الْخَلْقِ مَهْمًا قَدَرْتَ. وَإِنْ تَزَوَّجْتَ؛ فَبِفَقِيرَةٍ تَقْنَعُ بِالْيَسِيرِ، وَتَضْبِرُ أَنْتَ عَلَى صُورَتِهَا وَفَقْرِهَا، وَلَا تَتْرُكْ نَفْسَكَ تَطْمَحُ إِلَى مَنْ تَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ نَفَقَتِهِ؛ فَإِنْ رُزِقْتَ أَمْرًا صَالِحَةً جَمَعْتَ هَمَّكَ؛ [فَذَاكَ]، وَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ؛ فَمَعَالَجَةُ الصَّبْرِ أَصْلَحَ لَكَ مِنَ الْمُخَاطَرَةِ. وَإِيَّاكَ وَالْمُسْتَحْسَنَاتِ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهُنَّ - إِذَا سَلِمَ - كَعَابِدِ صَنَمٍ. وَإِذَا حَصَلَ بِيَدِكَ شَيْءٌ؛ فَأَنْفِقْ بَعْضَهُ؛ فَحِفْظُ الْبَاقِي تَحْفَظُ شَتَاتَ قَلْبِكَ.

١٢١١ - وَاحْذَرِ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ؛ فَمَا بَقِيَ مُوَاسٍ، وَلَا مُؤَثِّرٍ، وَلَا مَنْ يَهْتَمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ^(١) وَلَا مَنْ لَوْ سُئِلَ أَعْطَى؛ إِلَّا أَنْ يُعْطِيَ نَزْرًا بِتَضَجْرٍ وَمِنَّةٍ، يَسْتَعْبِدُ بِهَا الْمُعْطَى بِقِيَّةِ الْعُمْرِ، وَيَسْتَنْقِلُهُ كُلَّمَا رَأَاهُ، أَوْ يَسْتَدْعِي بِهَا خِدْمَتَهُ لَهُ، وَالتَّرَدُّدَ إِلَيْهِ.

١٢١٢ - وَإِنَّمَا كَانَ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي مِثْلُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ نُجَيْدٍ^(٢)، سَمِعَ أَبَا

(١) الخلة: الحاجة.

(٢) إسماعيل بن نجيد بن أحمد السلمي النيسابوري: أحد العباد الزهاد ومسنند خراسان (٢٧٢) - (٣٦٥هـ).

عثمان الحيري^(١) يَقُولُ يَوْمًا عَلَى الْمُنْبَرِ: عَلَيَّ أَلْفُ دِينَارٍ، وَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي. فَمَضَى أَبُو عَمْرٍو إِلَيْهِ فِي اللَّيْلِ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: أَقْضِ دَيْنَكَ! فَلَمَّا عَادَ وَصَعِدَ الْمُنْبَرِ؛ قَالَ: نَشْكُرُ اللَّهَ لِأَبِي عَمْرٍو؛ فَإِنَّهُ أَرَّاحَ قَلْبِي، وَقَضَى دَيْنِي. فَقَامَ أَبُو عَمْرٍو فَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ! ذَلِكَ الْمَالُ كَانَ لِوَالِدَتِي، وَقَدْ شَقَّ عَلَيْهَا مَا فَعَلْتُ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَقَدَّمَ بِرَدِّهِ؛ فَأَفْعَلْ. فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ عَادَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا شَهَرْتَنِي بَيْنَ النَّاسِ؟! فَأَنَا مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْخَلْقِ؛ فَحُذِّهِ وَلَا تَذْكَرْنِي!

مَاتُوا وَعُيِّبَ فِي التَّرَابِ شُحُوصُهُمْ وَالنَّشْرُ مِسْكَ، وَالْعِظَامُ رَمِيمٌ^(٢)

١٢١٣ - فَالْبُعْدَ الْبُعْدَ عَمَّنْ هَمَّتْهُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ زَادَهُمُ الْيَوْمَ إِلَى أَنْ يَحْصُلَ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى أَنْ يُؤْتَرَ. وَلَا تَكَاذُ تَرَى إِلَّا عَدُوًّا فِي الْبَاطِنِ، صَدِيقًا فِي الظَّاهِرِ، شَامِتًا عَلَى الضَّرِّ، حَسُودًا عَلَى النَّعْمَةِ.

فَأَشْتَرِ الْعُزْلَةَ بِمَا بَيْعْتَ؛ فَإِنَّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ إِذَا مَشَى فِي الْأَسْوَاقِ، وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ تَغَيَّرَ قَلْبُهُ؛ فَكَيْفَ إِنْ عَرَقَلَهُ بِالْمَيْلِ إِلَى أَسْبَابِ الدُّنْيَا؟! وَاجْتَهِدْ فِي جَمْعِ الْهَمِّ بِالْبُعْدِ عَنِ الْخَلْقِ؛ لِيَخْلُوَ الْقَلْبُ بِالتَّفَكُّرِ فِي الْمَآبِ، وَتَتَلَمَّحَ عَيْنُ الْبَصِيرَةِ خَيْمَ الرَّحِيلِ!

٢٦٥ - فصل: زيارة المقابر ومفاوضة الكتب

١٢١٤ - كَانَ الْمُرِيدُ فِي بَدَايَةِ الزَّمَانِ إِذَا أَظْلَمَ قَلْبُهُ أَوْ مَرِضَ لُبُّهُ؛ فَصَدَّ زِيَارَةَ بَعْضِ الصَّالِحِينَ، فَانْجَلَى مَا أَظْلَمَ. وَ[الْيَوْمَ]؛ مَتَى حَصَلَتْ ذَرَّةٌ مِنَ الصَّدَقِ لِمُرِيدٍ، فَرَدَّتْهُ فِي بَيْتِ عُزْلَةٍ، وَوَجَدَ نَسِيمًا مِنْ رَوْحِ الْعَافِيَةِ، وَنُورًا فِي بَاطِنِ قَلْبِهِ، وَكَادَ هَمُّهُ يَجْتَمِعُ وَشَتَاتُهُ يَنْتَظِمُ، فَخَرَجَ، فَلَقِيَ مَنْ يَوْمًا إِلَيْهِ بِعِلْمٍ أَوْ زُهْدٍ؛ رَأَى عِنْدَهُ الْبَطَّالِينَ، يَجْرِي مَعَهُمْ فِي مَسَلِكِ الْهَدْيَانِ، الَّذِي لَا يَنْفَعُ، وَرَأَى صُورَتَهُ صُورَةَ مُنْمَسٍ^(٣)،

(١) سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري الصوفي أبو عثمان (٢٣٠ - ٢٩٨هـ): كان مجمع العباد والزهاد، ولم يزل يسمع ويجل العلماء ويعظمهم، وهو للخراسانيين كالجنيد للعراقيين، وقد وقع في الأصل: (المغربي) وهو تصحيف.

(٢) المنمَس: المحتال المخادع.

(٣) النشر: الرائحة الزكية.

وَأَهْوَنُ مَا عَلَيْهِ تَضْيِيعُ الْأَوْقَاتِ فِي الْحَدِيثِ الْفَارِغِ؛ فَمَا يَرْجِعُ الْمُرِيدُ عَنْ ذَلِكَ الْوَطَنِ؛ إِلَّا وَقَدِ اكْتَسَبَ ظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَشَتَاتًا فِي الْعِزْمِ، وَعَقْلَةً عَنِ ذِكْرِ الْآخِرَةِ، فَيَعُودُ مَرِيضَ الْقَلْبِ، يُتَعَبُ فِي مُعَالَجَتِهِ أَيَّامًا كَثِيرَةً، حَتَّى يَعُودَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ، وَرُبَّمَا لَمْ يَعُدْ؛ لِأَنَّ الْمُرِيدَ فِيهِ ضَعْفٌ؛ فَإِذَا رَأَى شَيْخًا قَدْ جَرَّبَ وَعَرَفَ، ثُمَّ يُؤَثِّرُ الْبَطَالَةَ؛ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَتَّبِعَهُ الطَّبَعُ.

١٢١٥ - فَأَلْأَوْلَى لِلْمُرِيدِ الْيَوْمَ أَلَّا يَزُورَ إِلَّا الْمَقَابِرَ، وَلَا يُفَاوِضَ إِلَّا الْكُتُبَ، الَّتِي قَدْ حَوَتْ مَحَاسِنَ الْقَوْمِ، وَلَيْسَتْ عِنَ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى التَّوْفِيقِ لِمَرَضِيهِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَهُ؛ هَيَأَهُ لِمَا يُرِضِيهِ.

٢٦٦ - فصل: صفات أولياء الله

١٢١٦ - تَأَمَّلْتُ الَّذِينَ يَخْتَارُهُمُ الْحَقُّ ﷻ لِحُلَايَتِهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ - فَقَدْ سَمِعْنَا أَوْصَافَهُمْ، وَمَنْ نَظَنَّهُ مِنْهُمْ مِمَّنْ رَأَيْنَاهُ -، فَوَجَدْتُهُ سُبْحَانَهُ لَا يَخْتَارُ إِلَّا شَخْصًا كَامِلَ الصُّورَةِ؛ لَا عَيْبَ فِي صُورَتِهِ، وَلَا نَقْصَ فِي خِلْقَتِهِ، فَتَرَاهُ حَسَنَ الْوَجْهِ، مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ، سَلِيمًا مِنْ آفَةٍ فِي بَدَنِهِ، ثُمَّ يَكُونُ كَامِلًا فِي بَاطِنِهِ، سَخِيًّا، جَوَادًا، عَاقِلًا، غَيْرَ خَبٍّ^(١)، وَلَا خَادِعٍ، وَلَا حَقُودٍ، وَلَا حَسُودٍ، وَلَا فِيهِ عَيْبٌ مِنْ غُيُوبِ الْبَاطِنِ؛ فَذَلِكَ الَّذِي يُرَبِّيهِ مِنْ صِغَرِهِ.

فَتَرَاهُ فِي الطُّفُولَةِ مُعْتَزِلًا عَنِ الصَّبِيَّانِ، كَأَنَّهُ فِي الصَّبَا شَيْخٌ، يَنْبُو^(٢) عَنِ الرِّدَائِلِ، وَيَفْزَعُ مِنَ النَّقَائِصِ. ثُمَّ لَا تَزَالُ شَجَرَةٌ هَمَّتِهِ تَنْمُو، حَتَّى يَرَى ثَمَرَهَا مُتَهَدِّلاً عَلَى أَعْصَانِ الشَّبَابِ؛ فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى الْعِلْمِ، مُنْكَمِشٌ عَلَى الْعَمَلِ، مُحَافِظٌ لِلزَّمَانِ، مُرَاعٍ لِلأَوْقَاتِ، سَاعٍ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ، خَائِفٌ مِنَ النَّقَائِصِ.

وَلَوْ رَأَيْتَ التَّوْفِيقَ وَالْإِلْهَامَ الرَّبَّانِيَّ كَيْفَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِنْ عَثَرَ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ الْخَطَا إِنْ هَمَّ، وَيَسْتَحْدِمُهُ فِي الْفَضَائِلِ، وَيَسْتُرُّ عَمَلَهُ عَنْهُ حَتَّى لَا يَرَاهُ مِنْهُ^(٣).

(٢) ينبو: يتجافى.

(١) خب: مخادع.

(٣) يعني المؤلف نفسه في هذه الخاطرة.

١٢١٧ - ثُمَّ يَنْقَسِمُ هَؤُلَاءِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ تَفَقَّهَ عَلَى قَدَمِ الزُّهْدِ وَالتَّعَبُّدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَفَقَّهَ عَلَى الْعِلْمِ وَاتَّبَعَ السُّنَّةَ.

وَيَنْدُرُ مِنْهُمْ مَنْ يَجْمَعُ [الله] لَهُ الْكُلَّ، وَيُرْقِيهِ إِلَى مُرَاحِمَةِ الْكَامِلِينَ.

١٢١٨ - وَعَلَامَةٌ إِبْتَاتِ الْكَمَالِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الْإِقْبَالُ بِالْكَلِّيَّةِ عَلَى مُعَامَلَةِ الْحَقِّ وَمَحَبَّتِهِ، وَاسْتِنْعَابُ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا، [وَسَنَاءُ الْهِمَّةِ فِي نُشْدَانِ الْكَمَالِ الْمُمْكِنِ]؛ فَلَوْ تَصَوَّرْتَ النُّبُوَّةَ أَنْ تُكْتَسَبَ؛ لَدَخَلْتَ فِي كَسْبِهِ.

وَمَرَاتِبُ هَذَا لَا يَحْتَمِلُهَا الْوَصْفُ؛ لِكَوْنِهِ دُرَّةَ الْوُجُودِ، الَّتِي لَا تَكَادُ تَنْعَقِدُ فِي الصَّدْفِ إِلَّا فِي كُلِّ وَدُودٍ. نَسَأَلُ اللَّهَ ﷻ تَوْفِيقَنَا لِمَرَاضِيهِ وَقُرْبِهِ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ طَرْدِهِ وَإِعَادِهِ.

٢٦٧ - فصل: يبذلون العرض دون الغرض

١٢١٩ - أَكْثَرُ الْخَلَائِقِ عَلَى طَبْعِ رَدِيءٍ، لَا تَقْوَمُهُ الرِّيَاضَةُ؛ لَا يَدْرُونَ لِمَ خُلِقُوا؟! وَلَا مَا الْمُرَادُ مِنْهُمْ؟! وَغَايَةُ هِمَّتِهِمْ حُصُولُ بُغْيَتِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ! وَلَا يَسْأَلُونَ عِنْدَ نَيْلِهَا مَا اجْتَلَبَتْ لَهُمْ مِنْ دَمٍّ! يَبْذُلُونَ الْعَرْضَ دُونَ الْعَرَضِ، وَيُؤَثِّرُونَ لَدَّةَ سَاعَةٍ؛ وَإِنْ اجْتَلَبَتْ زَمَانَ مَرَضٍ! يَلْبَسُونَ عِنْدَ التَّجَارَاتِ ثِيَابَ مُحْتَالٍ فِي شِعَارِ مُحْتَالٍ، وَيَلْبَسُونَ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَيَسْتُرُونَ الْحَالَ! إِنْ كَسَبُوا؛ فَشَبَّهَتْهُ، وَإِنْ أَكَلُوا؛ فَشَبَّهَتْهُ! يَنَامُونَ اللَّيْلَ، وَإِنْ كَانُوا نِيَامًا بِالنَّهَارِ فِي الْمَعْنَى، وَلَا نَوْمَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ! فَإِذَا أَصْبَحُوا؛ سَعَوْا فِي تَحْصِيلِ شَهَوَاتِهِمْ؛ بِحِرْصٍ خَنْزِيرٍ، وَتَبْضُصٍ^(١) كَلْبٍ، وَافْتِرَاسِ أَسَدٍ، وَغَارَةِ ذئْبٍ، وَرَوَّغَانٍ^(٢) ثَعْلَبٍ! وَيَتَأَسَّفُونَ عِنْدَ الْمَوْتِ عَلَى فَقْدِ الْهَوَى لَا عَلَى عَدَمِ التَّقْوَى! ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]!!

كَيْفَ يُفْلِحُ مَنْ يُؤَثِّرُ مَا يَرَاهُ بِعَيْنِهِ عَلَى مَا يُبْصِرُهُ بِعَقْلِهِ، وَمَا يُدْرِكُهُ بِبَصَرِهِ أَعْرُ عِنْدَهُ مِمَّا يَرَاهُ بِبَصِيرَتِهِ؟!

تَاللَّهِ؛ لَوْ فَتَحُوا أَسْمَاعَهُمْ؛ لَسَمِعُوا هَاتِفَ الرَّحِيلِ فِي زَمَانِ الْإِقَامَةِ يَصِيحُ فِي

(١) احتياله وخداعه.

(٢) هرّ ذنبه تملقًا.

عَرَصَاتِ الدُّنْيَا: تَلَمَّحُوا تَقْوِيضَ خِيَامِ الْأَوَائِلِ! لَكُنْ غَمْرُهُمْ سُكْرُ الْجَهَالَةِ، فَلَمْ يُفَيْقُوا إِلَّا بِضَرْبِ الْحَدِّ.

٢٦٨ - فصل: الإنفاق في بناء المساجد والأربطة

١٢٢٠ - رَأَيْتُ بَعْضَ الْمُتَقَدِّمِينَ سُئِلَ عَمَّنْ يَكْتَسِبُ حَلَالًا وَحَرَامًا مِنَ السَّلَاطِينِ وَالْأَمْرَاءِ، ثُمَّ بَيَّنِّي الْمَسَاجِدَ وَالْأَرْبِطَةَ: هَلْ لَهُ فِيهَا ثَوَابٌ؟

فَأَقْتَى بِمَا يُوجِبُ طِيبَ قَلْبِ الْمُنْفِقِ، وَأَنَّ لَهُ فِي إِنْفَاقِ مَا لَا يَمْلِكُهُ نَوْعَ سَمْسَرَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَعْيَانَ الْمَغْضُوبِينَ فَيَرُدُّهَا عَلَيْهِمْ! فَقُلْتُ: وَآعَجَبًا مِنَ الْمُتَصَدِّقِينَ لِلْفَتَوَى الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ أَصُولَ الشَّرِيعَةِ!!

يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِي حَالِ هَذَا الْمُنْفِقِ أَوْلًا: فَإِنْ كَانَ سُلْطَانًا؛ فَمَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ قَدْ عَرَفَتْ وَجُوهَ مَصَارِفِهِ؛ فَكَيْفَ يَمْنَعُ مُسْتَحَقَّهُ، وَيُسْخِغُهُ بِمَا لَا يُفِيدُ مِنْ بِنَاءِ مَدْرَسَةٍ وَرِبَاطٍ؟!

وَإِنْ كَانَ الْمُنْفِقُ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَنَوَابِ السَّلَاطِينِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَرُدَّ مَا يَجِبُ رَدُّهُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ إِلَّا مَا فُرِضَ مِنْ إِيْجَابٍ يَلِيقُ بِهِ. فَإِنْ تَصَرَّفَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ؛ كَانَ مَصْرُوفًا فِيمَا لَيْسَ لَهُ، وَلَوْ أُذِنَ لَهُ مَا كَانَ الْإِذْنُ جَائِزًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَقْطَعَ مَا لَا يُقَاوِمُ عَمَلَهُ^(١)؛ كَانَ مَا يَأْخُذُهُ فَاضِلًا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ، وَعَلَى مَنْ أَطْلَقَهُ فِي ذَلِكَ إِثْمٌ أَيْضًا. هَذَا إِذَا سَلِمَ الْمَالُ، وَكَانَ مِنْ حِلِّهِ.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ حَرَامًا أَوْ غَضَبًا؛ فَكُلُّ تَصَرُّفٍ فِيهِ حَرَامٌ، وَالْوَاجِبُ رَدُّهُ عَلَى مَنْ أَخَذَ مِنْهُ، أَوْ عَلَى وَرَثَتِهِمْ؛ فَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ طَرِيقَ الرَّدِّ؛ كَانَ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ يُصْرَفُ فِي مَصَالِحِهِمْ، أَوْ يُصْرَفُ فِي الصَّدَقَةِ، وَلَمْ يَحْظَ أَخْذُهُ بِغَيْرِ الْإِثْمِ^(٢).

(١) ما لا يستطيع رده.

(٢) نقل النووي (المجموع ٣١٥/٩) عن الغزالي (الإحياء ١١٥/٢): «أَنْ مَنْ كَانَ مَعَهُ مَالٌ حَرَامٌ، وَأَرَادَ التَّوْبَةَ وَالْبِرَاءَةَ مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ (أَيُّ لِمَالٍ) مَالٌ مَعَيَّنٌ (أَيُّ مَعْرُوفٌ) وَجِبَ صَرْفُهُ إِلَيْهِ أَوْ إِلَى وَكِيْلِهِ، فَإِنْ كَانَ مِيثًا وَجِبَ دَفْعُهُ إِلَى وَارِثِهِ. وَإِنْ كَانَ لِمَالِكٍ لَا يَعْرِفُهُ، وَيَسَّرَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَهُ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَةِ، وَإِلَّا فَلْيَتَصَدَّقْ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ.»

١٢٢١ - أَنبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْبَنَاءِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الرَّجَّاجِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ^(١)؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ^(٢) الطَّائِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ^(٣)؛ قَالَ: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ سُلَيْمَانَ؛ قَالَ: سَمِعْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَيَّمَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اِكْتَسَبَ مَالًا مِنْ مَأْتَمٍ، فَوَصَلَ [بِهِ] رَحِمًا، أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ، أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ جُمِعَ ذَلِكَ جَمْعًا، فَقُذِفَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ».

١٢٢٢ - فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَانِي تَاجِرًا مُكْتَسِبًا لِلْحَلَالِ، فَبَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَقَفَ وَقَفًا لِلْمُتَّفَقَةِ؛ فَهَذَا مِمَّا يَثَابُ عَلَيْهِ. وَيَبْعُدُ مَنْ يَكْتَسِبُ الْحَلَالَ حَتَّى يَفْضَلَ عَنْهُ هَذَا الْمِقْدَارُ، أَوْ يُخْرِجُ الزَّكَاةَ مُسْتَقْصَاةً، ثُمَّ يَطْبِئُ قَلْبَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْبِنَاءِ وَالنَّفَقَةِ؛ إِذْ مِثْلُ هَذَا الْبِنَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ زَكَاةٍ. وَأَيْنَ سَلَامَةُ النِّيَّةِ، وَخُلُوصُ الْمَقْصِدِ!؟

١٢٢٣ - ثُمَّ إِنَّ بِنَاءَ الْمَدَارِسِ الْيَوْمَ مُخَاطَرَةٌ^(٤)؛ إِذْ قَدْ اِنْعَكَفَ أَكْثَرُ الْمُتَّفَقَةِ

= ثم قال (أي النووي): «وهذا الذي ذكره الغزالي ذكره آخرون من الأصحاب، وهو كما قالوه، وهذا الرأي في رد المال الحرام والتخلص منه هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من السلف والخلف».

وقال الغزالي في (الإحياء) (١١٨/٢): «ويدخل في المال الحرام المحض: كل ما اكتسبه الإنسان بسبب محظور شرعاً: كالسرقة، والغصب، والاختلاس، والرشوة، والربا، والعقود الفاسدة».

وقال الغزالي أيضاً (الإحياء) (١١٨/٢):

«مَنْ فِي يَدِهِ مَالٌ حَرَامٌ مَحْضٌ يَجِبُ عَلَيْهِ إِخْرَاجُ الْكُلِّ، إِمَّا رَدًّا عَلَى الْمَالِكِ إِنْ عَرَفَهُ، أَوْ صَرَفًا إِلَى الْفُقَرَاءِ إِنْ لَمْ يُعْرِفِ الْمَالِكُ».

(١) رواه أبو داود في المراسيل (١٣١) وله شاهد عند أحمد (٣٨٧/١) وآخر عند ابن حبان. والزيادة من كتاب المراسيل.

(٢) في الأصل (عون) والتصويب من مراسيل أبي داود.

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، أبو عمرو (٨٨ - ١٥٧هـ) إمام أهل الشام في زمانه علماً وفقهاً وزهداً وورعاً.

(٤) كان هذا في عصر المؤلف، أما في عصرنا فهو من أعظم المبررات بعد أن خلت المساجد من حلقات العلم.

إِلَى عِلْمِ الْجَدَلِ^(١)، وَأَعْرَضُوا عَنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ، وَتَرَكُوا التَّرَدُّدَ إِلَى الْمَسَاجِدِ،
وَقِنَعُوا بِالْمَدَارِسِ وَالْأَلْقَابِ.

١٢٢٤ - وَأَمَّا بِنَاءِ الْأَرِيظَةِ؛ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ أَصْلًا؛ لِأَنَّ جُمُوهَرَ الْمُتَصَوِّفَةِ جُلُوسٌ
عَلَى بَسَاطِ الْجَهْلِ وَالْكَسَلِ، ثُمَّ يَدْعِي مُدَّعِيهِمُ الْمَحَبَّةَ وَالْقُرْبَ، وَيَكْرَهُ التَّشَاغَلَ
بِالْعِلْمِ، وَقَدْ تَرَكُوا سِيرَةَ سَرِيٍّ، وَعَادَاتِ الْجُنَيْدِ، وَأَفْتَنَعُوا بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَرَضُوا
بِالْمَرْقَعَاتِ؛ فَلَا تَحْسُنُ إِعَانَتُهُمْ عَلَى بَطَالَتِهِمْ وَرَاحَتِهِمْ، وَلَا ثَوَابٌ فِي ذَلِكَ.

٢٦٩ - فصل: الرياء يضيع العمل

١٢٢٥ - عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَصَنَّعُ لِلنَّاسِ بِالرُّهْدِ، يَرْجُو بِذَلِكَ قُرْبَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ،
وَيَنْسَى أَنَّ قُلُوبَهُمْ بِيَدٍ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ؛ فَإِنْ رَضِيَ عَمَلُهُ، وَرَأَاهُ خَالِصًا؛ لَفَتَ الْقُلُوبَ
إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ خَالِصًا؛ أَعْرَضَ بِهَا عَنْهُ.

وَمَتَى نَظَرَ الْعَامِلُ إِلَى الْتِفَاتِ الْقُلُوبِ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ زَا حَمَ الشَّرْكَ^(٢)؛ لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ
يَقْنَعَ بِنَظَرِ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ.

وَمِنْ ضَرُورَةِ الْإِخْلَاصِ [أَلَّا يَقْصِدَ] التِّفَاتِ الْقُلُوبِ إِلَيْهِ؛ فَذَاكَ يَحْصُلُ لَا
بِقَصْدِهِ، بَلْ بِكَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ.

١٢٢٦ - وَلْيَعْلَمْ الْإِنْسَانُ أَنَّ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا يَعْلَمُهَا الْخَلْقُ جُمْلَةً، وَإِنْ لَمْ يَطَّلِعُوا
عَلَيْهَا؛ فَالْقُلُوبُ تَشْهَدُ لِلصَّالِحِ بِالصَّلَاحِ، وَإِنْ لَمْ يَشَاهِدْ مِنْهُ ذَلِكَ.

١٢٢٧ - فَأَمَّا مَنْ يَقْصِدُ رُؤْيَا الْخَلْقِ بِعَمَلِهِ؛ فَقَدْ مَضَى الْعَمَلُ ضَائِعًا؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ
مَقْبُولٍ عِنْدَ الْخَالِقِ، وَلَا عِنْدَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ التَفَّتْ عَنْهُ؛ فَقَدْ ضَاعَ الْعِلْمُ،
وَدَهَبَ الْعُمْرُ!

١٢٢٨ - وَلَقَدْ أَخْبَرَنَا ابْنُ الْحُصَيْنِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمَذْهَبِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا
أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي؛ قَالَ: حَدَّثَنَا

(١) علم الجدل: هو علم المناظرة الفقهية والأصولية.

(٢) زاحم الشرك: قاربه، وكاد يقع فيه.

حَسَنُ بْنُ مُوسَى؛ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهَيْعَةَ^(١)؛ قَالَ: حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَاءً، لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ؛ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ، كَأَنَّهَا مَا كَانَ»^(٢).

فَلْيَتَّقِ اللَّهُ الْعَبْدُ، وَيَقْصِدْ مَنْ يَنْفَعُهُ قَصْدُهُ، وَلَا يَتَشَاغَلْ بِمَدْحٍ مِنْ عَن قَلِيلٍ يَلِيلٍ هُوَ وَهُمْ.

٢٧٠ - فصل: متى وقع الترخص حمل إلى غيره

١٢٢٩ - قَدِمَ عَلَيْنَا بَعْضُ فُقَهَاءَ مِنْ بِلَادِ الْأَعَاجِمِ، وَكَانَ قَاضِيًا بِبَلَدِهِ، فَرَأَيْتُ عَلَى دَابَّتِهِ الذَّهَبَ، وَمَعَهُ أَنْوَارُ^(٣) الْفِضَّةِ، وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، فَقُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ أَفَادَ هَذَا الْعِلْمُ؟! بَلَى وَاللَّهِ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ.

وَأَكْبَرُ الْأَسْبَابِ قِلَّةَ عِلْمٍ هُوَ لَا بِسِيرَةِ السَّلَفِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ! لَا أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ الْجُمْلَةَ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَشَاغَلُونَ بِعِلْمِ الْخِلَافِ، وَيَقْصِدُونَ التَّقَدُّمَ [بِقُشُورِ الْمَعْرِفَةِ]، وَلَيْسَ^(٤) يَعْنيهِمْ^(٥) سَمَاعُ حَدِيثٍ، وَلَا نَظَرٌ فِي سِيرِ السَّلَفِ. وَيَخَالِطُونَ السَّلَاطِينِ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى التَّزْيِي بِزِيَّهِمْ، وَرَبَّمَا خَطَرَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا قَرِيبٌ، وَإِنْ لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ؛ فَالْهُوَى غَالِبٌ بِلَا صَادٍ. وَرَبَّمَا خَطَرَ لَهُمْ أَنْ [يَقُولُوا]: هَذَا يُحْتَمَلُ وَيُغْفَرُ فِي جَانِبِ تَشَاغَلِنَا بِالْعِلْمِ، ثُمَّ يَرُونَ الْعُلَمَاءَ يُكْرِمُونَهُمْ لِنَيْلِ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَلَا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ.

١٢٣٠ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْعِلْمِ مَنْ يَسْتَضِحُّ الْمُرْدَانَ، وَيَشْتَرِي الْمَمَالِيكَ، وَمَا كَانَ يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا مَنْ قَدْ بَيَّسَ مِنَ الْآخِرَةِ. وَرَأَيْتُ مَنْ قَدْ

(١) عبد الله بن لهيعة الحضرمي الأعدولي عالم الديار المصرية (٩٦ - ١٧٤هـ)، أحد بحور العلم على لين في حديثه، ورواية العبادة عنه صحيحة.

(٢) رواه أحمد (٢٨/٣)، وابن حبان (٥٦٦٨)، والحاكم (٣١٤/٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من رواية دراج عن أبي الهيثم وهي ضعيفة. والزيادة من المسند.

(٣) جمع تور: وهو إناء للشرب.

(٤) في الأصل: ولا.

(٥) في الأصل: قصدهم.

بَلَغَ الثَّمَانِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ. قَالَ اللَّهُ يَا مَنْ يُرِيدُ حِفْظَ دِينِهِ، وَيُوقِنُ بِالْآخِرَةِ!

١٢٣١ - إِيَّاكَ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةَ، وَالْأَهْوَاءَ الْعَالِيَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَرَخَّصْتَ بِالذُّخُولِ فِي بَعْضِهَا؛ جَرَّكَ الْأَمْرُ إِلَى الْبَاقِي، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْخُرُوجِ لِمَوْضِعِ الْفِ الْهَوَى فَاقْبَلْ نُضْحِي، وَأَفْنَعْ بِالْكَسْرَةِ، وَابْعُدْ عَنِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا؛ فَإِذَا صَحَّ الْهَوَى؛ فَدَعُهُ لِهَذَا. وَرَبَّمَا قَالَ لَكَ: فَلَا أَمْرَ الْفُلَانِي قَرِيبًا! فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّهُ - لَوْ كَانَ قَرِيبًا - يَدْعُو إِلَى غَيْرِهِ، وَيَضَعُبُ التَّلَافِي.

فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَى شَطْفِ الْعَيْشِ! وَالْبُعْدَ [البعد] عَنِ أَرْبَابِ الْهَوَى! فَمَا يَتِمُّ دِينَ إِلَّا بِذَلِكَ، وَمَتَى وَقَعَ التَّرْخُّصُ؛ حَمَلَ إِلَى غَيْرِهِ؛ كَالشَّاطِئِ إِلَى اللَّجَّة^(١). وَإِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ، وَوَجْهٌ أَصْبَحَ مِنْ وَجْهِ. وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ بَسِيرَةٌ.

٢٧١ - فصل: حكمة الخالق وراء العقول

١٢٣٢ - مَنْ تَفَكَّرَ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ ﷻ؛ طَاشَ عَقْلُهُ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يُثَبَّتَ مَوْجُودًا لِأَوَّلِ لَوْجُودِهِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَا يَعْرِفُهُ الْحِسُّ، وَإِنَّمَا يَقْرُبُهُ الْعَقْلُ صَرُورَةً؛ وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ بَعْدَ هَذَا الْإِفْرَارِ. ثُمَّ يَرَى مِنْ أَفْعَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى وُجُودِهِ؛ فَلَا يَخْفَى وُجُودُهُ.

١٢٣٣ - ثُمَّ تَجْرِي فِي أَقْدَارِهِ أُمُورٌ؛ لَوْلَا ثُبُوتُ الدَّلِيلِ عَلَى وُجُودِهِ؛ لَأَوْجَبَتِ الْجَحْدَ، فَإِنَّهُ يَفْرُقُ الْبَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ - وَذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَى الْخَالِقِ - وَيُصَيِّرُ الْعَصَا حَيَّةً، ثُمَّ يُعِيدُهَا عَصَاً، تَلْفَقُ مَا صَنَعُوا، وَلَا يَزِيدُ فِيهَا شَيْءً؛ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا بَيَانٌ؟! فَإِذَا آمَنَتِ السَّحْرَةُ؛ تَرَكَهُمْ مَعَ فِرْعَوْنَ يَضْلِبُهُمْ، وَلَا يَمْنَعُ، وَالْأَنْبِيَاءُ يُبْتَلَوْنَ بِالْجُوعِ وَالْقَتْلِ، وَرَكَرِيًا يُنْشَرُ، وَيَحْيَى تَقْتُلُهُ زَانِيَةٌ^(٢)، وَنَبِيْنَا ﷺ يَقُولُ كُلَّ عَامٍ:

(١) اللجة: الماء الكثير.

(٢) بأن حرّضت الحاكم على قتله واسمها سالومي.

«مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟»؛ فَيَكَادُ الْجَاهِلُ بُوْجُودَ الْخَالِقِ يَقُولُ: لَوْ كَانَ مَوْجُودًا؛ لَنْصَرَ أَوْلِيَاءَهُ!

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الَّذِي قَدْ ثَبَتَ عِنْدَهُ وَجُودُهُ بِالْأَدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ الْجَلِيَّةِ: أَلَا يُمَكِّنُ عَقْلَهُ مِنَ الْاِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ^(١) فِي أَفْعَالِهِ، وَلَا يَطْلُبُ لَهَا^(٢) عِلَّةً؛ إِذْ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ مَالِكٌ وَحَكِيمٌ؛ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْنَا وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي فِعْلِهِ؛ نَسَبْنَا ذَلِكَ الْعَجْزَ إِلَى فَهْمِنَا.

وَكَيْفَ لَا؛ وَقَدْ عَجَزَ مُوسَى عليه السلام أَنْ يَعْرِفَ حِكْمَةَ حَرْقِ السَّفِينَةِ، وَقَتْلِ الْغَلَامِ، فَلَمَّا بَانَ لَهُ حِكْمَةُ ذَلِكَ الْفَسَادِ فِي الظَّاهِرِ؛ أَقْرَأَ! فَلَوْ قَدْ بَانَتِ الْحِكْمَةُ فِي أَفْعَالِ الْخَالِقِ؛ [مَا] جَحَدَ الْعَقْلُ جَحْدَ مُوسَى يَوْمَ الْخَضِرِ.

فَمَتَى رَأَيْتَ الْعَقْلَ يَقُولُ: لِمَ؟ فَأَخْرِسْهُ بِأَنْ تَقُولَ لَهُ: يَا عَاجِزُ! أَنْتَ لَا تَعْرِفُ حَقِيقَةَ نَفْسِكَ؛ فَمَا لَكَ وَالْاِعْتِرَاضَ عَلَى الْمَالِكِ!؟

وَرُبَّمَا قَالَ الْعَقْلُ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي الْاِبْتِلَاءِ؛ وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يُثِيبَ، وَلَا بَلَاءَ؟! وَأَيُّ غَرَضٍ فِي تَعْذِيبِ أَهْلِ النَّارِ؛ وَلَيْسَ ثُمَّ تَشَفَّ؟! فَقُلْ لَهُ: حِكْمَتُهُ فَوْقَ مَرْتَبَتِكَ؛ فَسَلِّمْ لِمَا لَا تَعْلَمُ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ اِعْتَرَضَ بِعَقْلِهِ إِبْلِيسُ؛ رَأَى فَضْلَ النَّارِ عَلَى الطِّينِ، فَأَعْرَضَ [عَنِ السُّجُودِ].

وَقَدْ رَأَيْنَا خَلْقًا كَثِيرًا، وَسَمِعْنَا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقْدَحُونَ فِي الْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يُحَكِّمُونَ الْعُقُولَ عَلَى مُقْتَضَاهَا، وَيَنْسَوْنَ أَنَّ حِكْمَةَ الْخَالِقِ وَرَاءَ الْعُقُولِ.

فَيَايَاكَ أَنْ تَفْسَحَ لِعَقْلِكَ فِي تَعْلِيلِ، أَوْ أَنْ تَطْلُبَ لَهُ جَوَابَ اِعْتِرَاضٍ، وَقُلْ لَهُ: سَلِّمْ تَسَلِّمْ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي غَوْرَ الْبَحْرِ، إِلَّا وَقَدْ أَدْرَكَكَ الْغَرَقُ قَبْلَ ذَلِكَ. هَذَا أَصْلُ عَظِيمٌ؛ مَتَى فَاتَ الْآدَمِيَّ؛ أَخْرَجَهُ الْاِعْتِرَاضُ إِلَى الْكُفْرِ.

٢٧٢ - فصل: من أوغل في السن فليعتبر بما فقد

١٢٣٤ - الْعَجْبُ مِمَّنْ يَقُولُ: أَخْرُجْ إِلَى الْمَقَابِرِ فَأَعْتَبِرْ بِأَهْلِ الْبِلَى^(٣)! وَلَوْ فَطِنَ؛

(١) أي: على الخالق عليه السلام.

(٢) أي: في الأصل: بها.

(٣) البلى: الفناء.

عَلِمَ أَنَّهُ مَقْبَرَةٌ؛ يُغْنِيهِ الْأَعْتِبَارُ بِمَا فِيهَا عَنْ غَيْرِهَا! خُصُوصًا مَن قَدِ أُوَعِّلَ فِي السَّنِّ؛ فَإِنَّ شَهْوَتَهُ ضَعُفَتْ، وَقُوَاهُ قَلَّتْ، وَالْحَوَاسُّ كَلَّتْ، وَالنَّشَاطُ فَتَرَ، وَالشَّعْرُ الْبَيْضَ. فَلْيَعْتَبِرْ بِمَا فَقَدَ، وَلْيَسْتَعِنِ عَنْ ذِكْرِ مَنْ فَقَدَ؛ فَقَدْ اسْتَعْنَى بِمَا عِنْدَهُ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى غَيْرِهِ.

٢٧٣ - فصل: متى تكامل العقل فُقدت لذة الدنيا

١٢٣٥ - مَتَى تَكَامَلَ الْعَقْلُ؛ فَقَدَتْ لَذَّةُ الدُّنْيَا، فَتَضَاعَلِ الْجِسْمُ، وَقَوِيَ السَّقَمُ، وَاشْتَدَّ الْحُزْنُ. لِأَنَّ الْعَقْلَ كُلَّمَا تَلَمَّحَ الْعَوَاقِبَ؛ أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا، وَالتَفَّتْ إِلَى مَا تَلَمَّحَ، وَلَا لَذَّةَ عِنْدَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَاجِلِ، وَإِنَّمَا يَلْتَمِذُ أَهْلُ الْعَقْلَةِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَلَا عَقْلَةَ لِكَامِلِ الْعَقْلِ، وَلِهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُخَالَطَةِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانَتْهُمْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

مَا فِي الدِّيَارِ أَخُو وَجِدٍ نَطَارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلَّ نَجَارِيهِ^(١)

٢٧٤ - فصل: من قدح في البعث قدح في الحكمة

١٢٣٦ - ادَّعَى الطَّبَائِعِيُّونَ^(٢) أَنَّ مَادَّةَ الْمَوْجُودَاتِ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ وَالنَّارُ وَالهَوَاءُ؛ فَإِذَا كَانَ فِي الْقِيَامَةِ؛ أَذْهَبَ الْأُصُولَ، ثُمَّ أَعَادَ الْحَيَوَانَ^(٣)؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا كَانَتْ بِالْقُدْرَةِ، لَا عَنْ تَأْيِيرِ الْكُلِّيَّاتِ! [أَقُولُ]: وَمَنْ قَدَحَ فِي الْبَعْثِ؛ فَقَدَ^(٤) بَالَعَ فِي الْفَدْحِ فِي الْحِكْمَةِ.

١٢٣٧ - وَمَنْ قَالَ: الرُّوحُ عَرَضٌ؟ فَقَدْ جَحَدَ الْبَعْثَ؛ لِأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَبْقَى، وَالْأَجْسَادَ تَصِيرُ تُرَابًا؛ فَإِنْ وَجِدَ شَيْءٌ؛ فَهُوَ ابْتِدَاءُ خَلْقٍ.

كَلَّا وَاللهِ؛ [بَلْ] يُعِيدُ النَّفْسَ بِعَيْنِهَا [رُوحًا وَجَسَدًا]؛ بِدَلِيلِ إِعَادَةِ مَذْكُورَاتِهَا: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١].

(١) سبق في الفصل (١٦٢) وفيه: (ما في الصحاب) بدل قوله: (ما في الديار) وهو قريب.

(٢) الفلاسفة. (٣) الحيوان: الحياة.

(٤) في الأصل: قد.

١٢٣٨ - وَعِزَّتِهِ؛ إِنَّ لُطْفَهُ فِي الْبِدَايَةِ لَدَلِيلٌ عَلَى النِّهَايَةِ. حَنَّ الْوَالِدَيْنِ، وَأَجْرَى اللَّبْنَ فِي الثَّدْيِ، وَأَنْشَأَ الْأَطْعِمَةَ، وَأَطْلَعَ الْعَقْلَ عَلَى الْعَوَاقِبِ. أَفِيحْسُنُ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ هَذَا التَّنْدِيرِ: إِنَّهُ يُهْمِلُ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ فَلَا يَبْعَثُ؟! أُرْتَى مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ، فَأَنْشَأَ الْخَلْقَ، وَقَالَ: «كُنْتُ كَنْزًا لَا أُعْرَفُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ»؛ يُؤَثِّرُ أَنْ يَعْدِمَهُمْ، فَيُجْهَلُ قَدْرُهُ؟! سُبْحَانَ مَنْ أَعْمَى أَكْثَرَ الْقُلُوبِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.

٢٧٥ - فصل: تجلي الخالق سبحانه

١٢٣٩ - سُبْحَانَ مَنْ ظَهَرَ لِخَلْقِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ خَفَاءً، ثُمَّ خَفِيَ حَتَّى كَانَهُ لَا ظُهُورَ. أَيُّ ظُهُورٍ أَجْلَى مِنْ هَذِهِ الْمَصْنُوعَاتِ الَّتِي تَنْطِقُ كُلُّهَا بِأَنَّ لِي صَانِعًا صَنَعَنِي، وَرَتَّبَنِي عَلَى قَانُونِ الْحِكْمَةِ؟! نُحْصِصًا هَذَا الْآدَمِيَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ قَطْرَةٍ، وَبَنَاهُ عَلَى أَعْجَبِ قَطْرَةٍ، وَرَزَقَهُ الْفَهْمَ وَالذُّهْنَ، وَالْيَقِظَةَ وَالْعِلْمَ، وَبَسَطَ لَهُ الْمِهَادَ، وَأَجْرَى لَهُ الْمَاءَ وَالرِّيْحَ، وَأَنْبَتَ لَهُ الزَّرْعَ، وَرَفَعَ لَهُ مِنْ فَوْقِهِ السَّمَاءَ، فَأَوْقَدَ لَهُ مِضْبَاحَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَجَاءَ بِالظُّلْمَةِ لِيَسْكُنَ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا يَحْفَى. وَكُلُّهُ يَنْطِقُ بِصَوْتٍ فَصِيحٍ يَدُلُّ عَلَى خَالِقِهِ، وَقَدْ تَجَلَّى الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ؛ فَلَا خَفَاءَ.

١٢٤٠ - ثُمَّ بَعَثَ الرُّسُلَ فُقَرَاءَ مِنَ الدُّنْيَا، ضِعَافَ الْأَبْدَانِ، فَفَهَّرَ بِهِمُ الْجَبَابِرَةَ، وَأَظْهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ مَقْدُورِ بَشَرٍ. وَكُلُّ ذَلِكَ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ. وَقَدْ تَجَلَّى سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ لِعِبَادِهِ.

١٢٤١ - ثُمَّ يَأْتِي مُوسَى عليه السلام إِلَى الْبَحْرِ، فَيَنْفِرُقُ، فَلَا يَبْقَى شَكٌّ فِي أَنَّ الْخَالِقَ فَعَلَ هَذَا، وَيُكَلِّمُ عِيسَى عليه السلام الْمَيِّتَ، فَيَقُومُ، وَيَبْعَثُ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَحْفَظُ بَيْتَهُ، فَيُهْلِكُ قَاصِدِيهِ. وَهَذَا أَمْرٌ يَطُولُ ذِكْرُهُ كُلُّهُ، يَدُلُّ عَلَى تَجَلِّي الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ بِغَيْرِ خَفَاءٍ.

١٢٤٢ - فَإِذَا ثَبَتَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ ارْتِيَابٍ وَلَا شَكٍّ، [ثُمَّ] جَاءَتْ أَشْيَاءُ كَانَتْ تَسْتُرُ الظَّاهِرَ؛ مِثْلُ مَا سَبَقَ مِنْ تَسْلِيْطِ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ. وَإِذَا ثَبَتَ التَّجَلِّيُّ بِإِدْلَةٍ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ؛ عَلِمْتَ أَنَّ لِهَذَا الْحَفَاءِ سِرًّا لَا نَعْلَمُهُ، يُفْتَرَضُ عَلَى الْعَقْلِ فِيهِ التَّسْلِيمُ لِلْحَكِيمِ. فَمَنْ سَلَّمَ سَلِمَ، وَمَنْ اعْتَرَضَ هَلَكَ.

١٢٤٣ - قَدْ يَدْعِي أَهْلُ كُلِّ مَذْهَبٍ الْأَجْتِهَادَ فِي طَلَبِ الصَّوَابِ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَقْصِدُ إِلَّا الْحَقَّ؛ فَتَرَى الرَّاهِبَ يَتَعَبَّدُ، وَيَتَجَوَّعُ، وَالْيَهُودِيَّ يَذُلُّ، وَيُؤَدِّي الْجِزْيَةَ، وَصَاحِبَ كُلِّ مَذْهَبٍ يُبَالِغُ فِيهِ، وَيَحْتَمِلُ الضَّيْمَ وَالْأَذَى طَلْبًا لِلهُدَى، وَتَحْصِيلِ الْأَجْرِ فِي اعْتِقَادِهِ، وَمَعَ هَذَا؛ فَيَقْطَعُ الْعَقْلُ بِضَلَالِ الْأَكْثَرِينَ.

وهذا قد يُشْكِلُ. وَإِنَّمَا كَشَفُهُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُطَلَّبَ الْهُدَى بِأَسْبَابِهِ، وَيُسْتَعْمَلَ الْأَجْتِهَادُ بِالْإِبَانَةِ، فَأَمَّا مَنْ فَاتَتْهُ الْأَسْبَابُ، أَوْ فَقَدَ بَعْضَ الْأَلَاتِ؛ فَلَا يُقَالُ لَهُ مُجْتَهِدٌ.

١٢٤٤ - فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَيْنَ عَالِمٍ قَدْ عَرَفَ صِدْقَ نَبِيِّنَا ﷺ لِكِنَّةِ يَجْحَدُ [إِبْقَاءً] لِرِئَاسَتِهِ؛ فَهَذَا مُعَانِدٌ. وَبَيْنَ مَقْلَدٍ لَا يَنْظُرُ بِعَقْلِهِ؛ فَهَذَا مُهْمَلٌ؛ فَهُوَ يَتَعَبَّدُ مَعَ إِهْمَالِ الْأَصْلِ، وَذَاكَ ^(١) لَا يَنْفَعُ. وَبَيْنَ نَاطِرٍ مِنْهُمْ لَا يَنْظُرُ حَقَّ النَّظَرِ، فَيَقُولُ: فِي (التَّوْرَةِ) إِنَّ دِينَنَا لَا يُنْسَخُ! [وَنَسَخَ الشَّرَائِعِ لِاخْتِلَافِ الْأَزْمَنَةِ حَقًّا، وَلِكِنَّةِ] ^(٢) يَقُولُ: النَّسَخُ بَدَأٌ ^(٣)! وَلَا يَنْظُرُ فِي الْفَرْقِ [بَيْنَهُمَا]؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ حَقَّ النَّظَرِ.

١٢٤٥ - وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ تَعَبَّدَ الْخَوَارِجُ ^(٤)، مَعَ اقْتِنَاعِهِمْ بِعِلْمِهِمُ الْقَاصِرِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّ التَّحْكِيمَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ، فَجَعَلُوا قِتَالَ عَلِيِّ ﷺ وَقَتْلَهُ مَبْنِيًّا عَلَى ظَنِّهِمُ الْفَاسِدِ.

١٢٤٦ - وَلَمَّا نَهَبَ مُسْلِمٌ بُنَّ عُقْبَةَ ^(٥) الْمَدِينَةَ، وَقَتَلَ الْخُلُقَ؛ قَالَ: إِنْ دَخَلْتُ

(١) في الأصل: هذا.

(٢) في الأصل: (وهو على غير ثقة أنه غير معلوم، ولا مدخل فيه).

(٣) انظر الفرق بين النسخ والبداء في كتاب (ناسخ القرآن ومنسوخه) للمؤلف ص (١٠٧ - ١٠٨).

(٤) هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب ﷺ بعد التحكيم، وطلبوا منه أن يعترف بالكفر إذ قبل بالتحكيم ثم يتوب، وكانوا هم الذين حملوه على القبول به في صفين، فقاتلهم في النهروان، لكنهم تأمروا على قتله فقتله المجرم عبد الرحمن بن ملجم المرادي. من مقالاتهم الرديئة تكفير فاعل الكبيرة، ومن هنا كفروا مخالفتهم واستحلوا دماءهم.

(٥) مسلم بن عقبة المري من قواد الأمويين الجفاة القساة من نمط الحجاج عليهما من الله ما يستحقان، وكانت على يده وقعة الحرّة التي استباح فيها الحرمات في مدينة الرسول ﷺ.

النَّارَ بَعْدَ هَذَا إِنِّي لَشَقِيٌّ. فَظَنَّ بِجَهْلِهِ أَنَّهُمْ لَمَّا خَالَفُوا بَيْعَةَ يَزِيدَ؛ يَجُوزُ اسْتِيَابَتَهُمْ
وَقَتْلَهُمْ.

١٢٤٧ - فَالْوَيْلُ لِعَامِي قَلِيلِ الْعِلْمِ؛ لَا يَتَّبِعُهُمْ نَفْسُهُ فِي وَاقِعَةٍ، وَلَا يَذَاكِرُ مَنْ هُوَ
أَعْلَمُ مِنْهُ، بَلْ يَقْطَعُ بَطْنَهُ وَيُقَدِّمُ. وَهَذَا أَصْلُ يَنْبَغِي تَأْمَلُهُ؛ فَقَدْ هَلَكَ فِي إِهْمَالِهِ خَلْقٌ
لَا تُحْصَى، وَقَدْ رَأَيْنَا خَلْقًا مِنَ الْعَوَامِّ إِذَا وَقَعَتْ لَهُمْ وَاقِعَةٌ؛ لَمْ يَقْبَلُوا فِتْوَى. ﴿وَجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ ﴿١﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٣﴾ ﴿الغاشية﴾.

٢٧٧ - فصل: للنفس ذخائر في البدن

١٢٤٨ - لِلنَّفْسِ ذَخَائِرٌ فِي الْبَدَنِ، مِنْهَا الدَّمُّ وَالْمَنِيُّ، وَأَشْيَاءٌ تَقْوَى بِهَا؛ فَإِذَا
فَقَدَتِ الذَّخَائِرُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ ذَهَبَتْ.

١٢٤٩ - وَمِنْ ذَخَائِرِهَا التَّقْوَى بِالْمَالِ وَالْحَاجِ، وَمَا يُوجِبُ الْفَرَحَ؛ فَإِذَا فَقَدَتْ
ذَلِكَ، وَكَانَتْ عَزِيْزَةً ذَاتَ أَنْفَةٍ؛ حَرَجَتْ. وَقَدْ يَهْجُمُ عَلَيْهَا الْخَوْفُ؛ فَلَا تَجِدُ ذَخِيْرَةً
مِنَ الرَّجَاءِ يُقَاوِمُهُ، فَتَذْهَبُ. وَيَغْلِبُ عَلَيْهَا الْفَرَحُ؛ فَلَا تَجِدُ مِنَ الْحُزْنِ مَا يُقَاوِمُهُ،
فَتَذْهَبُ.

١٢٥٠ - فَاجْتَهِدْ فِي حِفْظِ ذَخَائِرِهَا، وَخُصُوصًا الشَّيْخَ؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَفْرَحَ
بِإِخْرَاجِ الدَّمِّ، وَلَا بِإِخْرَاجِ الْمَنِيِّ، وَإِنْ وَجَدَ شَبَقًا؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّبَقُ ^(١) رَائِدًا فِي
الْحَدِّ، فَيُخْرِجُ الْمُؤْذِي فِي كُلِّ حِينٍ. وَعَلَامَةٌ أَنْ يَكُونَ مُؤْذِيًا: وَجُودُ الرَّاحَةِ عِنْدَ
خُرُوجِهِ؛ فَمَتَى وَجَدَ ضَعْفًا؛ فَقَدْ آذَى خُرُوجُهُ.

١٢٥١ - وَلِيَحْفَظْ دُوَّ الْأَنْفَةِ عَلَى نَفْسِهِ حِسْمَتَهُ؛ بِالْأَلَّا يَقِفَ فِي مَوْقِفٍ يُعَابُ بِهِ؛
فَإِنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِذَخِيْرَةِ الْعِزِّ وَالْأَنْفَةِ، وَيُضَادُّ النَّفْسَ وَجُودُ ضِدِّ ذَلِكَ.

١٢٥٢ - وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِدَّ لِآخِرِ عُمُرِهِ بِالْمَالِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَحْتَاجَ قَيْدًا أَوْ
يَسْعَى، وَقَدْ كَلَّتِ ^(٢) الْآلَةُ. وَلَآنَ يُحْلَفُ لِعَدُوِّهِ أَوْلَى مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى صَدِيقِهِ. وَلَا
يَلْتَقِئُ إِلَى مَنْ يَذُمُّ الْمَالَ؛ فَإِنَّهُمْ الْحَمَقَى الْجُهَالُ الَّذِينَ اتَّكَلُوا عَلَى حُبْرِ الرَّاحَةِ،

(٢) كَلَّتْ: تعبت.

(١) الشبق: شدة الرغبة في النكاح.

فَاسْتَطَابُوا الْكَسَلَ وَالِدَّعَةَ، وَلَمْ يَأْنِفُوا مِنْ تَنَاوُلِ الصَّدَقَةِ، وَلَا التَّعَرُّضِ لِلسُّؤَالِ؛ وَقَدْ كَانَ لِكُلِّ نَبِيٍّ مَعَاشٌ، وَلِجَمِيعِ الصَّحَابَةِ، وَخَلَفُوا أَمْوَالًا كَثِيرَةً. فَافْهَمْ هَذَا الْأَصْلَ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى كَلَامِ الْجُهَالِ.

٢٧٨ - فصل: زهاد زماننا أهل رياء ونفاق

١٢٥٣ - رَأَيْتُ فِي زُهَادِ زَمَانِنَا مِنَ الْكِبَرِ، وَحَفْظِ التَّامُوسِ، وَرُثْبَةِ الْجَاهِ فِي قُلُوبِ الْعَامَّةِ مَا كِدْتُ أَقْطَعُ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ رِيَاءٍ وَنِفَاقٍ! فَتَرَى أَحَدَهُمْ يَلْبَسُ الثُّوبَ الَّذِي يُرَى بِعَيْنِ الزُّهْدِ، وَيَأْكُلُ أَطْيَابَ الطَّعَامِ، وَيَتَكَبَّرُ عَلَى أَبْنَاءِ الْجِنْسِ، وَيُصَادِقُ الْأَغْنِيَاءَ، وَيُبَاعِدُ الْفُقَرَاءَ، وَيُحِبُّ الْخِطَابَ بِمَوْلَانَا، وَالْمَشْيَ بِجَانِبِهِ؛ وَيُضَيِّعُ الزَّمَانَ فِي الْهَدْيَانِ، وَيَتَقَوَّتُ بِخِدْمَةِ النَّاسِ لَهُ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ.

وَلَوْ أَنَّهُ لَبَسَ ثُوبًا يَخْلِطُهُ بِالْفُقَهَاءِ؛ لَذَهَبَ الْجَاهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَتَعَلِّقٌ! وَلَوْ أَنَّ أَعْمَالَهُ نَاسَبَتْ ثِيَابَهُ لَهَانَ الْأَمْرُ، لَكِنَّهُمْ بَهَرَجُوا عَلَى مَنْ لَا يَخْفَى أَمْرُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَكَيْفَ الْخَالِقُ ﷻ؟!

٢٧٩ - فصل: على المؤمن أن يصون نفسه

١٢٥٤ - كَثِيرًا مَا أُعِيدُ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أَنَا ذَاكِرُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِعِبَارَاتٍ شَتَّى: يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِمَعَاشِهِ، وَيَرْفُقَ فِي نَفَقَتِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِلْعُلَمَاءِ شَيْءٌ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَرَفُقٌ مِنَ الْإِخْوَانِ، وَمَعُونَةٌ مِنَ الْعَوَامِّ، فَأَنْقَطَعَ الْكُلُّ، وَبَقِيَ الْمُتَشَاغِلُ بِالْعِلْمِ أَوْ التَّعَبُّدِ مُسْكِنًا، حُصُوصًا ذُو^(١) الْعَائِلَةِ.

١٢٥٥ - وَمَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا الزَّمَانِ الْقَبِيحِ؛ فَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمًا إِلَيْهِ بِمَعُونَةٍ، وَلَا بِاسْتِفْرَاضٍ، فَيَحْتَاجُ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَدْخُلَ فِي مَدَاخِلِ لَا تَلِيقُ بِهِ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ بِمَا لَا يَصْلُحُ.

فَيَنْبَغِي تَقْلِيلُ الْعَائِلَةِ، وَتَقْوِيَةُ الْقُوَّةِ^(٢)، وَتَرْقِيعُ الْخَلْقِ. وَإِنْ أَمَكْنَ مَعَاشٌ؛

(١) كذا في الأصل، والصواب (ذا). (٢) تقوية القوت: حفظه، وعدم تضييعه.

فَهُوَ أَوْلَى مِنَ الشَّاعِلِ بِالتَّعَبُدِ، وَالتَّعَلُّمِ لِفُضُولِ الْعِلْمِ، وَإِلَّا ضَاعَ الدِّينُ فِي مَدَاخِلِ
لَا تَصْلُحُ، أَوْ التَّعَرُّضِ لِبَذَلِ نَذْلِ.

٢٨٠ - فصل: على المؤمن أن يحترز مما يمكن وقوعه

١٢٥٦ - يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِزَ غَايَةَ مَا يُمَكِّنُهُ؛ فَإِذَا جَرَى الْقَدْرُ مَعَ اخْتِرَازِهِ؛
لَمْ يُلْمَ. وَالاخْتِرَازُ يَنْبَغِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ وَفُوعُهُ، وَأَخَذَ الْعُدَّةَ لِذَلِكَ [وَاجِبٌ]،
وَهَذَا يَكُونُ فِي كُلِّ حَالٍ.

فَقَدْ قَصَّ رَجُلٌ ظُفْرَهُ، فَجَارَ عَلَيْهِ، فَخَبَّتْ يَدُهُ فَمَاتَ. وَمَرَّ شَيْخُنَا أَحْمَدُ
الْحَرَبِيُّ^(١)، وَهُوَ رَاكِبٌ بِمَكَانٍ ضَيِّقٍ، فَتَطَأَ عَلَى السَّرَجِ، فَانْعَصَرَ فُوَادُهُ، فَمَرَضَ،
فَمَاتَ. وَكَانَ يَحْيَى بْنُ نَزَارٍ شَيْخًا يَحْضُرُ مَجْلِسِي، قَدْ طَرَقَ عَلَيْهِ ثِقَلُ الْأُذُنِ،
فَاسْتَدْعَى طُرْقِيًّا^(٢)، فَمَصَّ أُذُنَهُ، فَجَرَى شَيْءٌ مِنْ مِخِّهِ؛ فَمَاتَ.

وَأَنْظُرْ إِلَى اخْتِرَازِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ مَرَّ عَلَى حَائِطٍ مَائِلٍ فَأَسْرَعَ^(٣).

١٢٥٧ - وَيَنْبَغِي أَنْ يَحْتَرِزَ بِالْكَسْبِ فِي زَمَنِ سَبَابِهِ؛ ادِّحَارًا لِيَزَمَنَ شَيْبِهِ، وَلَا
يَنْبَغِي أَنْ يَتَّقَ بِمُعَامَلٍ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَيُبَادِرَ بِالْوَصِيَّةِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَظْرُقَهُ الْمَوْتُ، وَيَحْتَرِزَ
مِنْ صَدِيقِهِ فَضْلًا عَنْ عَدُوِّهِ، وَلَا يَتَّقَ بِمَوَدَّةٍ مَنْ قَدْ آذَاهُ هُوَ؛ فَإِنَّ الْحِقْدَ فِي الْقُلُوبِ
قَلَمًا يَزُولُ، وَلِيَحْتَرِزَ مِنْ زَوْجَتِهِ؛ فَرُبَّمَا أَطْلَعَهَا عَلَى سِرِّهِ، ثُمَّ طَلَّقَهَا، فَيَتَأَدَّى بِمَا
تَفَعَّلَ بِهِ.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ أَفْلَحَ^(٤) الشَّاعِرُ يُكَاتِبُ رَثِيئًا فِي زَمَنِ الْمُسْتَرْشِدِ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ
بَوَائِبُهُ، وَاتَّفَقَ أَنَّهُ صَرَفَ بَوَائِبَهُ، فَنَمَّ عَلَيْهِ، وَنَقِضَتْ دَارُهُ^(٥).

فَهَذِهِ الْمَذْكُورَاتُ^(٦) أَمْثَلَةٌ تُنَبِّهُ عَلَى مَا لَمْ يُذَكَّرْ. وَأَهَمُّ الْكُلِّ أَنْ يَحْتَرِزَ بِأَخْذِ

(١) لم أجده. (٢) مشعوذاً.

(٣) رواه أحمد (٢/٣٥٦)، قال الهيثمي في المجمع (٢/٣٢١): إسناده ضعيف.

(٤) هو علي بن أفلح العبسي، أبو القاسم، شاعر من الكتاب، علت شهرته، مدح الخلفاء
وأرباب المراتب، له ديوان شعر، توفي سنة (٥٣٥هـ).

(٥) المنتظم (١٠/٨٠). (٦) في الأصل: المذكرات، وهو تصحيف.

العُدَّة، وَتَحْفِيقِ التَّوْبَةِ، قَبْلَ أَنْ يَهْجَمَ عَلَيْهِ مَا لَا يُؤْمَنُ هُجُومُهُ، وَلِيَحْذَرَ مِنْ لِصِّ الكَسَلِ؛ فَإِنَّهُ مُحْتَالٌ عَلَى سَرِقَةِ الرِّمَانِ.

٢٨١ - فصل: السعيد من اهتم لحفظ دينه

وقنع من الدنيا باليسير

١٢٥٨ - تَأَمَّلْتُ حُصُومَاتِ الْمُلُوكِ؛ وَحِرْصَ التُّجَّارِ؛ وَنِفَاقَ الْمُتَزَهِّدِينَ: فَوَجَدْتُ جُمهُورَ ذَلِكَ عَلَى لَذَّاتِ الْحِسِّ. وَإِذَا تَفَكَّرَ الْعَاقِلُ فِي ذَلِكَ؛ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ الْحِسِّيَّاتِ قَرِيبٌ، يَنْدَفِعُ بِأَقْلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ الْعَايَةَ مِنْهُ لَا يُمَكِّنُ نَيْلَهَا، وَإِنْ بَالَعَ عَادَ بِالْأَذَى عَلَى نَفْسِهِ أَضْعَافَ مَا نَالَ مِنَ اللَّذَّةِ؛ كَمَنْ يَأْكُلُ كَثِيرًا أَوْ يَنْكِحُ كَثِيرًا. فَالسَّعِيدُ مَنْ أَهْتَمَّ لِحِفْظِ دِينِهِ، وَأَخَذَ مِنْ ذَلِكَ بِمِقْدَارِ الْحَاجَةِ.

١٢٥٩ - وَاعْجَبًا! هَذَا الْمَلْبُوسُ: إِذَا كَانَ وَسَطًا؛ حُدَمَ، وَإِذَا كَانَ مُرْتَفِعًا؛ حُدِمَ، فَإِنْ نَظَرَ اللَّابِسُ إِلَيْهِ مُعْجَبًا بِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَئِذٍ، وَفِي (الصَّحِيحِ): «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي بُرْدَتِهِ؛ حَسَفَ بِهِ».

١٢٦٠ - وَالْمَشْرُوبُ: إِنْ كَانَ حَرَامًا؛ فَعِقَابُهُ أَضْعَافُ لَذَّتِهِ، وَهَتَكُهُ الْعَرَضَ بَيْنَ النَّاسِ عِقَابٌ آخَرٌ. وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا؛ فَالْشَّرُّ فِيهِ يُؤْذِي الْبَدَنَ.

١٢٦١ - وَأَمَّا الْمَنْكُوحُ؛ فَمَدَارَاةُ الْمُسْتَحْسَنِ يُؤْذِي فَوْقَ كُلِّ أَدَى، وَمُقَاسَاةُ الْمُسْتَتَبِحِ أَشَدُّ أَدَى؛ فَعَلَيْكَ بِالتَّوَسُّطِ.

١٢٦٢ - وَتَفَكَّرْ فِي أَحْوَالِ السَّلَاطِينِ؛ كَمْ قَتَلُوا ظُلْمًا؟ وَكَمْ ارْتَكَبُوا حَرَامًا؟ وَمَا نَالُوا إِلَّا يَسِيرًا مِنْ لَذَّاتِ الْحِسِّ، فَانْقَشَعَ عَيْمُ الْعُمَرِ عَنْ حَسْرَاتِ الْفَضَائِلِ وَحُضُولِ الْعِقَابِ.

١٢٦٣ - فليَسْ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ عَيْشًا مِنْ مُنْفَرِدِ عَنِ الْعَالَمِ بِالْعِلْمِ؛ فَهُوَ أَنْيْسُهُ وَجَلِيْسُهُ، قَدْ قَبِعَ بِمَا سَلِمَ بِهِ دِينُهُ مِنَ الْمُبَاحَاتِ الْحَاصِلَةِ، لَا عَنْ تَكَلُّفٍ، وَلَا تَضْيِيعِ دِينٍ، وَارْتَدَى بِالْعَزْزِ عَنِ الذُّلِّ لِلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَالتَّحَفَ بِالقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ، إِذْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْكَثِيرِ، فَوَجَدْتُهُ يَسَلِّمُ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ.

وَأَشْتَعَالُهُ بِالْعِلْمِ يَدُلُّهُ عَلَى الْفَضَائِلِ، وَيُفَرِّجُهُ فِي الْبَسَاتِينِ؛ فَهُوَ يَسْلَمُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالسُّلْطَانِ وَالْعَوَامِّ بِالْعَزَلَةِ. وَلَكِنْ؛ لَا يَصْلُحُ هَذَا إِلَّا لِلْعَالِمِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اعْتَزَلَ الْجَاهِلُ؛ فَاتَهُ الْعِلْمُ، فَتَخَبَّطَ.

٢٨٢ - فصل: الموفق من طلاب العلم

١٢٦٤ - تَأَمَّلْتُ حَالَةَ تَدْخُلُ عَلَى طُلَّابِ الْعِلْمِ تُوجِبُ الْعَفْلَةَ عَنِ الْمُقْصُودِ، وَهُوَ حِرْصُهُمْ عَلَى الْكِتَابَةِ، خُصُوصًا الْمُحَدِّثِينَ، فَيَسْتَعْرِقُ ذَلِكَ زَمَانَهُمْ عَنْ أَنْ يَحْفَظُوا وَيَفْهَمُوا، فَيَذْهَبُ الْعُمُرُ وَقَدْ عَرَوْا^(١) عَنِ الْعِلْمِ إِلَّا الْيَسِيرَ. فَمَنْ وُفِّقَ؛ جَعَلَ مُعْظَمَ الزَّمَانِ مَضْرُوفًا فِي الْإِعَادَةِ وَالْحِفْظِ، وَجَعَلَ وَقْتِ التَّعَبِ مِنَ التَّكَرَّارِ لِلنَّسْخِ، فَيَحْصُلُ لَهُ الْمَرَادُ.

وَالْمُؤَفَّقُ مَنْ طَلَبَ الْمُهَمَّ؛ فَإِنَّ الْعُمَرَ يَعْجِزُ عَنِ تَحْصِيلِ الْكُلِّ، وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ الْفَقْهَ. وَفِي النَّاسِ مَنْ حَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ، وَغَفَلَ عَنِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ، وَكَأَنَّهُ مَا حَصَلَ شَيْئًا، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ.

٢٨٣ - فصل: التثبت والمشاورة

١٢٦٥ - مَا اعْتَمَدَ أَحَدٌ أَمْرًا إِذَا هَمَّ بِشَيْءٍ مِثْلَ التَّثَبُّتِ؛ فَإِنَّهُ مَتَى عَمِلَ بِوَاقِعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ لِلْعَوَاقِبِ؛ كَانَ الْعَالِبَ عَلَيْهِ النَّدَمُ، وَلِهَذَا أُمِرَ بِالْمُشَاوَرَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِالتَّثَبُّتِ يَفْتَكِرُ، فَتَعْرِضُ عَلَى نَفْسِهِ الْأَحْوَالُ، وَكَأَنَّهُ شَاوَرَ، وَقَدْ قِيلَ: «حَمِيرُ الرَّأْيِ خَيْرٌ مِنْ فَطِيرِهِ».

١٢٦٦ - وَأَشَدُّ النَّاسِ تَفَرُّطًا مَنْ عَمِلَ مُبَادَرَةً فِي وَاقِعَةٍ، مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ وَلَا اسْتِشَارَةٍ، خُصُوصًا فِيمَا يُوجِبُهُ الْغَضَبُ؛ فَإِنَّهُ طَلَبَ الْهَلَاكَ أَوْ النَّدَمَ الْعَظِيمَ. وَكَمْ مَنْ غَضِبَ، فَقَتَلَ، وَضَرَبَ، ثُمَّ لَمَّا سَكَنَ غَضَبُهُ؛ بَقِيَ طَوْلَ دَهْرِهِ فِي الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَالنَّدَمِ! وَالْعَالِبُ فِي الْقَاتِلِ أَنَّهُ يُقْتَلُ، فَتَفُوتُهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ.

(١) عروا: تجردوا.

١٢٦٧ - فَكَذَلِكَ مَنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ، فَاسْتَعْجَلَ لِدَتِّهَا، وَنَسِيَ عَاقِبَتَهَا؛ فَكَمْ مِنْ نَدَمٍ يَتَجَرَّعُهُ فِي بَاقِي عُمُرِهِ، وَعَتَابٍ يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وَعِقَابٍ لَا يُؤْمَنُ وَقُوعُهُ؛ كُلُّ ذَلِكَ لِلذَّةِ لِحَظَّةٍ كَانَتْ كَبْرَقٍ.

فَاللهُ اللهُ! التَّثَبُّتُ التَّثَبُّتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ! وَالنَّظَرُ فِي عَوَاقِبِهَا! خُصُوصًا الْعَضْبَ الْمُثِيرَ لِلْخُصُومَةِ وَتَعْجِيلَ الطَّلَاقِ.

٢٨٤ - فصل: من لم يحترز بعقله هلك بعقله

١٢٦٨ - سَأَلَنِي سَائِلٌ: قَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ بِعَقْلِهِ؛ هَلَكَ بِعَقْلِهِ» فَمَا مَعْنَى هَذَا؟ فَبَيَّيْتُ مُدَّةً لَا يَنْكَشِفُ لِي الْمَعْنَى، ثُمَّ اتَّضَحَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا طُلِبَتْ مَعْرِفَةُ ذَاتِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْعَقْلِ؛ فَنَزَعَ إِلَى الْحِسِّ، فَوَقَعَ التَّشْبِيهِ؛ فَالْأَحْتِرَازُ مِنَ الْعَقْلِ بِالْعَقْلِ هُوَ: أَنْ يَنْظُرَ، فَيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَلَا شَيْئًا لِشَيْءٍ.

١٢٦٩ - وَإِذَا نَظَرَ الْعَاقِلُ إِلَى أَفْعَالِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ؛ رَأَى أَشْيَاءَ لَا يَفْتَضِيهَا الْعَقْلُ؛ مِثْلَ الْأَلَامِ، وَالذَّبْحِ لِلْحَيَوَانِ، وَتَسْلِيطِ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمَنْعِ، وَالْإِتِّلَاءِ بِالْمَجَاعَةِ لِلصَّالِحِينَ، وَالْمُعَاقَبَةِ عَلَى الذَّنْبِ بَعْدَ الْبُعْدِ بِزَلَّةٍ، وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ؛ يَعْضُهَا الْعَقْلُ عَلَى الْعَادَاتِ فِي تَدْبِيرِهِ، فَيَرَى أَنَّهُ لَا حِكْمَةَ تَطْهَرُ لَهُ فِيهَا.

فَالْأَحْتِرَازُ مِنَ الْعَقْلِ بِهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ عِنْدِي أَنَّهُ مَالِكٌ، أَنَّهُ حَكِيمٌ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيُقَالُ: فَنَحْنُ نَحْتَرِزُ مِنْ تَدْبِيرِكَ الثَّانِي بِمَا ثَبَتَ عِنْدَكَ فِي الْأَوَّلِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْكَ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي فِعْلِهِ، فَيَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ؛ لِعِلْمِنَا أَنَّهُ حَكِيمٌ. حِينَئِذٍ يُذَعْنُ وَيَقُولُ: قَدْ سَلَّمْتُ.

١٢٧٠ - وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ نَظَرُوا لِمُقْتَضَى وَاقِعِ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ، فَاعْتَرَضُوا! حَتَّى إِنَّ الْعَامِيَ يَقُولُ: كَيْفَ قَضَى عَلَيَّ بِسُوءِ^(١) عَاقِبَتِي؟! وَلِمَ صَيَّقَ رِزْقِي؟! وَمَا وَجْهُ

(١) فِي الْأَصْلِ: سُوءِ.

الْحِكْمَةِ فِي ابْتِلَائِي بِفُنُونِ الْبَلَاءِ؟! وَلَوْ أَنَّهُ تَلَمَّحَ أَنَّهُ مَالِكٌ حَكِيمٌ؛ لَمْ يَبَقْ إِلَّا التَّسْلِيمُ لِمَا خَفِيَ.

١٢٧١ - وَلَقَدْ أَنَسَ بِبِدْيَةِ الْعَقْلِ خَلْقَ مِنَ الْأَكَابِرِ^(١)، أَوْلَهُمْ إِبْلِيسُ؛ فَإِنَّهُ رَأَى تَفْضِيلَ النَّارِ عَلَى الطِّينِ، فَأَعْتَرَضَ. وَرَأَيْنَا خَلْقًا مِمَّنْ نُسِبَ إِلَى الْعِلْمِ قَدْ زَلُّوا فِي هَذَا، وَأَعْتَرَضُوا، وَرَأَوْا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَفْعَالِ لَا حِكْمَةَ تَحْتَهَا. وَالسَّبَبُ مَا ذَكَّرْنَا، وَهُوَ الْأَنْسُ بِنَظَرِ الْعَقْلِ فِي الْبِدْيَةِ وَالْعَادَاتِ، وَالْقِيَاسُ عَلَى أَفْعَالِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَلَوْ اسْتَحْرَجُوا عِلْمَ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ الْكَمَالُ لِلْخَالِقِ، وَانْتَفَتَ عَنْهُ النَّقَائِصُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ حَكِيمٌ لَا يَعْثُ؛ لَبَقِيَ التَّسْلِيمُ لِمَا لَا يُعْقَلُ.

١٢٧٢ - وَاعْتَبِرْ هَذَا بِحَالِ الْخَضِرِ وَمُوسَى عليهما السلام، لَمَّا فَعَلَ الْخَضِرُ أَشْيَاءَ تَخْرُجُ عَنِ الْعَادَاتِ أَنْكَرَ مُوسَى، وَنَسِيَ إِعْلَامَهُ لَهُ بِأَنِّي أَنْظُرُ فِيمَا لَا تَعْلَمُهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ؛ فَإِذَا خَفِيَتْ مَصْلَحَةُ الْعَوَاقِبِ عَلَى مُوسَى عليه السلام مَعَ مَخْلُوقٍ؛ فَأَوْلَى أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا كَثِيرٌ مِنْ حِكْمَةِ الْحَكِيمِ.

وَهَذَا أَصْلٌ؛ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَ الْإِنْسَانِ؛ أَخْرَجَهُ إِلَى الْأَعْتِرَاضِ وَالْكَفْرِ، وَإِنْ ثَبَتَ؛ اسْتَرَاحَ عِنْدَ نُزُولِ كُلِّ آفَةٍ.

٢٨٥ - فصل: بإنعامك المتقدم أتوسل إليك

١٢٧٣ - بَلَّغْنِي عَنْ بَعْضِ الْكُرَمَاءِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ، فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَحْسَنْتَ [إِلَيَّ]^(٢) يَوْمَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: مَرَحَبًا بِمَنْ يَتَوَسَّلُ إِلَيْنَا بِنَا. ثُمَّ فَضَى حَاجَتَهُ.

١٢٧٤ - فَأَخَذْتُ مِنْ ذَلِكَ إِشَارَةً، فَنَاجَيْتُ بِهَا، فَقُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُ مِنْ زَمَنِ الطُّفُولَةِ، وَحَفِظْتَهُ مِنَ الضَّلَالِ، وَعَصَمْتَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الذُّنُوبِ، وَأَلْهَمْتَهُ طَلَبَ الْعِلْمِ، لَا بِفَهْمٍ لَشَرْفِهِ، لِمَوْضِعِ الصَّغَرِ، وَلَا بِحُبِّ وَالِدِهِ، وَرَزَقْتَهُ فَهْمًا لِتَفْقَهُهُ وَتَصْنِيفِهِ، وَهَيَّأْتَ لَهُ أَسْبَابَ جَمْعِهِ، وَقُمْتَ بِرِزْقِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْهُ، وَلَا دُلَّ لِلْخَلْقِ بِالسُّؤَالِ.

(١) الأكابر: يعني المتكبرين كما يفهم من السياق.

(٢) في الأصل: إليك، ولا يصح، وما أثبتته هو ما يقتضيه سياق الكلام.

وَحَامَيْتَ عَنْهُ الْأَعْدَاءَ، فَلَمْ يَقْصِدْهُ جَبَّارٌ، وَجَمَعْتَ لَهُ مَا لَمْ تَجْمَعْ لِأَكْثَرِ الْخَلْقِ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ، الَّتِي لَا تَكَادُ تَجْتَمِعُ فِي شَخْصٍ، وَأَضْفَتَ إِلَيْهَا تَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِمَعْرِفَتِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَحَسَنَ الْعِبَارَةِ^(١) وَلُطْفَهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْكَ، وَوَضَعْتَ لَهُ فِي الْقُلُوبِ الْقَبُولَ، حَتَّى إِنَّ الْخَلْقَ يَقْبَلُونَ عَلَيْهِ، وَيَقْبَلُونَ مَا يَقُولُهُ، وَلَا يَشْكُونَ فِيهِ، وَيَشْتَاقُونَ إِلَى كَلَامِهِ، وَلَا يُدْرِكُهُمُ الْمَلَلُ مِنْهُ، وَصُنَّتُهُ بِالْعَزَلَةِ عَنِ مَخَالَطَةِ مَنْ لَا يَصْلُحُ، وَأَنْسَتُهُ فِي خَلْوَتِهِ بِالْعِلْمِ تَارَةً، وَبِمَنَاجَاتِكَ أُخْرَى، وَإِنْ ذَهَبَتْ أَعْدُ؛ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى إِحْصَاءِ عُسَيْرِ الْعُسَيْرِ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فَيَا مُحْسِنًا إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ! لَا تُحَيِّبْ أَمْلِي فِيكَ وَأَنَا أَطْلُبُ؛ فَيَانْعَامِكَ الْمُتَقَدِّمِ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ.

٢٨٦ - فصل: المحمود من الأشياء المتوسط

١٢٧٥ - سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْخَلْقَ بَيْنَ طَرَفَيْ نَقِيضٍ، وَالْمَتَوَسِّطُ مِنْهُمْ يَنْدُرُ! مِنْهُمْ مَنْ يَعْصَبُ، فَيَقْتُلُ وَيَضْرِبُ، وَمِنْهُمْ: مَنْ هُوَ أَبْلَهُ بِقُوَّةِ الْجِلْمِ، لَا يُؤْتَرُ عِنْدَهُ السَّبُّ! وَمِنْهُمْ: شَرُّهُ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يَشْتَهِي. وَمِنْهُمْ: مُتْرَهَدٌ يَتَجَفَّفُ، فَيَمْنَعُ النَّفْسَ حَقَّهَا! وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَشْيَاءِ؛ الْمَحْمُودُ مِنْهَا الْمُتَوَسِّطُ: فَالْمُنْفِقُ كُلُّ مَا يَجِدُ مَبْدُرًا، وَالبَّخِيلُ يُحَيِّئُ الْمَالَ، وَيَمْنَعُ نَفْسَهُ حَظَّهَا.

١٢٧٦ - وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَالَ لَا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِلْمَصَالِحِ؛ فَإِذَا بَدَّرَ الْإِنْسَانُ فِيهِ؛ اِحْتِاجَ إِلَى بَدَلٍ وَجْهِهِ وَدِينِهِ وَمَنَّةِ الْبُخْلَاءِ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَا يَصْلُحُ، وَلِأَنَّ يُخْلَفَ الْإِنْسَانُ لِعَدُوِّهِ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى صَدِيقِهِ.

١٢٧٧ - وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْخُلُ، ثُمَّ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْبُخْلِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِالْبُخْلَاءِ الْأَمْرُ إِلَى عِشْقِ عَيْنِ الْمَالِ؛ فَرُبَّمَا مَاتَ أَحَدُهُمْ هَزَالًا، وَهُوَ لَا يُنْفِقُهُ، فَيَأْخُذُهُ الْغَيْرُ، وَيَنْدَمُ الْمُخْلَفُ!! وَلَقَدْ بَلَغَنِي فِي هَذَا مَا لَيْسَ فَوْقَهُ مَزِيدٌ، ذَكَرْتُهُ لِتَعْتَبِيرِهِ بِهِ:

١٢٧٨ - فَحَدَّثَنِي شَيْخُنَا أَبُو الْفَضْلِ بْنُ نَاصِرٍ^(٢)، عَنْ شَيْخِهِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ

(١) في الأصل: العبادة، وهو تصحيف.

(٢) محمد بن ناصر إسلامي البغدادي (٤٦٧ - ٥٥٠): الإمام المحدث الحافظ، أول شيخ لابن الجوزي ربي يتيماً في كفالة جده لأمه الفقيه أبي حكيم الخبري، وكان كثير الذكر، سريع الدمعة.

الصُّورِي^(١)؛ قَالَ: كَانَ بِصُورٍ تَاجِرٌ فِي غُرْفَةٍ لَهُ، يَأْخُذُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ الْبَقَالِ رَغِيفَيْنِ وَجَوْزَةً، فَيَدْخُلُ إِلَى غُرْفَتِهِ وَفَتَ الْمَغْرِبِ، فَيُضْرِمُ النَّارَ فِي الْجَوْزَةِ، فَتُضِيءُ بِمِقْدَارِ مَا يَنْزِعُ تَوْبَهُ، وَفِي زَمَانِ إِحْرَاقِ الْقَشْرِ تَكُونُ قَدِ اسْتَوَتْ^(٢)، فَيَمْسَحُ بِهَا الرَّغِيفَيْنِ وَيَأْكُلُهُمَا. فَبَقِيَ عَلَى هَذَا مُدَّةً، فَمَاتَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مَلِكٌ صُورَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا!!

١٢٧٩ - وَرَأَيْتُ أَنَا رَجُلًا مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ قَدْ مَرَضَ، فَاسْتَلْقَى عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ، لَيْسَ لَهُ مَنْ يَخْدُمُهُ، وَلَا [مِنْ] ^(٣) يُرَافِقُهُ، وَهُوَ مُضِرٌّ^(٤)، فَلَمَّا مَاتَ؛ وَجَدُوا بَيْنَ كُتُبِهِ خَمْسَ مِئَةِ دِينَارٍ!!

١٢٨٠ - وَحَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ الرَّانَدِسِيُّ؛ قَالَ: مَرِضَ رَجُلٌ عِنْدَنَا، فَبَعَثَ إِلَيَّ، فَحَضَرْتُ، فَقَالَ: قَدْ خَتَمَ الْقَاضِي عَلَى مَالِي. فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ قُمْتُ وَفَتَحْتُ الْخَتَمَ، وَأَعْطَيْتُكَ الثُّلثَ تُفَرِّقُهُ، وَتَعْمَلُ بِهِ مَا تَشَاءُ. فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ؛ مَا أُرِيدُ أَنْ أُفَرِّقُهُ، بَلْ أُرِيدُ مَالِي يَكُونُ عِنْدِي. فَقُلْتُ: مَا يُعْطُونَكَ، بَلْ ^(٥) أَنَا أَخَذُ لَكَ الثُّلثَ كَيْ تَكُونَ حُرًّا فِيهِ. فَقَالَ: لَا أُرِيدُهُ. فَمَاتَ، وَأَخَذَ مَالَهُ!!

١٢٨١ - قَالَ: وَجَاءَ رَجُلٌ، فَحَدَّثَنِي بِعَجِيبَةٍ؛ قَالَ: مَرِضْتُ حَمَاتِي، فَقَالَتْ لِي: أُرِيدُ أَنْ تَشْتَرِيَ لِي خَبِيبًا^(٦)، فَاشْتَرَيْتُ لَهَا، وَكَانَتْ مُلْقَاةً فِي صُفَّةٍ^(٧)، وَنَحْنُ فِي صُفَّةٍ أُخْرَى، فَجَاءَنِي وَلَدِي الصَّغِيرُ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي! إِنَّهَا تَبْلَعُ الذَّهَبَ!! فَقُمْتُ، وَإِذَا بِهَا تَجْعَلُ الدِّينَارَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَبِيبِ فَتَبْلَعُهُ! فَأَمْسَكْتُ يَدَهَا، وَزَجَرْتُهَا عَنْ هَذَا، فَقَالَتْ: أَنَا أَخَافُ أَنْ تَتَزَوَّجَ عَلَيَّ ابْنَتِي. فَقُلْتُ: مَا أَفْعَلُ. فَقَالَتْ: احْلِفْ لِي! فَحَلَفْتُ، فَأَعْطَنِي بَاقِيَ الذَّهَبِ، ثُمَّ مَاتَتْ، فَدَفَنْتُهَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَشْهُرٍ؛ مَاتَ لَنَا طِفْلٌ، فَحَمَلْنَاهُ إِلَيْهَا، وَأَخَذْتُ مَعِيَ خِرْقَةً خَامَ، وَقُلْتُ لِلْحَفَّارِ: اجْمَعْ لِي عِظَامَ

(١) عبد المحسن بن محمد بن أحمد الصوري، أبو محمد، شاعر الشام، توفي سنة (٤١٩هـ) وله ثمانون سنة.

(٢) نضجت.

(٣) زيادة من المحقق.

(٤) مضرر: ضرير أي أعمى.

(٥) في الأصل: بلى، وهو تصحيف.

(٦) الخبيص: طعام يصنع من تمر وسمن.

(٧) صفة: موضع في الدار تكون مظلة تحجب أشعة الشمس. ويسمى في الشام: المصطبة.

تِلْكَ الْعَجُوزِ فِي الْحَرْقَةِ، فَجِئْتُ بِهَا إِلَى الْبَيْتِ، وَتَرَكْتُهَا فِي إِجَانَةٍ^(١)، وَصَبَّتُ عَلَيْهَا الْمَاءَ، وَحَرَكْتُهَا، فَأَخْرَجْتُ ثَمَانِينَ دِينَارًا أَوْ نَحْوَهَا، كَانَتْ قَدِ ابْتَلَعَتْهَا^(٢)!!

١٢٨٢ - وَحَكَى لِي صَدِيقٌ لَنَا: أَنَّ رَجُلًا مَاتَ، وَدُفِنَ فِي الدَّارِ، ثُمَّ نُبِشَ بَعْدَ مُدَّةٍ لِيُخْرَجَ، فَوَجَدَ تَحْتَ رَأْسِهِ لَبَنَةً مُقَيَّرَةً^(٣)، فَسُئِلَ أَهْلُهُ عَنْهَا؟ فَقَالُوا: هُوَ قَيَّرَ هَذِهِ اللَّبَنَةَ، وَأَوْصَى أَنْ تُتْرَكَ تَحْتَ رَأْسِهِ فِي قَبْرِهِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّبْنَ يَبْلَى سَرِيعًا، وَهَذِهِ لِمَوْضِعِ الْقَارِ لَا تَبْلَى. فَأَخَذُوهَا، فَوَجَدُوهَا رَزِينَةً^(٤)، فَكَسَرُوهَا، فَوَجَدُوا فِيهَا تِسْعَ مِئَةِ دِينَارٍ، فَتَوَلَّاهَا أَصْحَابُ التَّرِكَاتِ!!

١٢٨٣ - وَبَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَكْنُسُ الْمَسَاجِدَ، وَيَجْمَعُ تُرَابَهَا، ثُمَّ ضَرَبَهُ لَبِنًا، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا لِأَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: هَذَا تُرَابُ مُبَارَكٍ، وَأُرِيدُ أَنْ يَجْعَلُوهُ عَلَيَّ لِحْدِي. فَلَمَّا مَاتَ؛ جُعِلَ عَلَيَّ لِحْدِهِ، فَفَضَلَ مِنْهُ لِبْنَاتٌ، فَرَمَوْهَا فِي الْبَيْتِ، فَجَاءَ الْمَطَرُ، فَفَسَّخَتِ اللَّبْنَاتُ؛ فَإِذَا فِيهَا دَنَائِيرٌ، فَمَضَوْا، وَكَشَفُوا اللَّبْنَ عَنِ لِحْدِهِ، وَكُلُّهُ مَمْلُوءٌ دَنَائِيرًا!!

١٢٨٤ - وَلَقَدْ مَاتَ بَعْضُ أَصْدِقَائِنَا، وَكُنْتُ أَعْلَمُ [أَنَّ] لَهُ مَالًا كَثِيرًا، وَطَالَ مَرَضُهُ، فَمَا أَطْلَعَ أَهْلَهُ عَلَيَّ شَيْءٍ، وَلَا أَكَادُ أَشْكُ أَنَّهُ مِنْ شُحِّهِ وَحِرْصِهِ عَلَيَّ الْحَيَاةِ وَرَجَائِهِ أَنْ يَبْقَى لَمْ يُعْلِمْهُمْ بِمَدْفُونِهِ؛ خَوْفًا أَنْ يُؤْخَذَ، فَيَحْيَا هُوَ، وَقَدْ أَخَذَ الْمَالُ، وَمَا يَكُونُ بَعْدَ هَذَا الْخِزْيِ شَيْءٌ!!

١٢٨٥ - وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ حَالَةِ شَاهِدَهَا مِنْ هَذَا الْفَنِّ؛ قَالَ: كَانَ فُلَانٌ لَهُ وَلَدَانِ ذَكَرَانِ وَبِنْتُ، وَلَهُ أَلْفُ دِينَارٍ مَدْفُونَةٌ، فَمَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، فَأَحْتَوَشَتْهُ^(٥) أَهْلُهُ، فَقَالَ لِأَحَدِ ابْنَيْهِ: لَا تَبْرَحْ مِنْ عِنْدِي! فَلَمَّا خَلَا بِهِ؛ قَالَ لَهُ: إِنَّ أَحَاكَ مَشْعُورٌ بِاللَّعِبِ بِالطُّيُورِ، وَإِنَّ أَحْتِكَ لَهَا زَوْجٌ تُرْكِيٌّ، وَمَتَى وَصَلَ مِنْ مَالِي

(١) إجانة: وعاء يستعمل لغسل الثياب.

(٢) هذه القصة تذكر من باب الطرائف لا من باب الحقائق.

(٣) مقيرة: مطلية بالقار وهو الزفت.

(٤) رزينة: ثقيلة.

(٥) احتوشته أهله: اجتمعوا حوله.

إِلَيْهِمَا شَيْءٌ؛ أَنْفَقُوهُ فِي اللَّعِبِ، وَأَنْتَ عَلَى سِيرَتِي وَأَخْلَاقِي، وَلِي فِي الْمَوْضِعِ
الْفُلَانِيُّ أَلْفٌ دِينَارٍ؛ فَإِذَا أَنَا مُتٌ؛ فَخُذْهَا وَحَدِّكَ. فَأَشْتَدُّ بِالرَّجُلِ الْمَرَضِ، فَمَضَى
الْوَلَدُ، فَأَخَذَ الْمَالَ، فَعُوْفِي الْأَبُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ الْوَلَدَ أَنْ يَرُدَّ الْمَالَ إِلَيْهِ، فَلَا يَفْعَلُ،
فَمَرَضَ الْوَلَدُ وَأَشْفَى^(١)، فَجَعَلَ الْأَبُ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: وَيْحَكَ! حَصَصْتُكَ بِالْمَالِ
دُونَهُمْ، فَتَمُوتُ، فَيَذْهَبُ الْمَالُ! وَيْحَكَ! لَا تَفْعَلْ! فَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى أَخْبَرَهُ بِمَكَانِهِ،
فَأَخَذَهُ، ثُمَّ عُوْفِي الْوَلَدُ، وَمَضَتْ مَدَّةٌ، فَمَرَضَ الْأَبُ، فَأَجْتَهَدَ الْوَلَدُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِمَكَانِ
الْمَالِ وَيَبَالِغَ، فَلَمْ يُخْبِرْهُ، وَمَاتَ، وَضَاعَ الْمَالُ. فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْدَمَ هَوْلًا الْعُقُولَ
وَالْفُهُومَ! ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢٨٧ - فصل: إذا أردت أن تصادق أحداً فاختره

١٢٨٦ - كَانَ لَنَا أَصْدِقَاءُ وَإِخْوَانٌ أَعْتَدُ^(٢) بِهِمْ، فَرَأَيْتُ مِنْهُمْ مِنَ الْجَفَاءِ وَتَرَكَ
شُرُوطَ الصَّدَاقَةِ وَالْأُخُوَّةَ عَجَائِبَ، فَأَخَذْتُ أَعْتَبُ، ثُمَّ انْتَبَهْتُ لِنَفْسِي، فَقُلْتُ: وَمَا
يَنْفَعُ الْعِتَابُ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ صَلَحُوا؛ فَلِلْعِتَابِ لَا لِلصَّفَاءِ؟! فَهَمَمْتُ بِمُقَاطَعَتِهِمْ! ثُمَّ
تَفَكَّرْتُ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ بَيْنَ مَعَارِفٍ وَأَصْدِقَاءٍ فِي الظَّاهِرِ، وَإِخْوَةٍ مُبَاطِنِينَ، فَقُلْتُ: لَا
تَصْلُحُ مُقَاطَعَتُهُمْ، إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَنْقُلَهُمْ مِنْ دِيْوَانِ الْأُخُوَّةِ إِلَى دِيْوَانِ الصَّدَاقَةِ
الظَّاهِرَةِ؛ فَإِنْ لَمْ يَصْلُحُوا لَهَا؛ نَقَلْتَهُمْ إِلَى جُمْلَةِ الْمَعَارِفِ، وَعَامَلْتَهُمْ مُعَامَلَةَ
الْمَعَارِفِ، وَمِنَ الْعَلَطِ أَنْ تُعَاتِبَهُمْ. فَقَدْ قَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ^(٣): بِئْسَ الْأَخُ أَخٌ تَحْتَاجُ
أَنْ تَقُولَ لَهُ: اذْكُرْنِي فِي دُعَائِكَ.

١٢٨٧ - وَجُمُهُورُ النَّاسِ الْيَوْمَ مَعَارِفٌ، وَيَنْدُرُ فِيهِمْ صَدِيقٌ فِي الظَّاهِرِ، فَأَمَّا
الْأُخُوَّةُ وَالْمُصَافَاةُ؛ فَذَلِكَ شَيْءٌ نُسِخَ؛ فَلَا يُطْمَعُ فِيهِ، وَمَا أَرَى الْإِنْسَانَ تَصْفُو لَهُ
أُخُوَّةً مِنَ النَّسَبِ وَلَا وَلَدُهُ وَلَا زَوْجَتُهُ؛ فَدَعِ الطَّمَعُ فِي الصَّفَا، وَخُذْ عَنِ الْكُلِّ جَانِبًا،
وَعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْغُرَبَاءِ! وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْخَدِعَ بِمَنْ يُظْهَرُ لَكَ الْوُدُّ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الزَّمَانِ يَبِينُ

(١) أشفى: أشرف على الموت.

(٢) أعتد بهم: أعتز بصداقتهم.

(٣) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا الواعظ. من كبار المشايخ، له كلام جيد،

ومواعظ مشهورة، توفي سنة (٢٥٨هـ).

لَكَ الْحَالُ فِيمَا أَظْهَرَهُ، وَرَبَّمَا أَظْهَرَ لَكَ ذَلِكَ لِسَبَبٍ يَنَالُهُ مِنْكَ!!

١٢٨٨ - وَقَدْ قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُصَادِقَ صَدِيقًا؛ فَأَغْضِبْهُ؛

فَإِنْ رَأَيْتَهُ كَمَا يَنْبَغِي؛ فَصَادِقُهُ.

وهذا^(١) اليومُ مُحَاظَرَةٌ؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَغْضَبْتَ أَحَدًا؛ صَارَ عَدُوًّا فِي الْحَالِ.

وَالسَّبَبُ فِي نَسْخِ حُكْمِ الصَّفَا: أَنَّ السَّلَفَ كَانَتْ هِمَّتُهُمُ الْآخِرَةَ وَحَدَهَا، فَصَفَتْ

نِيَّتَهُمْ فِي الْأُخُوَّةِ وَالْمُحَاظَلَةِ، فَكَانَتْ دِينًا لَا دُنْيَا. وَالْآنَ؛ فَقَدْ اسْتَوْلَى حُبُّ الدُّنْيَا

عَلَى الْقُلُوبِ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ مُتَمَلِّقًا فِي بَابِ الدِّينِ؛ فَأَخْبِرْهُ^(٢) تَقْلَهُ^(٣).

٢٨٨ - فصل: العجب لمطلق يؤثر القيد ومستريح يؤثر التعب

١٢٨٩ - رَأَيْتُ الْمُعَافَى لَا يَعْرِفُ قَدْرَ الْعَافِيَةِ إِلَّا فِي الْمَرَضِ، كَمَا لَا يَعْرِفُ

شُكْرَ الْإِطْلَاقِ إِلَّا فِي الْحَبْسِ.

١٢٩٠ - وَتَأَمَّلْتُ عَلَى الْأَدَمِيِّ حَالَةَ عَجِيبَةٍ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ امْرَأَةٌ لَا بَأْسَ

بِهَا؛ إِلَّا أَنْ قَلْبُهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَحَبَّتِهَا تَعَلُّقًا يَلْتَذُّ بِهِ، وَلِذَلِكَ سَبَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ غَيْرَ غَايَةٍ فِي الْحُسْنِ.

وَالثَّانِي: أَنْ كُلَّ مَمْلُوكٍ مَكْرُوهٌ، وَالنَّفْسُ تَطْلُبُ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ.

فَتَرَاهُ يَضِجُ وَيَسْتَهِي شَيْئًا يُحِبُّهُ، أَوْ امْرَأَةً يَعَشُقُهَا، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُ فَيْدًا

وَتَيْقًا؛ يَمْنَعُ الْقَلْبَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، أَوْ فِي أَيِّ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيَخْبِطُهُ

فِي تَصْرِيفِ الدُّنْيَا، فَيَبْقَى ذَلِكَ الْعَاشِقُ أَسِيرَ الْمَعْشُوقِ، هَمُّهُ كُلُّهُ مَعَهُ. فَالْعَجَبُ

لِمُطْلَقِ يُؤَثِّرُ الْقَيْدَ، وَمُسْتَرِيحِ يُؤَثِّرُ التَّعَبَ!!

١٢٩١ - فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ تُحْتَاجُ أَنْ تُحَفَظَ؛ فَالْوَيْلُ لَهُ، لَا قَرَارَ لَهُ، وَلَا

سُكُونًا. وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمُتَبَرِّجَاتِ اللَّوَاتِي لَا يُؤْمَنُ فَسَادُهُنَّ؛ فَذَلِكَ هَلَاكُهُ بِمَرَّةٍ؛ فَلَا

هُوَ إِنْ نَامَ يَلْتَذُّ بِنَوْمِهِ، وَلَا إِنْ خَرَجَ مِنَ الدَّارِ يَأْمَنُ مِنْ مِحْنَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ تُرِيدُ نَفَقَةً

(٢) اعرفه واختبره.

(١) أي: الإغصاب.

(٣) تقله: تجفوه وتبتعد عنه.

وَاسِعَةً وَلَيْسَ لَهُ؛ فَكَمْ يَدْخُلُ مُدْخَلَ سَوْءٍ لِأَجْلِهَا. وَإِنْ كَانَتْ تُؤْتِرُ الْجَمَاعَ، وَقَدْ
عَلَتْ سِنُّهُ؛ فَذَلِكَ الْهَلَاكُ الْعَظِيمُ. وَإِنْ كَانَتْ تُبْغِضُهُ؛ فَمَا بَقِيَتْ مِنْ أَسْبَابِ تَلْفِهِ بَقِيَّةٌ،
فَيَكُونُ هَذَا سَاعِيًّا فِي تَلْفِ نَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

نَحِبُّ الْقُدُودَ وَنَهْوِي الْخُدُودَ وَنَعْلَمُ أَنَّا نَحِبُّ الْمَنُونَا
وَهَذَا عَلَى الْحَقِيقَةِ كَعَايِدِ صَنَمٍ.

١٢٩٢ - فَلْيَتَّقِ اللَّهَ مَنْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ لَا بَأْسَ بِهَا، وَلِيُعْرِضَ عَن حَدِيثِ النَّفْسِ
وَمُنَاهَا؛ فَمَا لَهُ مُنْتَهَى. وَلَوْ حَصَلَ لَهُ غَرَضُهُ كَمَا يُرِيدُ؛ وَقَعَ الْمَلَلُ، وَطَلَبَ ثَالِثَةً، ثُمَّ
يَقَعُ الْمَلَلُ، وَيَطْلُبُ رَابِعَةً. وَمَا لِهَذَا آخِرٌ^(١)، إِنَّمَا يُفِيدُهُ ذَلِكَ فِي الْعَاجِلِ، تَعَلَّقَ قَلْبِهِ،
وَأَسْرَلَبَهُ، فَيَبْقَى كَالْمَبْهُوتِ^(٢)، فَكُرَّهُ كُلَّهُ فِي تَحْصِيلِ مَا يُرِيدُ مَحْبُوبَهُ؛ فَإِنْ جَرَتْ
فُرْقَةٌ أَوْ آفَةٌ؛ فَتِلْكَ الْحَسْرَاتُ الدَّائِمَةُ إِنْ بَقِيَ، أَوْ التَّلَفُ عَاجِلًا. وَأَيُّنَ الْمُسْتَحْسِنُ
الْمَصُونُ الدِّينِ، الْقَنُوعُ لِمَنْ يُحِبُّهُ؟! هَذَا أَقَلُّ مِنَ الْكِبْرِيَّتِ الْأَحْمَرِ.

فَلْيَنْظُرْ فِي تَحْصِيلِ مَا يَجْمَعُ مُعْظَمَ الْهَمِّ، وَلَا يَلْتَفِتْ إِلَى سَوَادِ الْهَوَى وَعَايَةِ
الْمَنَى؛ يَسْلَمَ.

٢٨٩ - فصل: إذا تم علم الإنسان لم يدلَّ بعمله

١٢٩٣ - إِذَا تَمَّ عِلْمُ الْإِنْسَانِ؛ لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، وَإِنَّمَا يَرَى إِنْعَامَ الْمُوقِفِ
لِذَلِكَ الْعَمَلِ، الَّذِي يَمْنَعُ الْعَاقِلَ أَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ عَمَلًا، أَوْ يُعْجَبَ بِهِ، وَذَلِكَ
بِأَشْيَاءٍ مِنْهَا: أَنَّهُ وَقَّفَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ: ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَرَبَّنَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾
[الحجرات: ٧]. وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا قِيسَ بِالنِّعَمِ؛ لَمْ يَفِ بِمِعْشَارِ عُشْرِهَا. وَمِنْهَا: أَنَّهُ
إِذَا لُوْحِطَتْ عَظْمَةُ الْمَخْدُومِ؛ احْتَقَرَ كُلَّ عَمَلٍ وَتَعَبُدٍ. هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنْ شَائِبَةِ،
وَخَلَصَ مِنْ عَقْلَةٍ.

فَأَمَّا وَالْعَمَلَاتُ تُحِيطُ بِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَغْلِبَ الْحَذَرُ مِنْ رَدِّهِ، وَيَخَافَ الْعِتَابَ عَلَى
التَّقْصِيرِ فِيهِ، فَيَسْتَعْلَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ.

(١) في الأصل: أخير، وهو تصحيف. (٢) المبهوت: المدهوش.

١٢٩٤ - وَتَأْمَلْ عَلَى الْفُطْنَاءِ أَحْوَالَهُمْ فِي ذَلِكَ: فَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَا يَفْتُرُونَ، قَالُوا: مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. وَالْحَلِيلُ ﷺ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وَمَا أَدَلَّ^(١) بِتَصْبِرِهِ عَلَى النَّارِ، وَتَسْلِيمِهِ الْوَلَدَ إِلَى الذَّبْحِ.

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنَجِّهِ عَمَلُهُ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٢). وَأَبُو بَكْرٍ ﷺ يَقُولُ: وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! وَعُمَرُ ﷺ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي طَلَاعَ الْأَرْضِ^(٣)؛ لَأُفْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ مَا الْحَبْرُ. وَابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ: لَيْتَنِي إِذَا مِتُّ لَا أُبْعَثُ. وَعَائِشَةُ ﷺ تَقُولُ: لَيْتَنِي كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا. وَهَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ؛ فَرَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ.

١٢٩٥ - وَقَدْ رُوِيَ عَنْ قَوْمٍ مِنْ صُلَحَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا يَدُلُّ عَلَى قَلَّةِ الْأَفْهَامِ لِمَا شَرَحْتُهُ؛ لِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى أَعْمَالِهِمْ، فَأَدَلُّوا بِهَا^(٤).

١٢٩٦ - فَمِنْهُ حَدِيثُ الْعَابِدِ الَّذِي تَعَبَّدَ خَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ فِي جَزِيرَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمانَةً، وَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُمِيتَهُ فِي سُجُودِهِ؛ فَإِذَا حُسِرَ؛ قِيلَ لَهُ: أَدْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي! قَالَ: بَلْ بَعَمَلِي. فَيُوزَنُ جَمِيعُ عَمَلِهِ بِنِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَلَا يَبْقَى، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! بِرَحْمَتِكَ^(٥).

١٢٩٧ - وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْعَارِ الَّذِينَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ: فَإِنَّ أَحَدَهُمْ: تَوَسَّلَ بِعَمَلٍ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى الزَّنا، ثُمَّ خَافَ الْعُقُوبَةَ، فَتَرَكَهُ؛ فَلَيْتَ شِعْرِي، بِمَاذَا يُدِلُّ مَنْ خَافَ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَى شَيْءٍ، فَتَرَكَهُ تَخَوُّفَ

(١) أدل: مَنْ.

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة ﷺ. قلت: كل طاعات ابن آدم هي شكر على نعم الله التي لا تحصى، وهي وإن بلغت ما بلغت لا تفي بحق شكر نعمة واحدة من نعم الله تعالى كنعمة البصر مثلاً، أما الجزاء على الطاعة إن في الدنيا أو في الآخرة فمَحْضُ فضل من الله سبحانه وتعالى.

(٣) طلاع الأرض: ملؤها.

(٤) متوا بها.

(٥) رواه الحاكم (٢٥٠/٤) من طريق سليمان بن هرم قال الذهبي: غير معتمد (ضعيف).

العُقُوبَةُ^(١)؟! إِنَّمَا لَوْ كَانَ مُبَاحًا فَتَرَكَهُ؛ كَانَ فِيهِ مَا فِيهِ. وَلَوْ فَهِمَ؛ لَشَغَلَهُ حَجَلُ الْهِمَّةِ عَنِ الْإِذْلَالِ؛ كَمَا قَالَ يُوسُفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي» [يوسف: ٥٣]^(٢)!! وَالْآخَرُ: تَرَكَ صَبِيَانَهُ يَتَضَاعُونَ^(٣) إِلَى الْفَجْرِ لَيْسَقِي أَبِيهِ اللَّبَنَ. وَفِي هَذَا الْبَرِّ أَدَى لِلْأَطْفَالِ، وَلَكِنَّ الْفَهْمَ عَزِيزٌ^(٤). وَكَأَنَّهُمْ لَمَّا أَحْسَنُوا فِيمَا ظَنُّوا؛ قَالَ لِسَانَ الْحَالِ: أَعْطَوْهُمْ مَا طَلَبُوا؛ فَإِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ أُجْرَةَ مَا عَمَلُوا^(٥).

١٢٩٨ - وَلَوْلَا عِزَّةُ الْفَهْمِ؛ مَا تَكَبَّرَ مُتَكَبِّرٌ عَلَى جِنْسِهِ، وَلَكَانَ كُلُّ كَامِلٍ خَائِفًا مُحْتَقِرًا لِعَمَلِهِ، حَدِرًا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ. وَفَهُمْ هَذَا الْمَشْرُوحِ يَنْكَسُ رَأْسَ الْكِبَرِ، وَيُوجِبُ مُسَاكَنَةَ الذُّلِّ؛ فَتَأَمَّلْهُ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ عَظِيمٌ.

٢٩٠ - فصل: الخوف بعد التوبة

١٢٩٩ - يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَإِنْ تَابَ مِنْهَا، وَبَكَى عَلَيْهَا. وَإِنِّي رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدْ سَكَنُوا إِلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ، وَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا عَلَى ذَلِكَ! وَهَذَا أَمْرٌ غَائِبٌ!! ثُمَّ لَوْ غُفِرَتْ؛ بَقِيَ الْحَجَلُ مِنْ فِعْلِهَا.

١٣٠٠ - وَيُؤَيِّدُ الْخَوْفَ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَنَّهُ فِي (الصَّحَاحِ): أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا! فَيَقُولُ: ذَنْبِي، وَإِلَى نُوحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: ذَنْبِي، وَإِلَى إِبْرَاهِيمَ.. وَإِلَى مُوسَى.. وَإِلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ. فَهَوْلَاءِ إِذَا اعْتَبَرَتْ ذُنُوبُهُمْ؛ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهَا ذُنُوبًا حَقِيقَةً، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ؛ فَقَدْ تَابُوا مِنْهَا، وَاعْتَدَرُوا، وَهُمْ بَعْدَ عَلَى خَوْفٍ مِنْهَا.

(١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ» وَفِيهِ: «.. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٩٠)، وَمُسْلِمٌ (٣١).

(٢) الرَّاجِحُ أَنَّ هَذَا كَلَامَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ سِيَاقُ الْآيَةِ.

(٣) يَتَضَاعُونَ: يَتَصَايَحُونَ.

(٤) سَيَسُوقُ الْمُؤَلِّفُ هَذَا الْحَدِيثَ وَفِيهِ مَدْحٌ لِفِعْلِ هَوْلَاءِ فِي الْفَصْلِ (٣٨٣) مِنَ الْمَلْحَقِ.

(٥) وَهُوَ حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الْمَشْهُورِ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٤٠)، وَمُسْلِمٌ (١٩٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٣٠١ - ثُمَّ إِنَّ الْخَجَلَ بَعْدَ قَبُولِ التَّوْبَةِ لَا يَرْتَعِعُ . وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاسْوَأَتَاهُ مِنْكَ ، وَإِنْ عَفَوْتَ ! فَأَفَّ وَاللَّهِ لِمُخْتَارِ الذُّنُوبِ ، وَمُؤَثِّرِ لَذَّةِ لِحْظَةٍ تَبْقَى حَسْرَةً ، لَا تَزُولُ عَنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ، وَإِنْ عُفِرَ لَهُ .

١٣٠٢ - فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ كُلِّ مَا يُوجِبُ حَجَلًا . وَهَذَا أَمْرٌ قَلَّ أَنْ يَنْظَرَ فِيهِ تَائِبٌ أَوْ زَاهِدٌ ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْعَفْوَ قَدْ غَمَرَ الذَّنْبَ بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ ! وَمَا ذَكَرْتُهُ يُوجِبُ دَوَامَ الْحَذَرِ وَالْخَجَلِ .

٢٩١ - فصل: نعوذ بالله من سوء الفهم

١٣٠٣ - نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ ، وَخُصُوصًا مِنَ الْمُتَسَمِّنِ بِالْعِلْمِ . رَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»^(١) : أَنَّهُ تَنَارَعَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ^(٢) وَحِبَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ^(٣) ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِحِبَّانَ : قَدْ عَلِمْتَ مَا الَّذِي جَرَأَ^(٤) صَاحِبِكَ - يَعْنِي : عَلِيًّا - قَالَ : مَا هُوَ؟ قَالَ : قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : «لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(٥) . وَهَذَا سُوءُ فَهْمٍ مِنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حِينَ ظَنَّ أَنَّ عَلِيًّا قَاتَلَ وَقُتِلَ اعْتِمَادًا عَلَى أَنَّهُ قَدْ عُفِرَ لَهُ !!

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ : لِتَكُنْ أَعْمَالُكُمْ الْمُتَقَدِّمَةُ مَا كَانَتْ ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ . فَأَمَّا عُفْرَانُ مَا سَيَأْتِي ؛ فَلَا يَتَّصِفُ بِهِ ذَلِكَ . أُرَاهُ لَوْ وَقَعَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ - وَحَاشَاهُمْ - الشَّرْكَ - إِذْ لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ - ؛ أَمَا كَانُوا يُؤَاخِذُونَ بِهِ؟! فَكَذَلِكَ الْمَعَاصِي .

(١) (١٠٥/١) .

(٢) عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، من أولاد الصحابة، ولد في حياة النبي ﷺ، قرأ القرآن ومهر فيه، وعرض على عثمان وعلي وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان ثبتاً، توفي سنة (٨٠هـ). وقد وقع في الأصل: (أبو عبد الله) والتصويب من المسند.

(٣) حبان بن عطية السلمي. (٤) في الأصل (حدا) وهو تصحيف.

(٥) رواه البخاري (٣٠٨١)، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وانظر: الفتح (٣٠٥/٧) فيه توجيه لمعنى الحديث.

ثُمَّ لَوْ قُلْنَا: إِنَّهُ يَتَّصَمَنُ عُفْرَانَ مَا سَيَّأْتِي؛ فَالْمَعْنَى أَنْ مَا لَكُمْ إِلَى الْعُفْرَانِ.
ثُمَّ دَعْنَا مِنْ مَعْنَى الْحَدِيثِ؛ كَيْفَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُظَنَّ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ فَعَلَ مَا لَا يَجُوزُ اعْتِمَادًا عَلَى أَنَّهُ سَيُغْفَرُ لَهُ؟! حُوشِي مِنْ هَذَا^(١)، وَإِنَّمَا
قَاتَلَ بِالِدَّلِيلِ الْمُضْطَرَّرَ لَهُ إِلَى الْقِتَالِ، فَكَانَ عَلَى الْحَقِّ. وَلَا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ أَنْ
عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُقَاتِلْ أَحَدًا إِلَّا وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ؛ كَيْفَ؛ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«اللَّهُمَّ! أَدِرْ مَعَهُ الْحَقَّ كَيْفَمَا دَارَ»^(٢)؟! فَقَدْ غَلِطَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ غَلَطًا قَبِيحًا، حَمَلَهُ
عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ عُمَانِيًّا.

٢٩٢ - فصل: نعوذ بالله من رياء يبطل أعمالنا

١٣٠٤ - تَأَمَّلْتُ عَلَى مُتَزَهِّدِي زَمَانِنَا أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَى النَّفَاقِ وَالرِّيَاءِ، وَهُمْ
يَدْعُونَ الْإِحْلَاصَ: مِنْهَا: أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ زَاوِيَةً، فَلَا يَزُورُونَ صَدِيقًا، وَلَا يَعُودُونَ
مَرِيضًا، وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْانْقِطَاعَ عَنِ النَّاسِ؛ أَشْتِعَالًا بِالْعِبَادَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ إِقَامَةُ
نَوَامِيسٍ؛ لِيُشَارَ إِلَيْهِمْ بِالْانْقِطَاعِ؛ إِذْ لَوْ مَشَوْا بَيْنَ النَّاسِ؛ زَالَتْ هَيْبَتُهُمْ!
وَمَا كَانَ النَّاسُ كَذَلِكَ. كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُ الْمَرِيضَ^(٣)، وَيَشْتَرِي الْحَاجَةَ
مِنَ السُّوقِ^(٤)، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَّجِرُ فِي الْبَرِّ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ يَحْفِرُ الْقُبُورَ،
وَأَبُو طَلْحَةَ^(٥) أَيْضًا، وَإِبْنُ سَيْرِينَ يَغْسِلُ الْمَوْتَى^(٦). وَمَا كَانَ عِنْدَ الْقَوْمِ إِقَامَةُ
نَامُوسٍ.

١٣٠٥ - وَأَصْحَابُنَا يَلْزِمُونَ الصَّمْتَ بَيْنَ النَّاسِ وَالتَّخَشُّعَ وَالتَّمَاوُتَ، وَهَذَا هُوَ

(١) أي: حاشاه من ذلك.

(٢) رواه الترمذي (٣٧١٤) وفي سننه المختار بن نافع منكر الحديث. (ضعيف جدًا).

(٣) رواه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير. رواه البخاري (٢٩١٦).

(٥) زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي النجاري أحد أعيان البدرين، وأحد النقباء، توفي بالمدينة سنة (٣٤هـ) وامتهانه هو وأبي عبيدة حفر القبور كان على سبيل التطوع.

(٦) عمله هذا كان تطوعًا، وأما عمله الأصلي فهو الاتجار بالطعام والزيت.

النَّفَاقُ؛ فَقَدْ كَانَ ابْنُ سَيْرِينَ يَضْحَكُ بِالنَّهَارِ، وَبَيْنَ النَّاسِ، وَيَبْكِي بِاللَّيْلِ.

١٣٠٦ - وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ مَنْ يَلْزِمُ الْمَسْجِدَ وَيُصَلِّي، تَجْتَمِعُ النَّاسُ، فَيَصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَقَدْ شَاعَ هَذَا لَهُ، فَتَقَوَّى نَفْسُهُ عَلَيْهِ بِحُبِّ الْمَحْمَدَةِ؛ وَالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ: «اجْعَلُوا هَذِهِ فِي الْبُيُوتِ»^(١).

١٣٠٧ - وَفِي أَصْحَابِنَا مَنْ يُظْهِرُ الصَّوْمَ الدَّائِمَ، وَيَتَّقَوْتُ بِقَوْلِ النَّاسِ: فَلَانَ مَا يُفْطِرُ أَضْلًا!! وَهَذَا الْأَبْلَهُ مَا يَدْرِي أَنَّهُ لِأَجْلِ النَّاسِ يَفْعَلُ ذَلِكَ، لَوْلَا هَذَا؛ كَانَ يُفْطِرُ، وَالنَّاسُ يَرُونَهُ يَوْمِينَ أَوْ ثَلَاثَةً، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ الْأَسْمُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الصَّوْمِ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمٍ إِذَا مَرِضَ؛ يَتْرُكُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَأْكُلُهُ الْأَصِحَّاءُ.

١٣٠٨ - وَرَأَيْتُ فِي زُهَادِنَا مَنْ يُصَلِّي الْفَجَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالنَّاسِ، وَيَقْرَأُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَالْمَعْنَى: قَدْ حَتَمْتُ^(٢)!! فَإِنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ هِيَ صَرِيحَةٌ فِي النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ.

١٣٠٩ - وَفِيهِمْ مَنْ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ، وَهُوَ غَنِيٌّ، وَلَا يُبَالِي أَخَذَ مِنَ الظَّلَمَةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَيَمْسِي إِلَى الْأَمْوَالِ يَسْأَلُهُمْ، وَهُوَ يَدْرِي مِنْ أَيْنَ حَصَلَتْ أَمْوَالُهُمْ.

قَالَ اللَّهُ فِي إِصْلَاحِ النِّيَّاتِ؛ فَإِنَّ جُمْهُورَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ مَرْدُودٌ. قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: وَقُولُوا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا: لَا يَتَعَنَّى^(٣)!

١٣١٠ - وَلْيَعْلَمْ الْمُرَائِي أَنَّ الَّذِي يَقْصِدُهُ يَفُوتُهُ، وَهُوَ أَلْتِفَاتُ الْقُلُوبِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ هَتَّى لَمْ يُخْلِصْ؛ حَرَمَ مَحَبَّةَ الْقُلُوبِ، وَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ، وَالْمُخْلِصُ مَحْبُوبٌ. فَلَوْ عَلِمَ الْمُرَائِي أَنَّ قُلُوبَ الَّذِينَ يُرَائِيهِمْ بِيَدِ مَنْ يَعْصِيهِ؛ لَمَا فَعَلَ.

وَكَمْ رَأَيْنَا مَنْ يَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيُظْهِرُ النُّسُكَ، لَا يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ، وَآخَرُ يَلْبَسُ جَيْدَ الثِّيَابِ، وَيَبْتَسِمُ، وَالْقُلُوبُ تُحِبُّهُ. نَسَأَلُ اللَّهَ ﷻ إِخْلَاصًا يُخْلِصُنَا، وَنَسْتَعِينُ بِهِ مِنْ رِيَاءٍ يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؛ إِنَّهُ قَادِرٌ.

(١) رواه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أي يوهم الناس أنه ختم القرآن كله في ليلة واحدة.

(٣) لا يتعنى: لا يتعب نفسه فعمله محبط.

١٣١١ - مِنَ الْجَهْلِ أَنْ يَخْفَى عَلَى الْإِنْسَانِ مُرَادُ التَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَى عَكْسِ الْأَعْرَاضِ. فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَأْتَسَّ بِأَنْعَاسِ الْأَعْرَاضِ؛ فَإِنْ دَعَا، وَسَأَلَ بُلُوغَ غَرَضٍ؛ تَعَبَّدَ اللَّهُ بِالِدُّعَاءِ؛ فَإِنْ أُعْطِيَ مُرَادَهُ؛ شَكَرَ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَلِ مُرَادَهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلِحَّ فِي الطَّلَبِ^(١)؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لِبُلُوغِ الْأَعْرَاضِ، وَلِيُقَلَّ لِنَفْسِهِ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

١٣١٢ - وَمِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ، أَنْ يَمْتَعِضَ فِي بَاطِنِهِ لِأَنْعَاسِ أَعْرَاضِهِ، وَرُبَّمَا اغْتَرَضَ فِي الْبَاطِنِ، أَوْ رُبَّمَا قَالَ: حُصُولُ غَرَضِي لَا يَضُرُّ، وَدُعَائِي لَمْ يُسْتَجَبْ^(٢)!! وَهَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِ، وَقَلَّةِ إِيمَانِهِ وَتَسْلِيمِهِ لِلْحِكْمَةِ.

١٣١٣ - وَمَنْ الَّذِي حَصَلَ لَهُ غَرَضٌ ثُمَّ لَمْ يُكَدِّرْ؟! هَذَا آدَمُ؛ طَابَ عَيْشُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَأُخْرِجَ مِنْهَا، وَنُوحٌ سَأَلَ فِي ابْنِهِ فَلَمْ يُعْطِ مُرَادَهُ، وَالْخَلِيلُ ابْتُلِيَ بِالنَّارِ، وَإِسْحَاقُ^(٣) بِالذَّبْحِ، وَيَعْقُوبُ بِفَقْدِ الْوَالِدِ، وَيُوسُفُ بِمُجَاهَدَةِ الْهَوَى، وَأَيُّوبُ بِالْبَلَاءِ، وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ بِالْفِتْنَةِ، وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى هَذَا. وَأَمَّا مَا لَقِيَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْجُوعِ وَالْأَذَى وَكَدْرِ الْعَيْشِ؛ فَمَعْلُومٌ.

١٣١٤ - فَالدُّنْيَا وُضِعَتْ لِلْبَلَاءِ. فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُوْطِنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنَ الْمُرَادِ؛ فَلُطِفَ، وَمَا لَمْ يَحْصُلْ؛ فَعَلَى أَصْلِ الْخَلْقِ وَالْجِبَلِ^(٤) لِلدُّنْيَا؛ كَمَا قِيلَ^(٥):

طُبِعَتْ عَلَى كَدْرِ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ

(١) الإلحاح في الدعاء مطلوب.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي» البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٣) هذا مخالف لما عليه جمهور أهل العلم. انظر: زاد المعاد (٧١/١ - ٧٥).

(٤) الجبل: الخلقة والسجدة.

(٥) هو للشاعر علي بن محمد التهامي، أبو الحسن، ولد باليمن، وقدم الشام ثم العراق، وامتدح صاحب بن عباد، وذهب إلى مصر، فقتل سرًا سنة (٤١٦هـ).

وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدًّا طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ

١٣١٥ - وَهَذَا هُنَا تَبَيَّنَ قُوَّةُ الْإِيمَانِ وَضَعْفُهُ. فَلَيْسَتْ عَمَلِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَدْوِيَةِ هَذَا

الْمَرَضِ التَّسْلِيمِ لِلْمَالِكِ، وَالتَّحْكِيمِ لِحُكْمَتِهِ، وَلْيُقَلِّ: قَدْ قِيلَ لِسَيِّدِ الْكُلِّ ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. ثُمَّ لَيْسَ نَفْسَهُ بِأَنَّ الْمَنْعَ لَيْسَ عَنْ بُخْلِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَصْلَحَةٍ لَا يَعْلَمُهَا، وَلِيُؤَجِّرَ الصَّابِرُ عَنْ أَعْرَاضِهِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ سَلَّمُوا وَرَضُوا، وَأَنَّ زَمَانَ الْإِبْتِلَاءِ مِقْدَارٌ يَسِيرٌ، وَالْأَعْرَاضُ مُدْخَرَةٌ تَلْقَى بَعْدَ قَلِيلٍ، وَكَأَنَّهُ بِالظُّلْمَةِ قَدْ أَنْجَلَتْ، وَبِفَجْرِ الْأَجْرِ قَدْ طَلَعَ.

وَمَتَى ارْتَقَى فَهَمُّهُ إِلَى أَنْ مَا جَرَى مُرَادُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ اقْتَضَى إِيْمَانُهُ أَنْ يُرِيدَ مَا يُرِيدُ، وَيَرْضَى بِمَا يَقْدَرُ؛ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ كَانَ خَارِجًا عَنْ حَقِيقَةِ الْعُبُودِيَّةِ فِي الْمَعْنَى. وَهَذَا أَصْلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّلَ، وَيَعْمَلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ غَرَضٍ انْعَكَسَ.

٢٩٤ - فصل: تحذير العلماء من مخالطة السلاطين

١٣١٦ - رَأَيْتُ خَلْقًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْقُصَّاصِ تَضَيَّقُوا عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، فَيَمْرَعُونَ إِلَى

مُخَالَطَةِ السَّلَاطِينِ، لِيَنَالُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّلَاطِينَ لَا يَكَادُونَ يَأْخُذُونَ الدُّنْيَا مِنْ وَجْهِهَا وَلَا يُخْرِجُونَهَا فِي حَقِّهَا.

فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ: إِذَا حَصَلَ لَهُ خَرَّاجٌ^(١) يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ إِلَى الْمَصَالِحِ؛ وَهَبَهُ لِشَاعِرٍ! وَرُبَّمَا كَانَ مَعَهُ جُنْدِيٌّ يَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهَرَتُهُ^(٢) عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ؛ فَأَعْطَاهُ عَشْرَةَ آفٍ! وَرُبَّمَا غَزَا؛ فَأَخَذَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَسَمَ عَلَى الْجَيْشِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ! هَذَا غَيْرُ مَا يَجْرِي مِنَ الظُّلْمِ فِي الْمَعَامَلَاتِ.

وَأَوَّلُ مَا يَجْرِي عَلَى ذَلِكَ الْعَالِمِ أَنَّهُ قَدْ حُرِمَ النَّفْعَ بِعِلْمِهِ. وَقَدْ رَأَى بَعْضُ الصَّالِحِينَ رَجُلًا عَالِمًا يَخْرُجُ مِنْ دَارِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ^(٣) الْبَرْمَكِيِّ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ.

(١) الخراج: ضريبة مفروضة على البلاد التي فتحت صلحاً.

(٢) مشاهرتة: الأجرة التي يستحقها كل شهر.

(٣) الوزير الكبير، أحد رجال الدهر حزمًا ورأيًا وسياسة وعقلًا، ضمه المهدي إلى ابنه الرشيد =

أَلَمْ يَرِ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يُنْكِرُ؟! وَيَتَنَاوَلُ مِنْ طَعَامِهِمِ الَّذِي لَا يَكَادُ يَحْصُلُ إِلَّا
بِظُلْمٍ؛ فَيَنْظِمَسَ قَلْبُهُ، وَيُحْرَمَ لَذَّةَ الْمُعَامَلَةِ لِلْحَقِّ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ لَا يُقَدِّرُ أَنْ يَهْتَدِيَ بِهِ^(١)
أَحَدٌ؟ بَلْ رُبَّمَا كَانَ فِعْلُهُ هَذَا سَبَبًا لِإِضْلَالِ النَّاسِ وَصَرْفِهِمْ عَنِ الْأَقْتِدَاءِ بِهِ!

فَهُوَ يُؤْذِي نَفْسَهُ، وَيُؤْذِي أَمِيرَهُ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْلَا أَنَّنِي عَلَى صَوَابٍ؛ مَا
صَحِبَنِي، وَلَأَنْكَرَ عَلَيَّ. وَيُؤْذِي الْعَوَامَّ؛ تَارَةً بِأَنْ يَرَوْا أَنَّ مَا فِيهِ الْأَمِيرُ صَوَابٌ،
[وَتَارَةً] بِأَنَّ الدُّخُولَ عَلَيْهِ وَالسُّكُوتَ عَنِ الْإِنْكَارِ جَائِزٌ، أَوْ يُحِبُّ إِلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَلَا
خَيْرَ - وَاللَّهُ - فِي سَعَةِ مِنَ الدُّنْيَا صَيِّقَتْ طَرِيقَ الْآخِرَةِ.

١٣١٧ - وَأَنَا أَفْدِي أَقْوَامًا صَابِرُوا عَطَشَ الدُّنْيَا فِي هَجِيرِ الشَّهَوَاتِ زَمَانَ الْعُمُرِ
حَتَّى رُوُوا يَوْمَ الْمَوْتِ مِنْ شَرَابِ الرِّضَا، وَبَقِيَتْ أَدْكَارُهُمْ تُرَوَى، فَتُرَوِي صَدَى^(٢)
الْقُلُوبِ، وَتَجْلُو صَدَاهَا^(٣). هَذَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ؛ يَحْتَاجُ، فَيَخْرُجُ إِلَى اللَّقَاطِ، وَلَا يَقْبَلُ
مَالَ سُلْطَانٍ. هَذَا إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ؛ يَتَعَذَّى بِالْبَقْلِ، وَيَرُدُّ عَلَى الْمُعْتَصِدِ^(٤) أَلْفَ دِينَارٍ.
هَذَا بِشْرُ الْحَافِي؛ يَشْكُو الْجُوعَ، فَيَقَالُ لَهُ: يُصْنَعُ لَكَ حِسَاءٌ مِنْ دَقِيقٍ؟ فَيَقُولُ:
أَخَافُ أَنْ يَقُولَ اللَّهُ لِي: هَذَا الدَّقِيقُ مِنْ أَيْنَ لَكَ؟!

بَقِيَتْ وَاللَّهُ أَدْكَارُ الْقَوْمِ، وَمَا كَانَ الصَّبْرُ إِلَّا عَفْوَةٌ نَوْمٍ، وَمَضَتْ لَذَاتُ
الْمُتَرَحِّصِينَ، وَبَلَبَتِ الْأَبْدَانُ، وَوَهَنَ الدِّينُ.

١٣١٨ - فَالصَّبْرُ الصَّبْرُ يَا مَنْ وَفَّقَ! وَلَا تَغْبِطَنَّ مَنْ اتَّسَعَ لَهُ أَمْرُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّكَ
إِذَا تَأَمَّلْتَ تِلْكَ السَّعَةَ؛ رَأَيْتَهَا ضَيْقًا فِي بَابِ الدِّينِ! وَلَا تُرَخِّصْ لِنَفْسِكَ فِي تَأْوِيلٍ؛
فَعُمُرُكَ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ!

وَسِوَاءُ إِذَا انْقَضَى يَوْمٌ كَسَرَى فِي سُرُورٍ وَيَوْمٌ صَابِرٍ كَسَرَهُ^(٥)

= ليربيه ويثقفه، فلما استخلف رفع قدره، وصير أولاده ملوكًا، ثم نكبهم وسجن خالدًا، فمات
في السجن سنة (١٩٠هـ) وله سبعون سنة.

(١) في الأصل: من قوله: ألم تر... إلى قوله: يهتدي بك. جاءت بصيغة المخاطب.

(٢) صدى: عطش.

(٣) صدأها: ما يترسب عليها من آثار المعاصي فيحجبها عن الانتفاع بالمواعظ.

(٤) في الأصل: (المعتصم)، والتصويب من سير أعلام النبلاء (١٣/٣٦٠).

(٥) كسره: كسرة خبز.

١٣١٩ - وَمَتَى ضَجَّتِ النَّفْسُ لِقِلَّةِ صَبْرٍ؛ فَأَنْلُ عَلَيْهَا أَخْبَارَ الرُّهَادِ؛ فَإِنَّهَا تَرَعُوي^(١)، وَتَسْتَحِي، وَتَنْكَسِرُ، إِنْ كَانَتْ لَهَا هَمَّةٌ، أَوْ فِيهَا يَقْظَةٌ، وَمَثَلُ لَهَا بَيْنَ تَرَحُّصِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ، وَقَبُولِهِ مَالَ ابْنِ أَبِي دَوَادٍ، وَصَبْرِ أَحْمَدَ، وَكَمْ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، وَالذِّكْرَيْنِ، وَأَنْظُرْ مَا يُرَوَى عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَمَا يُذَكِّرَانِ بِهِ... وَسَيَنْدُمُ ابْنُ الْمَدِينِيِّ إِذَا قَالَ أَحْمَدُ: سَلِمَ [لِي] دِينِي.

٢٩٥ - فصل: جمهور الناس خرج من ربة العبودية

١٣٢٠ - تَأَمَّلْتُ أَحْوَالَ النَّاسِ، فَرَأَيْتُ جُمْهُورَهُمْ مُنْسَلًا^(٢) مِنْ رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ؛ فَإِنْ تَعَبَدُوا؛ فَعَادَةٌ؛ أَوْ فِيمَا لَا يُنَافِي أَعْرَاضَهُمْ مُنَافَاةً تُؤْذِي الْقُلُوبَ:

١٣٢١ - فَأَكْثَرَ السَّلَاطِينِ يُحْصِلُونَ الْأَمْوَالَ مِنْ وُجُوهِ رَدِيَّةٍ^(٣)، وَيُنْفِقُونَهَا فِي وُجُوهِ لَا تَصْلُحُ، وَكَأَنَّهُمْ قَدْ تَمَلَّكُوهَا، وَلَيْسَتْ مَالَ اللَّهِ! الَّذِي إِذَا غَزَا أَحَدُهُمْ [بِاسْمِهِ]، فَعَنِمَ الْأَمْوَالَ؛ أَصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، وَأَعْطَاهَا أَصْحَابَهُ، كَيْفَ اشْتَهَى!!

١٣٢٢ - وَالْعُلَمَاءُ لِقُوَّةِ فَقْرِهِمْ، وَشِدَّةِ شَرِّهِمْ، يُوَافِقُونَ الْأَمْرَاءَ، وَيَنْخَرِطُونَ فِي سَبْلِكِهِمْ، وَالتُّجَّارَ عَلَى الْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ، وَالْعَوَامَّ فِي الْمَعَاصِي، وَالْإِهْمَالِ لِجَانِبِ الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنْ فَاتَ بَعْضُ أَعْرَاضِهِمْ؛ فَرَبَّمَا قَالُوا: مَا نُرِيدُ نُصَلِّي! لَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، وَتَرَكَوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ.

١٣٢٣ - فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْزُهُ تَأْخِيرُ الْعُقُوبَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقْطَعُ بِالْعَفْوِ، وَأَكْثَرُهُمْ مُتْرَلِّزُ الْإِيمَانِ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُمَيِّنَا مُسْلِمِينَ.

٢٩٦ - فصل: عاقبة الصبر الجميل جميلة

١٣٢٤ - مِنَ الْعَجِيبِ سَلَامَةُ دِينِ ذِي الْعِيَالِ، إِذَا ضَاقَ بِهِ الْكَسْبُ؛ فَمَا مَثَلُهُ إِلَّا كَمَثَلِ الْمَاءِ؛ إِذَا ضُرِبَ فِي وَجْهِهِ سِكْرٌ؛ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ بَاطِنًا، وَيُبَالِغُ حَتَّى يَفْتَحَ

(٢) منسلاً: خارجاً.

(١) ترعوي: تنزجر، وتتعظ.

(٣) محرمة.

فَتْحَةً؛ فَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْعِيَالِ؛ إِذَا ضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ؛ لَا يَزَالُ يَحْتَالُ؛ فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَلَالِ؛ تَرَحَّصَ فِي تَنَاوُلِ الشُّبُهَاتِ؛ فَإِنْ ضَعُفَ دِينُهُ؛ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْحَرَامِ. فَالْمُؤْمِنُ إِذَا عَلِمَ ضَعْفَهُ عَنِ الْكَسْبِ؛ اجْتَهَدَ فِي التَّعَفُّفِ عَنِ النَّكَاحِ، وَتَقْلِيلِ النَّفَقَةِ إِذَا حَصَلَ الْأَوْلَادُ، وَالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ.

١٣٢٥ - فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ كَسْبٌ - كَالْعُلَمَاءِ وَالْمُتْرَهِّدِينَ -؛ فَسَلَامَتُهُمْ ظَرِيفَةٌ؛ إِذْ قَدْ انْقَطَعَتْ مَوَارِدُ السَّلَاطِينِ [عَنْهُمْ]، وَمُرَاعَاةُ الْعَوَامِّ [لَهُمْ]؛ فَإِذَا كَثُرَتْ عَائِلَتُهُمْ؛ لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهِمْ شَرٌّ مَا يَجْرِي عَلَى الْجُهَّالِ.

فَمَنْ قَدَرَ مِنْهُمْ عَلَى كَسْبِ النَّسْخِ وَغَيْرِهِ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِيهِ، مَعَ تَقْلِيلِ النَّفَقَةِ، وَالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَرَحَّصَ مِنْهُمْ الْيَوْمَ؛ أَكَلَ الْحَرَامَ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الظُّلْمَةِ، خُصُوصًا بِحُجَّةِ التَّنَمُّسِ^(١) وَالتَّرْهُدِ.

وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ مَالٌ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَنْمِيَّتِهِ وَحِفْظِهِ؛ فَمَا بَقِيَ مِنْ يُؤْتَرُ، وَلَا مَنْ يُقْرِضُ، وَقَدْ صَارَ الْجُمُهُورُ - بَلِ الْكُلُّ - كَأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَالَ؛ فَمَنْ حَفِظَهُ؛ حَفِظَ دِينَهُ. وَلَا يُلْتَمَعُ إِلَى قَوْلِ الْجَهْلَةِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِإِخْرَاجِ الْمَالِ؛ فَمَا هَذَا وَقْتُهُ.

١٣٢٦ - وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَجْتَمِعِ لَهُمْ؛ لَمْ يَحْضَلِ الْعِلْمُ، وَلَا الْعَمَلُ، وَلَا الشَّاعُلُ بِالْفِكْرِ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ. وَقَدْ كَانَ هُمُ الْقُدَمَاءُ يَجْتَمِعُ بِأَشْيَاءَ؛ جُمُهُورُهَا أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ نَصِيبٌ فِي كُلِّ عَامٍ، وَكَانَ يَصِلُهُمْ، فَيَفْضَلُ عَنْهُمْ. وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يَتَجَرَّبُ بِهِ؛ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ، وَسُفْيَانَ، وَابْنَ الْمُبَارِكِ، وَكَانَ هُمُ مُجْتَمِعًا. وَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ فِي مَالِهِ: لَوْلَاكَ لَتَمَنَدَلُوا بِي! وَفُقِدَتْ بِضَاعَةٌ لِابْنِ الْمُبَارِكِ، فَبَكَى، وَقَالَ: هُوَ قِوَامُ دِينِي! وَكَانَ جَمَاعَةٌ يَسْكُونُونَ إِلَى عَطَاءِ الْإِخْوَانِ الَّذِينَ لَا يَمُنُونَ.

وَكَانَ ابْنُ الْمُبَارِكِ يَبْعَثُ إِلَى الْفُضَيْلِ وَغَيْرِهِ. وَكَانَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ يَتَفَقَّدُ الْأَكَابِرَ؛ فَبَعَثَ إِلَى مَالِكِ أَلْفَ دِينَارٍ، وَإِلَى ابْنِ لَهَيْعَةَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَأَعْطَى مَنْصُورَ بْنَ عَمَّارٍ أَلْفَ دِينَارٍ وَجَارِيَةً بِثَلَاثِ مِئَةِ دِينَارٍ.

(١) التمس: الاحتيال والمخادعة.

١٣٢٧ - وَمَا زَالَ الرَّمَانُ عَلَىٰ هَذَا إِلَىٰ أَنْ آَلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ أَنْمِحَاقِ ذَلِكَ؛ فَقَلَّتْ عِظَايَا السَّلَاطِينِ، وَقَلَّ مَنْ يُؤَثِّرُ مِنَ الْإِخْوَانِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْقَلِيلِ مَا يَدْفَعُ الزَّمَانَ، فَأَمَّا زَمَانُنَا هَذَا؛ فَقَدْ انْقَبَصَتِ الْأَيْدِي كُلُّهَا، حَتَّىٰ قَلَّ مَنْ يُخْرِجُ الرِّكَاتَةَ الْوَاجِبَةَ!

فَكَيْفَ يَجْتَمِعُ هَمٌّ مَنْ يُرِيدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَادِ أَنْ يُعْمَلَ هَمَّهُ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي وُجُوهِ الْكَسْبِ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ [هَذَا]، وَلَا يَهْتَدِي لَهُ؟!

فَقَدْ رَأَيْنَا الْأَمْرَ أَحْوَجَ إِلَى التَّعَرُّضِ لِلْسَّلَاطِينِ، وَالتَّرَخُّصِ فِي أَخْذِ مَا لَا يَصْلُحُ، وَأَخْرَجَ الْمُتَزَهِّدِينَ إِلَى التَّصْنَعِ لِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا.

فَاللَّهِ اللَّهُ يَا مَنْ يُرِيدُ حِفْظَ دِينِهِ! قَدْ كَرَّرْتُ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ بِالتَّقْلِيلِ جَهْدَكَ، وَخَفِيفِ الْعَلَائِقِ مَهْمَا أَمَكَنَّكَ، وَأَحْتَفِظْ بِدِرْهَمٍ يَكُونُ مَعَكَ؛ فَإِنَّهُ دِينُكَ! وَأَفْهَمَ مَا قَدْ شَرَحْتَهُ!

١٣٢٨ - فَإِنْ ضَجَّتِ النَّفْسُ لِمُرَادَاتِهَا؛ فَقُلْ لَهَا: إِنْ كَانَ عِنْدَكَ إِيمَانٌ؛ فَأَصْبِرِي، وَإِنْ أَرَدْتَ التَّحْصِيلَ لِمَا يَفْنَى بِبَدْلِ الدِّينِ؛ فَمَا يَنْفَعُكَ؛ فَتَفَكَّرِي فِي الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْمَالَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ، وَفِي الْمُتَمَسِّينَ؛ ذَهَبَ دِينُهُمْ، وَزَالَتْ دُنْيَاهُمْ! وَتَفَكَّرِي فِي الْعُلَمَاءِ الصَّادِقِينَ؛ كَأَحْمَدَ وَبِشْرٍ؛ أَنْدَفَعَتِ الْأَيَّامُ، وَبَقِيَ لَهُمْ حُسْنُ الذِّكْرِ. وَفِي الْجُمْلَةِ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَبِرِزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]... وَرِزْقُ اللَّهِ [قَدْ يَكُونُ بِتَيْسِيرٍ] الصَّبْرَ عَلَى الْبَلَاءِ، وَالْأَيَّامُ تَنْدَفِعُ، وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلَةٌ.

٢٩٧ - فصل: الإحسان إلى الزوجة عمل الرجال

١٣٢٩ - شَكَأ [إِلَيَّ] رَجُلٌ مِنْ بَعْضِهِ لِرُزُوجَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَقْدِرُ عَلَى فِرَاقِهَا؛ لِأُمُورٍ؛ مِنْهَا: كَثْرَةُ دِينِهَا عَلَيَّ، وَصَبْرِي قَلِيلٌ، وَلَا أَكَادُ أَسْلَمَ مِنْ فَلَاتَاتِ لِسَانِي فِي الشُّكْوَى، وَفِي كَلِمَاتٍ تَعْلَمُ بَعْضِي لَهَا.

فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا لَا يَنْفَعُ، وَإِنَّمَا تُؤْتِي الثُّيُوتُ مِنْ أَبْوَابِهَا! فَيَنْبَغِي أَنْ تَخْلُوَ

بِنَفْسِكَ، فَتَعَلَّمَ أَنَّهَا إِنَّمَا سُلِّطَتْ عَلَيْكَ بِذُنُوبِكَ، فَتُبَالِغَ فِي الْأَعْتِدَارِ وَالتَّوْبَةِ.
فَأَمَّا التَّضَجُّرُ وَالْأَذَى لَهَا؛ فَمَا يَنْفَعُ؛ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْحَجَّاجِ (١): عُقُوبَةُ
مِنَ اللَّهِ لَكُمْ؛ فَلَا تُقَابِلُوا عُقُوبَتَهُ بِالسَّيْفِ، وَقَابِلُوهَا بِالِاسْتِغْفَارِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّكَ فِي مَقَامٍ مُبْتَلَى، وَلَكَ أَجْرٌ بِالصَّبْرِ، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]! فَعَامِلِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا قَضَى، وَأَسْأَلُهُ الْفَرَجَ؛ فَإِذَا
جَمَعْتَ بَيْنَ الْأَسْتِغْفَارِ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْقَضَاءِ وَسُؤَالِ الْفَرَجِ؛
حَصَلَتْ ثَلَاثَةٌ فُنُونٍ مِنَ الْعِبَادَةِ تُثَابُ عَلَى كُلِّ مِنْهَا.

وَلَا تُضَيِّعِ الزَّمَانَ بِشَيْءٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا تَحْتَلْ ظَانًّا مِنْكَ أَنَّكَ تَدْفَعُ مَا قُدِّرَ، ﴿وَإِنْ
يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ جُنْدِيًّا نَزَلَ يَوْمًا فِي دَارِ أَبِي يَزِيدَ، فَجَاءَ أَبُو يَزِيدَ، فَرَأَهُ، فَوَقَفَ
وَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: أَدْخُلْ إِلَى الْمَكَانِ الْفُلَانِيِّ؛ فَأَقْلَعِ الطِّينَ الطَّرِيَّ؛ فَإِنَّهُ مِنْ وَجْهِ
فِيهِ شُبْهَةٌ. فَقَلَعَهُ، فَخَرَجَ الْجُنْدِيُّ.

وَأَمَّا أَدَاكَ لِلْمَرْأَةِ؛ فَلَا وَجْهَ لَهُ؛ لِأَنَّهَا مُسَلِّطَةٌ؛ فَلْيَكُنْ شُغْلُكَ بِغَيْرِ هَذَا. وَقَدْ
رُويَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ رَجُلًا شَتَمَهُ، فَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ!
اغْفِرْ لِي الذَّنْبَ الَّذِي سَلَّطْتَ هَذَا بِهِ عَلَيَّ.

١٣٣٠ - قَالَ الرَّجُلُ: وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ تُحِبُّنِي زَائِدًا فِي الْحَدِّ، وَتُبَالِغُ فِي خِدْمَتِي؛

غَيْرَ أَنَّ الْبُغْضَ لَهَا مَرَكُوزٌ فِي طَبْعِي.

قُلْتُ لَهُ: فَعَامِلِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّكَ تُثَابُ. وَقَدْ قِيلَ لِأَبِي عَثْمَانَ
النَّيْسَابُورِيِّ: مَا أَرْجَى عَمَلِكَ عِنْدَكَ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي صَبُوتِي يَجْتَهُدُ أَهْلِي أَنْ أَتَزَوَّجَ،
فَأَبَى، فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَثْمَانَ! إِنِّي قَدْ هَوَيْتُكَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ
تَتَزَوَّجَنِي. فَأَحْضَرْتُ أَبَاهَا - وَكَانَ فَقِيرًا -، فَرَوَّجَنِي، وَفَرِحَ بِذَلِكَ. فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ؛
رَأَيْتُهَا عَوْرَاءَ عَرَجَاءَ مُسْوَهَةً، وَكَانَتْ لِمَحَبَّتِهَا لِي تَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ، فَأَقْعُدُ حِفْظًا

(١) أبو السري السلمي الخراساني الواعظ البليغ الصالح. كان عديم النظر في الوعظ والتذكير،
وفاته في حدود المئتين.

لِقَلْبِهَا، وَلَا أَظْهَرُ لَهَا مِنَ الْبُغْضِ شَيْئًا، وَكَأَنِّي عَلَى جَمْرِ الْعَصَا^(١) مِنْ بُغْضِهَا. فَبَقِيْتُ
هَكَذَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى مَاتَتْ؛ فَمَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٍ هُوَ أَرْجَى عِنْدِي مِنْ حِفْظِي
قَلْبِهَا.

قُلْتُ لَهُ: فَهَذَا عَمَلُ الرَّجَالِ! وَأَيُّ شَيْءٍ يَنْفَعُ صَاحِبَ الْمُبْتَلَى بِالْتَّضَجْرِ بِإِظْهَارِ
الْبُغْضِ؟! وَإِنَّمَا طَرِيقُهُ مَا ذَكَرْتَهُ لَكَ؛ مِنَ التَّوْبَةِ، وَالصَّبْرِ، وَسُؤَالِ الْفَرَجِ.
وَتَذَكَّرْ ذُنُوبًا كَانَتْ هَذِهِ عَقُوبَتِهَا؛ فَإِنْ وَقَعَ فَرَجٌ فِي الْحِسَابِ، وَإِلَّا؛ فَاسْتِعْمَلْ
الصَّبْرَ عَلَى الْقَضَاءِ عِبَادَةً. وَتَكَلَّفْ إِظْهَارَ الْمَوَدَّةِ لَهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي قَلْبِكَ تَثَبُّتٌ
عَلَى هَذَا. وَلَيْسَ لِلْقَيْدِ ذَنْبٌ فَيَلَامٌ، إِنَّمَا يَنْبَغِي التَّشَاغُلُ مَعَ مَنْ قَيْدُهُ. وَالسَّلَامُ.

٢٩٨ - فصل: من أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة

١٣٣١ - لَا رَيْبَ أَنَّ الْقَلْبَ الْمُؤْمِنَ بِالْإِلَهِ سُبْحَانَهُ وَبِأَوْامِرِهِ يَحْتَاجُ إِلَى
الْإِنْعَافِ عَلَى ذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ وَأَمْتِنَالِ أَوْامِرِهِ، وَهَذَا يَفْتَقِرُ إِلَى جَمْعِ الْهَمِّ، وَكَفَى بِمَا
وُضِعَ فِي الطَّبَعِ مِنَ الْمُنَارَعَةِ إِلَى الشَّهَوَاتِ مُسْتَتًا لِلْهَمِّ الْمُجْتَمِعِ.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي جَمْعِ هَمِّهِ؛ لِيَنْفَرِدَ قَلْبُهُ^(٢) بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ، [وَأِنْفَاذِ
أَوْامِرِهِ، وَالتَّهَيُّؤِ لِلِقَائِهِ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِقَطْعِ الْقَوَاطِعِ، وَالْإِمْتِنَاعِ عَنِ الشَّوَاغِلِ،
وَمَا يُمَكِّنُ قَطْعَ الْقَوَاطِعِ جُمْلَةً؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْطَعَ مَا يُمَكِّنُ مِنْهَا.
١٣٣٢ - وَمَا رَأَيْتُ مُسْتَتًا لِلْهَمِّ، مُبَدِّدًا لِلْقَلْبِ مِثْلَ شَيْئَيْنِ:

أحدهما: أَنْ تُطَاعَ النَّفْسُ فِي طَلَبِ كُلِّ شَيْءٍ تَشْتَهِيهِ، وَذَلِكَ لَا يُوقِفُ عَلَى حَدِّ
فِيهِ، فَيَذْهَبُ الدِّينُ وَالدُّنْيَا، وَلَا يُنَالُ كُلُّ الْمُرَادِ؛ مِثْلُ أَنْ تَكُونَ الْهَمَّةُ فِي
الْمُسْتَحْسَنَاتِ، أَوْ فِي جَمْعِ الْمَالِ، أَوْ فِي طَلَبِ الرَّئَاسَةِ، وَمَا يُشِبُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ.
فَيَا لَهُ مِنْ شَتَاتٍ لَا جَامِعَ لَهُ! يَذْهَبُ الْعُمْرُ، وَلَا يُنَالُ بَعْضُ الْمُرَادِ مِنْهُ.

والثاني: مُخَالَطَةُ النَّاسِ - خُصُوصًا الْعَوَامِّ - وَالْمَشْيُ فِي الْأَسْوَاقِ؛ فَإِنَّ الطَّبَعِ

(١) الغضا: شجر يوقد به، فيبقى جمره زمانًا طويلًا.

(٢) في الأصل: همه.

يَتَقَاضَى^(١) الشَّهَوَاتِ، وَيَنسَى الرَّحِيلَ عَنِ الدُّنْيَا، وَيُحِبُّ الكَسَلَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالبَطَالَةِ
وَالعَقْلَةَ وَالرَّاحَةَ، فَيَثْقُلُ عَلَى مَنْ أَلِفَ مُحَاوَلَةَ النَّاسِ التَّشَاغُلَ بِالعِلْمِ، أَوْ بِالعِبَادَةِ،
وَلَا يَزَالُ يُحَاوِلُهُمْ حَتَّى تَهْوَنَ عَلَيْهِ العَيْبَةُ، وَتَضِيعَ السَّاعَاتُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ.

١٣٣٣ - فَمَنْ أَرَادَ اجْتِمَاعَ هَمِّهِ؛ فَعَلَيْهِ بِالعُزْلَةِ؛ بِحَيْثُ لَا يَسْمَعُ صَوْتَ أَحَدٍ؛
فَحِينَئِذٍ يَخْلُو القَلْبُ بِمَعَارِفِهِ، وَلَا تَجِدُ النَّفْسَ رَفِيقًا مِثْلَ الهَوَى يُذَكِّرُهَا مَا تَشْتَهِي؛
فَإِذَا اضْطُرَّ إِلَى المُحَاوَلَةِ؛ كَانَ عَلَى وَفَاقٍ؛ كَمَا تَتَهَوَّى^(٢) الضَّفْدَعُ لِحُطَّةً، ثُمَّ تَعُودُ
إِلَى المَاءِ. فَهَذِهِ طَرِيقُ السَّلَامَةِ؛ فَتَأَمَّلْ فَوَائِدَهَا؛ تَطِبْ لَكَ.

٢٩٩ - فصل: لا تسبوا الدهر

١٣٣٤ - مَا رَأَتْ عَيْنِي مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِالحَلْقِ أَعْظَمَ مِنْ سَبِّهِمَ لِلزَّمَانِ، وَعَيْبِهِمَ
لِلدَّهْرِ. وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ ذَلِكَ، فَقَالَ: «لَا
تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٣)، وَمَعْنَاهُ أَنْتُمْ تُسَبُّونَ مَنْ فَرَّقَ شَمْلَكُمْ، وَأَمَاتَ
أَهَالِيكُمْ، وَتَنْسُبُونَهُ إِلَى الدَّهْرِ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الفَاعِلُ لِذَلِكَ.

فَتَعَجَّبْتُ؛ كَيْفَ أُعْلِمُ أَهْلَ الأَسْقَامِ بِهَذِهِ الحَالِ، وَهُمْ عَلَى مَا كَانَ أَهْلُ
الجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ مَا يَتَعَيَّرُونَ؟! حَتَّى رُبَّمَا اجْتَمَعَ الفُطَنَاءُ الأُدْبَاءُ الطَّرَافِ - عَلَى زَعْمِهِمْ -
فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُغْلٌ إِلَّا ذَمُّ الدَّهْرِ! وَرُبَّمَا جَعَلُوا اللهَ الدُّنْيَا، وَيَقُولُونَ: فَعَلْتَ وَصَنَعْتَ!
وَحَتَّى رَأَيْتُ لِأَبِي قَاسِمِ الحَرِيرِيِّ^(٤) يَقُولُ:

وَلَمَّا تَعَامَى الدَّهْرُ، وَهُوَ أَبُو الرَّدَى عَنِ الرُّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقَاصِدِهِ
تَعَامَيْتُ، حَتَّى قِيلَ إِنَّي أَخُو عَمِّي وَلَا عَرَوْا أَنْ يَحْذُوا الفَتَى حَذَوْا وَالدِّهْرِ

(١) يستعمل المؤلف هذا الفعل بمعانٍ عدة منها: يقتضي ويستوجب ويتطلب ونحو ذلك.

(٢) تهوى: تعرض نفسها للهواء.

(٣) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن القاسم الملقب بنجم الدين ابن صاحب المقامات المشهورة. ولم
يشتهر أبو القاسم هذا كشهرة لأبيه أبي محمد القاسم العلامة البارع ذو البلاغتين والتصانيف
البدیعة (٤٤٦ - ٥١٦هـ)، مولده ووفاته بالبصرة فلعل الاسم تصحّف، والله أعلم.

وَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ فُقَهَاءُ وَفُهَمَاءُ، وَلَا يَتَحَاشُونَ مِنْ هَذَا!!

وَهَوْلَاءِ إِنْ أَرَادُوا بِالذَّهْرِ مُرُورَ الزَّمَانِ؛ فَذَلِكَ لَا اخْتِيَارَ لَهُ، وَلَا مُرَادًا، وَلَا يَعْرِفُ رُشْدًا مِنْ ضَلَالٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلَامَ؛ فَإِنَّهُ زَمَانٌ مُدَبَّرٌ، لَا مُدَبِّرٌ، فَيَتَصَرَّفُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَرَّفُ. وَمَا يُظَنُّ بِعَاقِلٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَنَّ الْمَذْمُومَ، الْمُعْرِضَ عَنِ الرُّشْدِ، السَّيِّئِ الْحُكْمِ، هُوَ الزَّمَانُ! فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ الْقَوْمَ خَرَجُوا عَنْ رَبَقَةِ^(١) الْإِسْلَامِ، وَنَسَبُوا هَذِهِ الْقَبَائِحَ إِلَى الصَّانِعِ، فَأَعْتَقَدُوا فِيهِ قُصُورَ الْحِكْمَةِ، وَفَعَلَ مَا لَا يَصِحُّ؛ كَمَا اعْتَقَدَهُ إِبْلِيسُ فِي تَفْضِيلِ آدَمَ.

وَهَوْلَاءِ لَا يَنْفَعُهُمْ مَعَ هَذَا الزَّيْغِ اعْتِقَادُ إِسْلَامٍ، وَلَا فِعْلُ صَلَاةٍ، بَلْ هُمْ شَرٌّ مِنَ الْكُفَّارِ، لَا أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُمْ شَأْنَا، وَلَا هَدَاهُمْ إِلَى رَشَادٍ.

٣٠٠ - فصل: زيادة الثواب في الآخرة بقدر العمل في الدنيا

١٣٣٥ - مِنْ عَجَائِبِ مَا أَرَى مِنْ نَفْسِي وَمِنْ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ: الْمَيْلُ إِلَى الْعَفْلَةِ عَمَّا فِي أَيْدِينَا؛ مَعَ الْعِلْمِ بِقِصْرِ الْعُمْرِ، وَأَنَّ زِيَادَةَ الثَّوَابِ هُنَاكَ، بِقَدْرِ الْعَمَلِ هَاهُنَا. فَيَا قَاصِرَ الْعُمْرِ! اغْتَنِمْ يَوْمِي مِنِّي^(٢)! وَانْتَظِرْ سَاعَةَ النَّفْرِ! وَإِيَّاكَ أَنْ تَشْغَلَ قَلْبَكَ بِغَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ! وَأَحْمِلْ نَفْسَكَ عَلَى الْمُرِّ! واقمَعها إِذَا أَبَتْ، وَلَا تُسْرِخْ لَهَا فِي الطَّوْلِ^(٣)؛ فَمَا أَنْتَ إِلَّا فِي مَرْعَى، وَقَبِيحٌ بِمَنْ كَانَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ^(٤) أَنْ يَتَشَاغَلَ بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ.

٣٠١ - فصل: الأمر بحفظ السر

١٣٣٦ - قَدْ كَرَّرْتُ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِحِفْظِ السَّرِّ، وَالْحَذَرُ مِنَ الْأَنْبِسَاطِ فِيمَا لَا يَصْلُحُ بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ. قَرُبَ مُنْبَسِطٍ بَيْنَ يَدَيِ مَنْ يَظُنُّهُ

(١) حبل فيه عرى.

(٢) الأول والثاني من أيام التشريق.

(٣) الطول: كعنب حبل تربط به رجل الدابة حتى لا تتعد في المرعى.

(٤) أي في الصف الأول المواجه للعدو.

صَدِيقًا، يَقُولُ فِي صَدِيقِي، أَوْ فِي سُلْطَانٍ، أَنَّهُ لَا يَهْتَمُّ فِي ذَلِكَ، فَيَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِ ذَاكَ.

فَأَوْصِي السَّلِيمَ الصَّدْرَ الَّذِي يَظُنُّ فِي النَّاسِ الْخَيْرَ: بِأَنْ يَحْتَرِزَ مِنَ النَّاسِ، وَأَلَّا يَقُولَ فِي الْخَلْقِ كَلِمَةً لَا تَضِلُّهُ لِلْخَلْقِ، وَلَا يَغْتَرَّ بِمَنْ يُظْهِرُ الصَّدَاقَةَ أَوْ التَّدِينُ؛ فَقَدْ عَمَّ الْحَبْثُ.

٣٠٢ - فصل: تسبيح المتيقظين

١٣٣٧ - تَأَمَّلْتُ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَاتِهِمْ؛ فَإِذَا هِيَ عَادَاتٌ، فَأَمَّا أَرْبَابُ الْيَقَظَةِ؛ فَعَادَاتُهُمْ عِبَادَةٌ حَقِيقِيَّةٌ. فَإِنَّ الْعَافِلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَادَةً، وَالْمُتَيَقِّظَ لَا يَزَالُ فِكْرُهُ فِي عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ فِي عَظَمَةِ الْخَالِقِ، فَيُحَرِّكُهُ الْفِكْرُ فِي ذَلِكَ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ.

١٣٣٨ - وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَفَكَّرَ فِي رُمَانَةٍ، فَنَظَرَ فِي تَصْفِيْفِ حَبِّهَا، وَحَفِظَهَا بِالْأَعْيُنِ لِئَلَّا يَتَضَاعَلَ، وَإِقَامَةَ الْمَاءِ عَلَى عَظْمِ الْعَجَمِ^(١)، وَجَعَلَ الْغِشَاءَ عَلَيْهِ يَحْفَظُهُ. وَتَصْوِيرِ الْفَرْخِ فِي بَطْنِ الْبَيْضَةِ، وَالْأَدَمِيِّ فِي حَشَا الْأُمِّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ: أَرْعَجَهُ^(٢) هَذَا الْفِكْرُ إِلَى تَعْظِيمِ الْخَالِقِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَكَانَ هَذَا التَّسْبِيْحُ ثَمَرَةَ الْفِكْرِ. فَهَذَا تَسْبِيْحُ الْمُتَيَقِّظِينَ، وَمَا تَزَالُ أَفْكَارُهُمْ تَجُولُ، فَتَنْقَعُ عِبَادَاتُهُمْ بِالتَّسْبِيْحَاتِ مُحَقَّقَةً.

وكَذَلِكَ يَتَفَكَّرُونَ فِي قَبَائِحِ دُنُوبٍ قَدْ تَقَدَّمَتْ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ الْفِكْرُ حَرَكَةَ الْبَاطِنِ، وَقَلْقَ الْقَلْبِ، وَنَدَمَ النَّفْسِ، فَيُثْمِرُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ. فَهَذَا هُوَ التَّسْبِيْحُ وَالْأَسْتَغْفَارُ. فَأَمَّا الْعَافِلُونَ؛ فَيَقُولُونَ ذَلِكَ عَادَةً. وَشَتَانَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

٣٠٣ - فصل: لا يصفوا الاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع عن الخلق

١٣٣٩ - لَا يَصِفُوا التَّعَبُّدَ وَالتَّرَهُّدَ وَالْإِسْتِغَالَ بِالْآخِرَةِ إِلَّا بِالْإِنْقِطَاعِ الْكُلِّيِّ عَنِ

(٢) أَرْعَجَهُ: دفعه وحمله.

(١) العجم: النوى.

الْخَلْقِ؛ بَحِيثٌ لَا يُبْصِرُهُمْ، وَلَا يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ إِلَّا فِي وَقْتٍ ضَرُورَةٍ؛ كَصَلَاةِ جُمُعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَيَحْتَرِزُ فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ مِنْهُمْ. وَإِنْ كَانَ عَالِمًا يُرِيدُ تَفْعَهُمْ؛ وَعَلَهُمْ وَقْتًا مَعْرُوفًا، وَأَحْتَرِزَ فِي الْكَلَامِ مَعَهُمْ.

وَأَمَّا مَنْ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ الْيَوْمَ، وَيَبِيعُ، وَيَشْتَرِي مَعَ هَذَا الْعَالَمِ الْمُظْلِمِ، وَيَرَى الْمُنْكَرَاتِ وَالْمُسْتَهْجَنَاتِ؛ فَمَا يَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ إِلَّا وَقَدْ أَظْلَمَ الْقَلْبُ.

١٣٤٠ - فَلَا يَتَّبِعِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يَكُونَ خُرُوجُهُ إِلَّا إِلَى الصَّحْرَاءِ وَالْمَقَابِرِ. وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةً مِنَ السَّلَفِ يَبِيعُونَ، وَيَشْتَرُونَ، وَيَحْتَرِزُونَ، وَمَعَ هَذَا؛ مَا صَفَا لِصَافِيهِمْ وَقْتٌ، حَتَّى قَاطَعَ الْخَلْقَ.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: زَاوَلْتُ الْعِبَادَةَ وَالتَّجَارَةَ فَلَمْ يَجْتَمِعَا، فَأَحْتَرْتُ الْعِبَادَةَ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الْأَسْوَاقُ تُلْهِي وَتُلْغِي»^(١). فَمَنْ قَدَرَ عَلَى الْحِمِيَةِ النَّافِعَةِ، وَاضْطَرَّ إِلَى الْمُخَالَطَةِ وَالْكَسْبِ لِلْعَائِلَةِ؛ فَلْيَحْتَرِزِ احْتِرَازَ الْمَاشِي فِي السُّوْكِ، وَبَعِيدٌ سَلَامَتُهُ.

٣٠٤ - فصل: يدوم طيب القلب بدوام التقوى

١٣٤١ - مَنْ رُزِقَ قَلْبًا طَيِّبًا، وَلَذَّةَ مُنَاجَاةٍ؛ فَلْيَرَاعِ حَالَهُ، وَلْيَحْتَرِزْ مِنَ التَّغْيِيرِ. وَإِنَّمَا تَدُومُ لَهُ حَالُهُ بِدَوَامِ التَّقْوَى.

١٣٤٢ - وَكُنْتُ قَدْ رُزِقْتُ قَلْبًا طَيِّبًا، وَمُنَاجَاةَ خَلْوَةٍ^(٢)، فَأَحْضَرَنِي بَعْضُ أَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ إِلَى طَعَامِهِ، فَمَا أَمَكَّنَ خِلَافُهُ، فَتَنَاوَلْتُ، وَأَكَلْتُ مِنْهُ، فَلَقِيتُ الشَّدَائِدَ، وَرَأَيْتُ الْعُقُوبَةَ فِي الْحَالِ، وَأَسْتَمَرَّتْ مُدَّةً، وَعَظِبْتُ عَلَى قَلْبِي، وَفَقَدْتُ كُلَّ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ. فَقُلْتُ: وَاعَجَبًا! لَقَدْ كُنْتُ فِي هَذَا كَالْمُكْرَه!

(١) رواه أحمد في الزهد ص(١٦٨) موقوفًا من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه، وروى النسائي عن قيس بن أبي غرزة قال: أتانا النبي صلى الله عليه وسلم وكان في السوق فقال: «إن هذه السوق يخالطها اللغو والكذب، فشوبوها بالصدقة».

(٢) اقرأ: مناجاة حلوة.

فَتَفَكَّرْتُ، وَإِذَا بِهِ قَدْ يُمَكِّنُ مُدَارَاةَ الْأَمْرِ بِلَقِيمَاتٍ يَسِيرَةٍ، وَإِنَّمَا التَّأْوِيلُ [جَعَلَ] تَنَاوَلَ هَذَا الطَّعَامِ بِشَهْوَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُدْفَعُ بِالْمُدَارَاةِ. فَقَالَتِ النَّفْسُ: وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنْ عَيْنَ هَذَا الطَّعَامِ حَرَامٌ؟! فَقَالَتِ الْيَقِظَةُ: وَأَيْنَ الْوَرَعُ عَنِ الشُّبُهَاتِ؟! فَلَمَّا تَنَاوَلْتُ بِالتَّأْوِيلِ لُقْمَةً، وَأَسْتَجَلِبْتُهَا بِالطَّبْعِ؛ لَقِيتُ الْأَمْرَيْنِ بِفَقْدِ الْقَلْبِ؛ ﴿فَاعْتَرِبُوا بِتَأْوِيلِ الْأَبْصَرِ﴾! [الحشر: ٢]

٣٠٥ - فصل: همة المؤمن متعلقة بالآخرة

١٣٤٣ - هِمَّةُ الْمُؤْمِنِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْآخِرَةِ؛ فَكُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا يُحَرِّكُهُ إِلَى ذِكْرِ الْآخِرَةِ، وَكُلُّ مَنْ شَغَلَهُ شَيْءٌ؛ فَهَمَّتُهُ شُغْلُهُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ دَخَلَ أَرْبَابُ الصَّنَائِعِ إِلَى دَارٍ مَعْمُورَةٍ؛ رَأَيْتَ الْبَرَّازَ يَنْظُرُ إِلَى الْفَرَشِ، وَيَحْزِرُ قِيَمَتَهُ، وَالنَّجَارَ إِلَى السَّقْفِ، وَالْبِنَاءَ إِلَى الْحِيطَانِ، وَالْحَائِكَ إِلَى النَّسِجِ^(١).

١٣٤٤ - وَالْمُؤْمِنُ إِذَا رَأَى ظُلْمَةً؛ ذَكَرَ ظُلْمَةَ الْقَبْرِ، وَإِنْ رَأَى مُؤْلِمًا؛ ذَكَرَ الْعِقَابَ، وَإِنْ سَمِعَ صَوْتًا فَظِيْعًا؛ ذَكَرَ نَفْحَةَ الصُّورِ، وَإِنْ رَأَى النَّاسَ نِيَامًا؛ ذَكَرَ الْمَوْتَى فِي الْقُبُورِ، وَإِنْ رَأَى لَذَّةً؛ ذَكَرَ الْجَنَّةَ؛ فَهَمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا تَمَّ^(٢)، وَذَلِكَ يَشْغَلُهُ عَنْ كُلِّ مَا تَمَّ.

١٣٤٥ - وَأَعْظَمُ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ يَتَحَايَلُ دَوَامَ الْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْ بَقَاءَهُ لَا يَنْقَطِعُ، وَلَا يَزَالُ، وَلَا يَعْتَرِبُهُ مُنْغَصُ^(٣)، فَيَكَادُ إِذَا تَحَايَلَ نَفْسَهُ مُتَقَلِّبًا فِي تِلْكَ اللَّذَاتِ الدَّائِمَةِ، الَّتِي لَا تَقْنَى: يَطِيشُ فَرَحًا، وَيَسْهَلُ عَلَيْهِ مَا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا؛ مِنْ أَلْمٍ، وَمَرَضٍ، وَأَبْتِلَاءٍ، وَفَقْدِ مَحْبُوبٍ، وَهُجُومِ الْمَوْتِ، وَمُعَالَجَةِ غُصْبِهِ؛ فَإِنَّ الْمُسْتَأَقَّ إِلَى الْكَعْبَةِ يَهُونُ عَلَيْهِ رَمْلُ زُرُودٍ^(٤)، وَالتَّائِقُ^(٥) إِلَى الْعَافِيَةِ لَا يُبَالِي بِمَرَارَةِ

(١) في الأصل: نسج الثياب.

(٢) في الأصل: نغصة.

(٣) زرود: رمال كثيرة في طريق القادم من الكوفة إلى مكة.

(٤) التائق: المشتاق.

الدَّوَاءِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ جَوْدَةَ الثَّمَرِ تَمَّ عَلَى مِقْدَارِ جَوْدَةِ الْبَدْرِ هَاهُنَا؛ فَهُوَ يَتَخَيَّرُ الْأَجُودَ، وَيَعْتَنِمُ الزَّرْعَ فِي تَشْرِينِ^(١) الْعُمْرِ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ. ثُمَّ يَتَخَايَلُ الْمُؤْمِنُ دُخُولَ النَّارِ وَالْعُقُوبَةَ، فَيَتَنَعَّصُ عَيْشُهُ، وَيَقْوَى قَلْبُهُ. فَعِنْدَهُ بِالْحَالَيْنِ شُغْلٌ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَقَلْبُهُ هَائِمٌ فِي بَيْدَاءِ الشُّوقِ تَارَةً، وَفِي صَحْرَاءِ الْخَوْفِ أُخْرَى؛ فَمَا يَرَى الْبُنْيَانَ.

فَإِذَا نَازَلَهُ الْمَوْتُ؛ قَوِيَ ظَنُّهُ بِالسَّلَامَةِ^(٢)، وَرَجَا لِنَفْسِهِ النَّجَاةَ، فَيَهْوُنُ عَلَيْهِ. فَإِذَا نَزَلَ إِلَى الْقَبْرِ، وَجَاءَهُ مَنْ يَسْأَلُونَهُ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعُوهُ؛ فَمَا اسْتَرَّاحَ إِلَّا السَّاعَةَ.

نَسَأَلَ اللهُ ﷻ يَقْظَةً تَامَةً؛ تُحَرِّكُنَا إِلَى طَلَبِ الْفَضَائِلِ، وَتَمْنَعُنَا مِنْ اخْتِيَارِ الرِّذَائِلِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ وَقَفَ، وَإِلَّا؛ فَلَا نَافِعَ.

٣٠٦ - فصل: كمال الصورة اعتدالها

١٣٤٦ - لَقَدْ اِعْتَبَرْتُ عَلَى مَوْلَايَ ﷺ أَمْرًا عَجِيبًا، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَخْتَارُ لِمَحَبَّتِهِ؛ وَالْقُرْبِ مِنْهُ: إِلَّا الْكَامِلَ صُورَةً وَمَعْنَى. وَلَسْتُ أَغْنِي حُسْنَ التَّخَاطِيطِ^(٣)، وَإِنَّمَا كَمَالُ الصُّورَةِ اِعْتِدَالُهَا، وَالْمُعْتَدِلَةُ مَا تَخْلُو مِنْ حُسْنٍ، فَيَتَّبَعُهَا حُسْنُ الصُّورَةِ الْبَاطِنَةِ، وَهُوَ كَمَالُ الْأَخْلَاقِ، وَرَوَالِ الْأَكْدَارِ، وَلَا يَرَى فِي بَاطِنِهِ حَبْنًا وَلَا كَدْرًا، بَلْ قَدْ حَسَنَ بَاطِنُهُ كَمَا حَسَنَ ظَاهِرُهُ. وَقَدْ كَانَ مُوسَى ﷺ كُلُّ مَنْ رَأَاهُ يُحِبُّهُ. وَكَانَ نَبِيْنَا ﷺ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ^(٤).

١٣٤٧ - وَقَدْ يَكُونُ الْوَلِيُّ أَسْوَدَ اللَّوْنِ، لِكِنَّهُ حَسَنُ الصُّورَةِ، لَطِيفُ الْمَعَانِي. فَعَلَى قَدْرِ مَا عِنْدَ الْإِنْسَانِ مِنَ التَّمَامِ فِي كَمَالِ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ يَكُونُ عَمَلُهُ، وَيَكُونُ تَقْرِيْبُهُ إِلَى الْحَضْرَةِ بِحَسَبِ ذَلِكَ؛ فَمِنْهُمْ كَالْحَادِمِ عَلَى الْبَابِ، وَمِنْهُمْ حَاجِبٌ، وَمِنْهُمْ مُقْرَبٌ، وَيَنْدُرُ مَنْ يَيْتَمُ لَهُ الْكَمَالُ، وَلَعَلَّهُ لَا يُوجَدُ فِي مِئَةِ سَنَةٍ مِنْهُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَهَذِهِ

(١) تشرین: موسم الزراعة الشتوية.

(٢) التناطيط: القسمات والملاحم.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥٢) عن البراء رضي الله عنه.

حِكَايَةٌ مَا تَحْصُلُ بِالاجْتِهَادِ، بَلِ الاجْتِهَادُ يَحْصُلُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَقَعَ تَمَامٌ؛ حَثَّ عَلَى الْجِدِّ عَلَى قَدْرِ نُقْصَانِهِ وَهَذَا لَا حِيلَةَ فِي أَصْلِهِ، إِنَّمَا هُوَ جِبِلَّةٌ، وَإِذَا أَرَادَكَ لِأَمْرٍ؛ هَيَّاكَ لَهُ.

٣٠٧ - فصل: الحق منزه عن العبث

١٣٤٨ - تَأَمَّلْتُ عَلَى قَوْمٍ يَدْعُونَ الْعُقُولَ، وَيَعْتَرِضُونَ عَلَى حِكْمَةِ الْخَالِقِ! فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: هَذَا الْفَهْمُ الَّذِي دَلَّكُمْ عَلَى رَدِّ حِكْمَتِهِ؛ أَلَيْسَ هُوَ مَنْ مَنَحَهُ؟! فَأَعْظَاكُمْ الْكَمَالَ، وَرِضِي لِنَفْسِهِ بِالنَّقْصِ؟! هَذَا هُوَ الْكُفْرُ الْمَحْضُ، الَّذِي يَزِيدُ فِي الْقُبْحِ عَلَى الْجَحْدِ.

١٣٤٩ - فَأَوَّلُ الْقَوْمِ إِبْلِيسُ؛ فَإِنَّهُ رَأَى بِعَقْلِهِ أَنَّ جَوْهَرَ النَّارِ أَشْرَفُ مِنْ جَوْهَرِ الطِّينِ، فَرَدَّ حِكْمَةَ الْخَالِقِ. وَمَرَّ عَلَى هَذَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْتَرِضِينَ؛ مِثْلُ ابْنِ الرَّائِدِيِّ، وَالْبَصْرِيِّ^(١) وَهَذَا الْمَعْرِيُّ اللَّعِينُ يَقُولُ: كَيْفَ يُعَابُ ابْنُ الْحَجَّاجِ^(٢) بِالسُّخْفِ، وَالذَّهْرُ أَفْبَحُ فِعْلًا مِنْهُ؟! أَتُرَى يَعْنِي بِهِ الزَّمَانَ؟! كَلَّا؛ فَإِنَّ مَمَرَّ الْأَوْقَاتِ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُوَ تَسْفِيفٌ^(٣)! وَكَانَ يَسْتَعْجِلُ الْمَوْتَ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَسْتَرِيحُ! وَكَانَ يُوصِي بِتَرْكِ النِّكَاحِ، وَالنُّسُكِ! وَلَا يَرَى فِي الْإِبْجَادِ حِكْمَةً إِلَّا الْعِنَاءَ وَالتَّعَبَ! وَمَصِيرَ الْأَبْدَانِ إِلَى الْبِلَى!!

وَهَذَا لَوْ كَانَ كَمَا ظَنَّ؛ كَانَ الْإِبْجَادُ عَبَثًا، وَالْحَقُّ مُنْزَهًا عَنِ الْعَبَثِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧]. فَإِذَا كَانَ مَا خُلِقَ لَنَا لَمْ يُخْلَقْ عَبَثًا؛ أَفَنُكُونُ نَحْنُ - وَنَحْنُ مَوَاطِنُ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَالُّ تَكْلِيفِهِ - قَدْ وُجِدْنَا عَبَثًا؟!!

(١) العلوي البصري صاحب الزنج، ذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد قيس، ثم من أنمار وكان اسمه أحمد، فلما خرج سنة (٢٥٥هـ) تسمى عليًا، وانتسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، قتل سنة (٢٧٠هـ).

(٢) الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي، شاعر سفيه، أمير الفحش، له باع من الغزل، أما الزطاطة والتفحش فهو حامل لوانها، توفي سنة (٣٩١هـ). ولعل الصواب الحجاج بن يوسف، لأن فساده أكبر.

(٣) تهافت وفساد.

١٣٥٠ - وَمِثْلُ هَذَا الْجَهْلِ إِنَّمَا يَصْدُرُ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي قَصَايَا الْعُقُولِ الَّتِي يُحَكِّمُ بِهَا عَلَى الظَّوَاهِرِ؛ مِثْلُ أَنْ يَرَى مَبْنِيًّا يُنْقَضُ، وَالْعَقْلُ بِمَجْرَدِهِ لَا يَرَى ذَلِكَ حِكْمَةً، وَلَوْ كُشِفَتْ لَهُ حِكْمَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ صَوَابٌ؛ كَمَا كُشِفَ لِمُوسَى مُرَادُ الْخَضِرِ فِي خَرَقِ السِّفِينَةِ، وَقَتْلِ الْغَلَامِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَبْحَ الْحَيَوَانَ، وَتَقْطِيعَ الرَّغِيفِ، وَمَضْعَ الطَّعَامِ، لَا يَظْهَرُ لَهُ فَايِدَةٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ غِذَاءٌ لِبَدَنِ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ بَدَنًا مِنَ الْمَذْبُوحِ؛ حَسَنَ ذَلِكَ الْفِعْلُ. وَاعْجَبًا! أَوْ مَا تَقْضِي الْعُقُولُ بِوَجُوبِ طَاعَةِ الْحَكِيمِ، الَّذِي تَعْجِزُ عَن مَعْرِفَةِ حِكْمِ مَخْلُوقَاتِهِ؟! فَكَيْفَ تَعَارِضُهُ فِي أَعْمَالِهِ؟! نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ.

٣٠٨ - فصل: من اضطر أن يعظ سلطانًا تلطف معه

١٣٥١ - يَنْبَغِي لِمَنْ وَعَظَ سُلْطَانًا أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّلَطُّفِ، وَلَا يُوَاجِهَهُ بِمَا يَفْتَضِي أَنَّهُ ظَالِمٌ؛ فَإِنَّ السَّلَاطِينَ حَظُّهُمْ التَّفَرُّدُ بِالْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ؛ فَإِذَا جَرَى نَوْعُ تَوْبِيخِ لَهُمْ؛ كَانَ إِذْلاًلًا، وَهُمْ لَا يَحْتَمِلُونَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْزَجَ وَعْظُهُ بِذِكْرِ شَرَفِ الْوِلَايَةِ، وَحُصُولِ الثَّوَابِ فِي رِعَايَةِ الرَّعَايَا، وَذِكْرِ سِيرِ الْعَادِلِينَ مِنْ أَسْلَافِهِمْ.

١٣٥٢ - ثُمَّ لِيَنْظُرِ الْوَاعِظُ فِي حَالِ الْمَوْعُوظِ قَبْلَ وَعْظِهِ: فَإِنْ رَأَى سِيرَتَهُ حَمِيدَةً - كَمَا كَانَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ وَغَيْرُهُ يَعْظُونَ الرَّشِيدَ^(١) وَهُوَ بَيْكِي - وَقَصْدَهُ الْخَيْرَ؛ زَادَ فِي وَعْظِهِ وَوَصِيَّتِهِ.

وَإِنْ رَأَاهُ ظَالِمًا، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْخَيْرِ؛ وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْجَهْلُ؛ اجْتَهَدَ فِي الْإِبْرَاهِيمَ وَلَا يَعِظُهُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ وَعَظَهُ؛ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ، وَإِنْ مَدَحَهُ؛ كَانَ مُدَاهِنًا، فَإِنْ اضْطَرَّ إِلَى مَوْعِظَتِهِ؛ كَانَتْ كَالِإِشَارَةِ^(٢).

(١) هارون بن محمد بن المنصور العباسي (١٤٩ - ١٩٣هـ) أشهر الخلفاء العباسيين، كان عالمًا بالأدب والتاريخ والحديث والفقه، وكان يحج عامًا ويغزو عامًا على الأغلب.

(٢) إن صدق بالحق وخاطر بنفسه فهو سيد الشهداء. قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». وقال أيضًا: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» ومن هذا قصة الغلام وأصحاب الأخدود.

١٣٥٣ - وَقَدْ كَانَ أَقْوَامٌ مِنَ السَّلَاطِينِ يَلِينُونَ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ، وَيَحْتَمِلُونَ
الْوَاعِظِينَ، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ كَانَ الْمَنْصُورُ يُوَاجِهُهُ بِأَنَّكَ ظَالِمٌ فَيَضْرِبُ... وَقَدْ تَعَيَّرَ الزَّمَانُ،
وَفَسَدَ أَكْثَرُ الْوَلَاةِ، وَدَاهَنَهُمُ الْعُلَمَاءُ، وَمَنْ لَا يِدَاهِنُ لَا يَجِدُ قَبُولًا لِلصَّوَابِ،
فَيَسْكُتُ.

١٣٥٤ - وَقَدْ كَانَتِ الْوَلَايَاتُ لَا يَسْأَلُهَا إِلَّا مَنْ أَحْكَمْتَهُ الْعُلُومُ، وَثَقَّفْتَهُ
التَّجَارِبُ، فَصَارَ أَكْثَرُ الْوَلَاةِ يَتَسَاوَوْنَ فِي الْجَهْلِ، فَتَأْتِي الْوَلَايَةُ عَلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِهَا.

وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ يَنْبَغِي الْحَذَرُ مِنْهُمْ، وَالْبُعْدُ عَنْهُمْ؛ فَمَنْ ابْتُلِيَ بِوَعظِهِمْ؛ فَلْيَكُنْ عَلَى
غَايَةِ التَّحَرُّزِ فِيمَا يَقُولُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَرَّ بِقَوْلِهِمْ: عِظْنَا^(١)! فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ كَلِمَةً لَا
تُؤَافِقُ أَعْرَاضَهُمْ؛ ثَارَتْ حَرَارَاتُهُمْ.

١٣٥٥ - وَلِيَحْذَرَ مُذَكَّرُ السُّلْطَانِ أَنْ يُعْرَضَ لَهُ بِأَرْبَابِ الْوَلَايَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا
سَمِعُوا بِذَلِكَ؛ صَارَ الْوَاعِظُ مَقْصُودًا لَهُمْ بِالْإِهْلَاكِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَعْتَبَرَ السُّلْطَانُ
أَحْوَالَهُمْ، فَتَفْسُدَ أُمُورُهُمْ. وَالْبُعْدُ فِي هَذَا الزَّمَانِ عَنْهُمْ أَصْلَحُ، وَالسُّكُوتُ عَنِ
الْمَوْاعِظِ لَهُمْ أَسْلَمُ؛ فَمَنْ اضْطُرَّ؛ تَلَطَّفَ غَايَةَ التَّلَطُّفِ، وَجَعَلَ وَعْظُهُ لِلْعَوَامِّ، وَهُمْ
يَسْمَعُونَ، وَلَا يَعْينُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ. وَاللَّهُ الْمُوقِّعُ.

٣٠٩ - فصل: الحق لا يشتبه بباطل

١٣٥٦ - الْحَقُّ لَا يَشْتَبَهُ بِبَاطِلٍ، إِنَّمَا يُمَوِّهُ الْبَاطِلُ عِنْدَ مَنْ لَا فَهْمَ لَهُ. وَهَذَا فِي
حَقِّ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَاتِ، وَفِي حَقِّ مَنْ يَدَّعِي الْكِرَامَاتِ.

١٣٥٧ - أَمَّا النُّبُوَاتُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ادَّعَاهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ؛ ظَهَرَتْ قَبَائِحُهُمْ، وَبَانَتْ
فَضَائِحُهُمْ، وَمِنْهَا مَا تَوَجَّهَ حِسَّةُ الْهَمَّةِ، وَالتَّهْتُّكُ فِي الشَّهَوَاتِ، وَالتَّهَاهُفُ فِي
الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، حَتَّى افْتَضَحُوا.

١٣٥٨ - فَمِنْهُمْ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ: ادَّعَى النُّبُوَةَ، وَكَبَّ نَفْسَهُ ذَا الْخِمَارِ؛ لِأَنَّهُ

(١) فِي الْأَصْلِ: ظَنًّا، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

كَانَ يَقُولُ: يَا بَيْنِي ذُو الْخِمَارِ^(١)، وَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ كَاهِنًا يُشْعِدُ، فَيُظْهِرُ الْأَعَاجِيبَ، فَخَرَجَ فِي أَوَاخِرِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَاتَبَتْهُ مَذْحِجٌ وَوَاعِدَ وَنَجْرَانُ، وَأَخْرَجُوا عَمْرَو بْنَ حَزْمٍ^(٢)، وَخَالِدَ بْنَ سَعِيدٍ^(٣) صَاحِبِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَفَا لَهُ الْيَمَنُ، وَقَاتَلَ شَهْرَ بْنَ بَادَامَ، فَقَتَلَهُ، وَتَزَوَّجَ ابْنَتَهُ^(٤)، فَأَعَانَتْ عَلَى قَتْلِهِ، فَهَلَكَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَانَ لِلْعُقَلَاءِ أَنَّهُ كَانَ يُشْعِدُ.

١٣٥٩ - وَمِنْهُمْ مُسَيْلِمَةٌ؛ أَدْعَى النَّبُوَّةَ، وَتَسَمَّى رَحْمَانَ الْيَمَامَةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: الَّذِي يَا بَيْنِي رَحْمَانًا! فَأَمَنَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَدْعَى أَنَّهُ قَدْ أَشْرَكَ مَعَهُ! فَالْعَجَبُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِرَسُولٍ، وَيَقُولُ: إِنَّهُ كَذَّابٌ! ثُمَّ جَاءَ بِقُرْآنٍ يُضْحِكُ النَّاسَ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: يَا ضِفْدَعُ بِنْتُ ضِفْدَعَيْنِ! نُقِي^(٥) مَا تَنْقِينَ، أَعْلَاكَ فِي الْمَاءِ، وَأَسْفَلَكَ فِي الطِّينِ! وَمِنَ الْعَجَائِبِ شَاةُ سَوْدَاءَ، تَحْلِبُ لَبْنًا أبيضًا! فَانْهَتْكَ سِتْرُهُ فِي هَذِهِ الْفِصَاحَةِ، ثُمَّ مَسَحَ يَدِهِ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ، فَذَهَبَ شَعْرُهُ! وَبَصَقَ فِي بَثْرِ، فَيَسِتُ.

وَتَزَوَّجَ سَجَاحَ^(٦) الَّتِي أَدْعَتِ النَّبُوَّةَ، فَقَالُوا: لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَهْرٍ. فَقَالَ: مَهْرُهَا أَنِّي قَدْ أَسْقَطْتُ عَنْكُمْ صَلَاتِي الْفَجْرِ وَالْعَتَمَةَ!

١٣٦٠ - وَكَانَتْ سَجَاحُ هَذِهِ قَدْ أَدْعَتِ النَّبُوَّةَ بَعْدَ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَجَابَ لَهَا جَمَاعَةٌ، فَقَالَتْ: أَعِدُّوا الرِّكَابَ، وَأَسْتَعِدُّوا لِلنَّهَابِ، ثُمَّ أَعْبَرُوا عَلَى الرَّبَابِ؛ فَلَيْسَ دُونَهُمْ حِجَابٌ؛ فَقَاتَلُوهُمْ!

(١) وقيل: لأنه كان يعتم بخمار. وقد وقع في الأصل: ذا الحمارة، وهو تصحيف.

(٢) عمرو بن حزم بن زيد بن لوزان الأنصاري، توفي سنة (٥٣هـ).

(٣) خالد بن سعيد بن العاص الأموي، الصحابي من الولاة الغزاة، توفي سنة (١٤هـ).

(٤) كان باذان أميراً على صنعاء من قبل النبي ﷺ، فلما مات تزوج العنسي امرأته المرزبانة، التي سقته الخمر حتى سكر، فدخل عليه فيروز، واحتز رأسه. انظر فتح الباري (٧٦/٨).

(٥) في الأصل: تقى، وهو تصحيف.

(٦) سجاح بنت الحارث التميمية من بني يربوع، متنبئة كانت شاعرة عالمة بالأخبار، تزوجت مسيلمة الكذاب، وبعد قتله عادت إلى الإسلام، وهاجرت إلى البصرة وحسن إسلامها، توفيت سنة (٥٥هـ).

ثُمَّ قَصَدَتِ الْيَمَامَةَ^(١)، فَهَابَهَا مُسَيْلِمَةُ، فَرَأَسَلَهَا، وَأَهْدَى لَهَا، فَحَصَرَتْ عِنْدَهُ، فَقَالَتْ: أَقْرَأْ عَلَيَّ مَا يَأْتِيكَ بِهِ جَبْرِيلُ! فَقَالَ: إِنَّا كُنَّا مَعْشَرَ النِّسَاءِ خُلِقْتُنَّ أَفْوَاجًا، وَجُعِلْتُنَّ لَنَا أَزْوَاجًا، نُؤَلِّجُهُ فَيَكُنَّ إِبِلًا جَا. فَقَالَتْ: صَدَقْتَ؛ أَنْتَ نَبِيٌّ. فَقَالَ لَهَا:

[أَلَا] قُومِي إِلَى الْمَخْدَعِ فَقَدْ هَيَّيْ لِكَ الْمَضْجَعِ
فَإِنْ شِئْتِ سَلَقْنَاكَ وَإِنْ شِئْتِ عَلَيَّ أَرْبَعٌ^(٢)
وَإِنْ شِئْتِ بِثُلْثِيهِ وَإِنْ شِئْتِ بِهِ أَجْمَعِ
فَقَالَتْ: بَلْ بِهِ أَجْمَعِ؛ فَهُوَ لِلشَّمْلِ أَجْمَعِ!

فَأَفْتَضِحَتْ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَصْحَابِهَا، فَقَالَ مِنْهُمْ عَطَّارِدُ بْنُ حَاجِبٍ^(٣):

أَضَحَتْ نَبِيَّتُنَا أَنْشَى يُطَافُ بِهَا وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ دُكْرَانَا
فَلَعْنَةُ اللَّهِ رَبِّ النَّاسِ كُلَّهُمْ عَلَى سَجَاحٍ وَمَنْ بِالْإِفْكِ أَغْوَانَا
أَعْنِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ لَا سُقَيْتِ أَصْدَاؤُهُ مِنْ رَعِيثٍ حَيْثُمَا كَانَا^(٤)

ثُمَّ إِنَّهَا رَجَعَتْ عَنْ غِيْهَا، وَأَسْلَمَتْ. وَمَا زَالَتْ تَبِينُ فَضَائِحَ مُسَيْلِمَةَ حَتَّى قُتِلَ.

١٣٦١ - وَمِنْهُمْ طَلِيحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ^(٥)؛ خَرَجَ بَعْدَ دَعْوَى مُسَيْلِمَةَ النَّبُوَّةِ، وَتَبِعَهُ

عَوَاطِمُ، وَنَزَلَ سَمِيرَاءَ^(٦)، فَتَسَمَّى بِذِي الثَّوْنِ؛ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي يَأْتِيهِ، يُقَالُ لَهُ: ذُو الثَّوْنِ، وَكَانَ مِنْ كَلَامِهِ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْنَعُ بِنِّعْفِيرٍ وَجُوهِكُمْ، وَلَا قُبْحٍ أَذْبَارِكُمْ شَيْئًا؛ فَادْكُرُوا اللَّهَ أَعْفَى قِيَامًا! وَمِنْ قُرَائِهِ: وَالْحَمَامُ وَالْيَمَامُ، وَالصُّرْدُ^(٧) الصَّوَامُ، لِيَبْلُغَنَّ

(١) اليمامة منطقة الرياض في نجد.

(٢) في الأصل: مستلقاة، والتصويب من الأغاني (٢٩/٢١) والسلق الإلقاء على الظهر.

(٣) خطيب شاعر من سراة بني تميم، وفد على النبي ﷺ، ثم ارتد، واتبع سجاح، ثم عاد إلى الإسلام، توفي سنة (٥٢٠هـ)، ونسبت الأبيات إلى قيس بن عاصم كما في الأغاني (٥٧/١٤).

(٤) كذا في الأصل، وفي ثمار القلوب (ماء من).

(٥) الأسدي من الفصحاء، الشجعان، وفد على النبي ﷺ سنة (٥٩هـ)، ثم ارتد وادعى النبوة، فقاتله خالد، وفر إلى الشام، ثم رجع إلى الإسلام، وباع عمر في المدينة، وحسن إسلامه، وشهد القادسية، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، واستشهد بنهاوند سنة (٢١هـ).

(٦) سميراء: منزل من منازل الطريق من الوافد إلى مكة، ويقع في ديار بني أسد.

(٧) الصرد: طائر ضخم الرأس والمنقار، أبيض البطن، أخضر الظهر، له برثن، ويصطاد صغار الطير، وكانوا يتشاءمون به.

مُلْكُنَا الْعِرَاقَ وَالشَّامَ!! وَتَبِعَهُ عُبَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ^(١)، فَقَاتَلَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَجَاءَ عُبَيْنَةُ إِلَى طَلِيحَةَ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَجَاءَكَ الْمَلِكُ؟ قَالَ: لَا؛ فَأَرْجِعْ فَقَاتِلْ. فَقَاتَلَ، ثُمَّ عَادَ، فَقَالَ: أَجَاءَكَ؟ فَقَالَ: لَا. فَعَادَ فَقَاتَلَ، ثُمَّ عَادَ، فَقَالَ: أَجَاءَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: إِنَّ لَكَ [رَحَى كَرَحَاهُ]^(٢) وَحَدِيثًا^(٣) لَا تَنْسَاهُ. فَصَاحَ عُبَيْنَةُ: الرَّجُلُ وَاللَّهِ كَذَّابٌ. فَانصَرَفَ النَّاسُ مُنْهَزِمِينَ، وَهَرَبَ طَلِيحَةُ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ أَسْلَمَ، وَصَحَّ إِسْلَامُهُ، وَفُتِلَ بِنَهْا وَنَدَ.

١٣٦٢ - وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ^(٤): أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي يَرْبُوعٍ يُقَالُ لَهُ: جُنْدُبُ بْنُ كَلْتُومٍ^(٥)، كَانَ يُلقَبُ كِرْدَانًا، ادَّعَى النُّبُوَّةَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ دَلِيلَهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ أَنَّهُ يُسْرَجُ^(٦) مَسَامِيرَ الْحَدِيدِ وَالطِّينِ!! وَهَذَا لِأَنَّهُ كَانَ يَطْلِي ذَلِكَ بِدُهْنِ الْبَيْلَسَانَ^(٧)، فَتَعَمَلُ فِيهِ النَّارُ.

١٣٦٣ - وَقَدْ تَبَّأَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كَهْمَسُ الْكِلَابِيِّ^(٨)، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيْهِ: يَا أَيُّهَا الْجَائِعُ! أَشْرَبْ لَبَنًا تَشْبَعُ، وَلَا تَضْرِبِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَنْفَعٍ!! وَزَعَمَ أَنَّ دَلِيلَهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ أَنَّهُ يُطْرَحُ بَيْنَ السَّبَاعِ الضَّارِيَةِ فَلَا تَأْكُلُهُ، وَحِيلَتْهُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ يَأْخُذُ دُهْنَ الْعَارِ^(٩).

(١) أسلم قبل الفتح، وشهد حنينًا والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم ارتد بعد وفاة النبي ﷺ، ثم عاد إلى الإسلام، وعاش إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وقد وقع في الأصل: (حصين) وهو تصحيف.

(٢) زيادة من تاريخ الطبري (٢/٢٦١)، والكامل لابن الأثير (٢/٢٠٨). و(الرحى): الطاحون.

(٣) في الأصل: جيشًا، وهو تصحيف، والتصويب من المصادر السابقة.

(٤) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي (١٣٠ - ٢٠٧هـ) العلامة صاحب التصانيف والمغازي، طبق ذكره شرق الأرض وغربها، وسارت بكتبه الركبان إلا أنه خلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين فاطرحوه لذلك.

(٥) لم أجد ترجمته. (٦) يسرج: يضيء.

(٧) البيلسان: شجر له زهر أبيض صغير بهيئة العناقيد، وهو من الفصيلة البخورية، ويستخرج من بعض أنواعه عطر.

(٨) لم أجد ترجمته. وقد وقع في الأصل: كهمش بالشين المعجمة، وهو تصحيف، وكهمس بالسين المهملة من أسماء الأسد.

(٩) الغار: شجر ينبت بريًا في سواحل الشام وجبالها، طيب الرائحة، ورقه دائم الاخضرار، =

وَحَجَرَ الْبُرْسَانِ^(١)، وَفُنْفُنًا مُحْرَقًا، وَزَبَدَ الْبَحْرِ، وَصَدْفًا مُحْرَقًا مَسْحُوقًا، وَشَيْئًا مِنَ الصَّبْرِ^(٢) وَالْحَبِطِ^(٣)، فَيَطْلِي بِهِ جِسْمَهُ، فَإِذَا قَرَبَتْ مِنْهُ السَّبَاعُ، فَشَمَّتْ تِلْكَ الْأَرْيَاحَ^(٤) وَذَفُورَتَهَا^(٥)؛ نَفَرَتْ.

١٣٦٤ - وَتَبَّأَ بِالطَّائِفِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو جَعْوَانَةَ الْعَامِرِيُّ، وَرَعِمَ أَنْ دَلِيلَهُ أَنَّهُ يَطْرَحُ النَّارَ فِي الْقُظْنِ فَلَا يَحْتَرِقُ! وَهَذَا لِأَنَّهُ يَدَهْنُهُ بِدُهْنٍ مَعْرُوفٍ.

١٣٦٥ - وَمِنْهُمْ هُذَيْلُ بْنُ يَعْفُورٍ، مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ زُهَيْرٍ، حَكَى عَنْهُ الْأَصْمَعِيُّ^(٦) أَنَّهُ عَارَضَ سُورَةَ الْإِحْلَاصِ، فَقَالَ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، إِلَهٌ كَالْأَسَدِ، جَالِسٌ عَلَى الرَّصَدِ، لَا يَفُوتُهُ أَحَدٌ!

١٣٦٦ - وَمِنْهُمْ هُذَيْلُ بْنُ وَاسِعٍ، كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيَّةِ^(٧)، عَارَضَ سُورَةَ الْكُوْثِرِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا قُلْتَ؟ فَقَالَ: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجَوَاهِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَجَاهِرْ، فَمَا يُؤْذِنُكَ إِلَّا كُلُّ فَاجِرٍ. فَظَهَرَ عَلَيْهِ الْقَسْرِيُّ^(٨)، فَفَتَلَهُ، وَصَلَبَهُ عَلَى الْعَمُودِ، فَعَبَّرَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ^(٩)، فَقَالَ: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْعَمُودَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ مِنْ قَعُودٍ، بِلَا رُكُوعٍ وَلَا سُجُودٍ؛ فَمَا أَرَاكَ تَعُودُ.

١٣٦٧ - وَمِمَّنْ ظَهَرَ فَأَدْعَى أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ^(١٠)، وَكَانَ

= وخشبه صلب، وعطر، وله حمل أصغر من البندق أسود يستخرج منه زيت، وكانوا يصفرون أوراقه أكاليل يتوجون بها المنتصرين في الحروب.

(١) حجر البرسان: ...

(٢) الصبر: عصارة شجر مر تستعمل في الطب.

(٣) الخبط: وهو ورق مطحون ومخلوط بالديق (القاموس).

(٤) الأرياح: الروائح.

(٥) ذفورتها: رائحتها.

(٦) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي البصري أبو سعيد (١٢٢ - ٢١٦هـ) راوية

العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر.

(٧) زياد بن معاوية الذبياني الغطفاني المضري أبو أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، توفي

سنة (١٨) قبل الهجرة.

(٨) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري البجلي، أبو الهيثم (٦٦ - ١٢٦هـ) أمير العراقيين

للأمويين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، وقد جاء في الأصل (السنوي)، والتصويب من

أخبار الظراف للمؤلف ص(١٣٣).

(٩) هو خلف بن خليفة الشاعر.

(١٠) الثقفى الكذاب، ادعى أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب قتل سنة (٦٧هـ).

مُتَخَبِّطًا فِي دَعْوَاهُ، وَقَتَلَ خَلْفًا كَثِيرًا، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْصُرُ الْحُسَيْنَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُتِلَ.

١٣٦٨ - وَمِنْهُمْ حَنْظَلَةُ بْنُ يَزِيدَ الْكُوفِيُّ، كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ دَلِيلَهُ أَنَّهُ يُدْخِلُ الْبَيْضَةَ فِي الْقَيْنِيَّةِ، وَيُخْرِجُهَا مِنْهَا صَحِيحَةً! وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَنْقَعُ الْبَيْضَةَ فِي الْحَلِّ الْحَامِضِ، فَيَلِينُ قَشْرُهَا، ثُمَّ يَصُبُّ مَاءً فِي قَيْنِيَّةِ، ثُمَّ يَدْسُ الْبَيْضَةَ فِيهَا؛ فَإِذَا لَقِيَتِ الْمَاءَ؛ صَلَبَتْ.

١٣٦٩ - وَقَدْ تَنَبَّأَ أَقْوَامٌ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ كَزَرَادَشْتِ^(١) وَمَانِي^(٢) وَافْتَضِحُوا. وَمَا مِنَ الْمُدَّعِينَ إِلَّا مَنْ خُدِلَ.

١٣٧٠ - وَقَدْ جَاءَتْ الْقَرَامِطَةُ^(٣) بِحِيلٍ عَجِيبَةٍ، وَقَدْ ذَكَرْتُ جُمْهُورَ هَوْلَاءِ وَحِيلَهُمْ فِي كِتَابِي التَّارِيخِ الْمُسَمَّى بِ«الْمُنْتَظَمِ»، وَمَا فِيهِمْ مَنْ يَتَمُّ لَهُ أَمْرٌ إِلَّا وَيُفْتَضِحُ.

١٣٧١ - وَدَلِيلُ صِحَّةِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ أَجَلِي مِنَ الشَّمْسِ: فَإِنَّهُ ظَهَرَ فَقِيرًا، وَالْخَلْقُ أَعْدَاؤُهُ، فَوَعِدَ بِالْمُلْكِ فَمَلَكَ، وَأَخْبَرَ بِمَا سَيَكُونُ فَكَانَ، وَصَيَّنَ مِنْ زَمَنِ النُّبُوَّةِ عَنِ الشَّرِّ، وَخَسَّاسَةَ الْهَمَّةِ، وَالْكَذِبِ وَالْكَبْرِ، وَأَيَّدَ بِالثَّقَةِ وَالْأَمَانَةِ وَالنَّزَاهَةِ وَالْعِفَّةِ، وَظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ لِلْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ.

وَأُنزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، الَّذِي حَارَتْ فِيهِ عُقُولُ الْفُصَحَاءِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِثْبَانِ بِأَيَّةٍ تُشْبِهُهُ، فَضَلَّ عَنْ سُورَةٍ، وَقَدْ قَالَ قَائِلُهُمْ وَافْتَضِحَ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا

(١) زرادشت: (٦٢٨ - ٥٥١ ق.م) مصلح ديني فارسي، نبي الزرادشتية ومؤسسها.

(٢) ماني (٢١٦ - ٢٧٤م) زعيم ديني فارسي، دعا إلى الإيمان بعقيدة الثنوية، وقوامها الصراع بين النور والظلام والخير والشر. انظر: إيران في عهد الساسانيين ص (١٦٨ - ١٩٥).

(٣) القرامطة: فرقة من الإسماعيلية الباطنية تنتسب إلى حمدان قرمط، نشطت في سواد العراق ابتداء من سنة ٢٥٨هـ، وجمع حوله كثيراً من الرعاع، وأظهر الكفر والإلحاد، واشتهر أمره حتى مقتله على يد المكتفي العباسي سنة (٢٩٣هـ). لكن بعض أتباعه رحل إلى البحرين فأسس دولة رأسها أبو سعيد الجنابي واجتاحوا مكة أثناء موسم الحج سنة (٣١٧هـ) فقتلوا الحجيج، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه إلى البحرين حتى مزق الله دولتهم وشتت شملهم سنة (٣٣٩هـ) وأعيد الحجر الأسود إلى مكانه، وقد أفاض المؤلف في بيان أخبارهم في تاريخه (المنتظم) واستلها منه الدكتور محمد الصباغ وطبعها في رسالة مفردة.

يُعَارِضُ فِيهِ، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].
 وكذلك قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة]؛ فَمَا تَمَنَّا أَحَدٌ؛ إِذْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ تَمَنَيْتُهُ؛ لَبَطَلْتَ دَعْوَاهُ.

وَكَانَ يَقُولُ لَيْلَةً غَزَاةً بَدْرٍ: «عَدَا مَصْرَعُ فَلَانَ هَاهُنَا»، فَلَا يَتَعَدَاهُ^(١). وَقَالَ: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى؛ فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ؛ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ»^(٢)؛ فَمَا مَلَكَ بَعْدَهُمَا مَنْ لَهُ كَبِيرٌ قَدْرٍ، وَلَا مَنْ اسْتَبَّ لَهُ حَالٌ.

وَمِنْ أَعْظَمِ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِدْقِهِ أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ الدُّنْيَا؛ فَكَانَ يَبِيتُ جَائِعًا^(٣)، وَيُؤَثِّرُ إِذَا وَجَدَ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ^(٤)، وَيَقُومُ اللَّيْلَ^(٥). وَإِنَّمَا تُطَلَّبُ النَّوَامِيسُ لِاجْتِلَابِ الشَّهَوَاتِ، فَلَمَّا لَمْ يُرِدْهَا؛ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ.
 ثُمَّ لَمْ يَزَلْ دِينُهُ يَعْلُو حَتَّىٰ عَمَّ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ الْكُفْرُ فِي زَوَايَا الْأَرْضِ؛ إِلَّا أَنَّهُ مَحْدُولٌ.

١٣٧٢ - وَصَارَ فِي تَابِعِيهِ مِنْ أُمَّتِهِ الْفُقَهَاءَ، الَّذِينَ لَوْ سَمِعَ كَلَامَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ الْقُدَمَاءَ؛ تَحَيَّرُوا فِي حُسْنِ اسْتِخْرَاجِهِمْ، وَالزُّهَادِ الَّذِينَ لَوْ رَأَهُمُ الرَّهْبَانُ؛ تَحَيَّرُوا فِي صِدْقِ زُهْدِهِمْ، وَالْفُطَنَاءِ الَّذِينَ لَا نَظِيرَ لَهُمْ فِي الْقُدَمَاءِ.

١٣٧٣ - أَوْلَيْسَ قَوْمٌ مُوسَىٰ يَعْبُدُونَ بَقْرَةَ، وَيَتَوَقَّفُونَ فِي ذَبْحِ بَقْرَةَ، وَيَعْبُرُونَ الْبَحْرَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا؟! وَقَوْمٌ عِيسَىٰ يَدَّخِرُونَ مِنَ الْمَائِدَةِ، وَقَدْ نُهُوا؟! وَالْمُعْتَدُونَ فِي السَّبَبِ يَعْضُونَ اللَّهَ لِأَجْلِ الْحِيتَانِ؟! وَأَمْتُنَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ سَلِيمَةٌ مِنْ

(١) رواه مسلم (١٧٧٩) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٩) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٨) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٥٧٩٩)، ومسلم (٢٧٤) عن المغيرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (١٨٣ و١١٧)، ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنه.

هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا فِي بَعْضِهَا مِثْلٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ الْمَنْهِيَّةِ عَنْهَا، وَذَلِكَ مِنَ الْفُرُوعِ لَا مِنَ الْأُصُولِ؛ فَإِذَا ذُكِرُوا؛ بَكَوْا وَنَدِمُوا عَلَى تَفْرِيطِهِمْ. فَتَحَمَدُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الدِّينِ، وَعَلَى أَنَّنَا مِنْ أُمَّةٍ هَذَا الرَّسُولِ ﷺ.

١٣٧٤ - وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَنِّعِينَ بِالرُّهْدِ مَالُوا إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالرِّئَاسَةِ، فَاسْتَعْوَاهُمْ الْهَوَى، فَحَرَقُوا ^(١) بِإِظْهَارِ مَا يُشْبَهُ الْكِرَامَاتِ؛ كَالْحَلَّاجِ وَابْنِ الشَّبَّاسِ ^(٢) وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ ذَكَرْتُ حَالَ تَلْبِيسِهِ فِي كِتَابِ (تَلْبِيسِ إِبْلِيسِ) ^(٣) وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِاخْتِلَافِ أَغْرَاضِهِمْ.

١٣٧٥ - وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ يُنْشِئُ فِي هَذَا الدِّينِ مِنَ الْمُفْهَاءِ مَنْ يُظْهِرُ مَا أَخْفَاهُ الْقَاصِرُونَ؛ كَمَا يُنْشِئُ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ مَنْ يَهْتِكُ مَا أَشَاعَهُ الْوَاضِعُونَ؛ حِفْظًا لِهَذَا الدِّينِ، وَدَفْعًا لِلشُّبُهَاتِ عَنْهُ؛ فَلَا يَزَالُ الْفَقِيهُ وَالْمُحَدِّثُ يُظْهِرَانِ عُوَارَ كُلِّ مُلَبَّسٍ بِوَضْعِ حَدِيثٍ، أَوْ بِإِظْهَارِ دَعْوَى تَرْهُدٍ وَتَنْمِيسٍ، فَلَا يُؤَثَّرُ مَا ادَّعَاهُ؛ إِلَّا عِنْدَ جَاهِلٍ بَعِيدٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبُطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

٣١٠ - فصل: السعيد من انتبه لنفسه

١٣٧٦ - وَاعْجَبًا مِنْ مَوْجُودٍ لَا يَفْهَمُ مَعْنَى الْوُجُودِ؛ فَإِنَّ فَهْمَ؛ لَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَى فَهْمِهِ!! يَعْلَمُ أَنَّ الْعُمَرَ قَصِيرٌ، وَهُوَ يُضَيِّعُهُ بِالنُّومِ وَالْبَطَالَةِ وَالْحَدِيثِ الْفَارِغِ وَطَلَبِ اللَّذَاتِ، وَإِنَّمَا أَيَّامُهُ أَيَّامُ عَمَلٍ لَا زَمَانَ فَرَاغٍ.

وَقَدْ كَلَّفَ بَدَلَ الْمَالِ بِمُخَالَفَةِ الطَّبْعِ مِنَ الشَّرْعِ، فَبَخَلَ بِهِ، إِلَى أَنْ تَصَاقِقَ الْخِنَاقُ، فَيَقُولَ حِينَئِذٍ: فَرَّقُوا عَنِّي بَعْدَ مَوْتِي! وَأَفْعَلُوا كَذَا! فَأَيْنَ يَقَعُ هَذَا لَوْ فَعِلَ؟! وَبَعِيدٌ أَنْ يُفْعَلَ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِإِنْفَاقِكَ فِي صِحَّتِكَ مُخَالَفَةَ الطَّبْعِ فِي تَكْلِيفِ مَشَاقِّ

(١) خرَقوا: كذبوا.

(٢) ابن الشَّباس: أبو عبد الله بن علي الحسين البغدادي توفي في البصرة سنة (٤٤٤هـ) أخباره في المنتظم، وقد وقع في الأصل: (ابن الشاش) والتصويب من تلبيس إبليس.

(٣) تلبيس إبليس، ص (٥١١ - ٥١٩).

الإخراج في زمن السّلامَةِ؛ فَافْرُقْ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ إِنْ كَانَ لَكَ فَهْمٌ. فَالسَّعِيدُ مَنْ انْتَبَهَ
لِنَفْسِهِ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ، وَاعْتَمَمَ زَمَنًا نَهَايَتُهُ الزَّمَنُ^(١)، وَأَنْتَهَبَ عُمْرًا، يَا قُرْبَ
انْقِطَاعِهِ!

١٣٧٧ - وَيَحَكَ! مَا تَصْنَعُ بِإِدْخَارِ مَالٍ لَا يُؤَثِّرُ حَسَنَةً فِي صَحِيفَةٍ، وَلَا مَكْرَمَةً
فِي تَارِيخٍ؟! أَمَا سَمِعْتَ بِإِنْفَاقِ أَبِي بَكْرٍ، وَبُخْلِ ثَعْلَبَةَ^(٢)؟! أَمَا رَأَيْتَ تَأْثِيرَ مَدْحِ
حَاتِمِ^(٣)، وَبُخْلِ الْحَبَّابِ^(٤)؟!!

١٣٧٨ - وَيَحَكَ! لَوْ ابْتَلَاكَ فِي مَالِكَ فَقَلَّ؛ لاسْتَعْتَشْتُ، أَوْ فِي بَدَنِكَ لَيْلَةً
بِمَرَضٍ؛ لَشَكُوتُ؛ فَأَنْتَ تَسْتَوْفِي مَطْلُوبَاتِكَ مِنْهُ، وَلَا تَسْتَوْفِي حَقَّهُ عَلَيْكَ، ﴿وَيَلُّ
لِلْمُطَفِّينَ﴾ [المطففين: ١]!

وَلْتَعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْقَدَرَ الْمَفْرَظَ فِيهِ، يُحِلُّ الْخُلُودَ الدَّائِمَ فِي ثَوَابِ الْعَمَلِ فِيهِ،
فَسُبْحَانَ مَنْ عَلَى أَقْوَامٍ فَهَمُّوا الْمُرَادَ، فَأَتَعَبُوا الْأَجْسَادَ، وَعَظَى عَلَى قُلُوبِ
آخَرِينَ، فَوُجُودُهُمْ كَالْعَدَمِ.

وَكَيفَ لَا يُتَعَبُ الْعَاقِلُ بَدَنَهُ إِتْعَابَ الْبُدْنِ^(٥) وَالْمَقْصُودُ مِنِّي؟!!

أَتَرَى مَا بَالُ الْحَقِّ مُتَجَلِّيًا فِي إِيجَادِكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ؟!!

بَلَى وَاللَّهِ؛ إِنَّ وُجُودَكَ دَلِيلٌ وَجُودِهِ، وَإِنَّ نِعْمَهُ عَلَيْكَ دَلِيلٌ جُودِهِ، فَكَمَا قَدَّمَكَ
عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ؛ فَقَدَّمَهُ فِي قَلْبِكَ عَلَى كُلِّ الْمَطْلُوبَاتِ.

وَأَخِيَّةَ مَنْ جَهَلَهُ! وَأَفْقَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ! وَأَذَلَّ مَنْ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ! وَأَحْسَرَةَ مَنْ

اشْتَعَلَ بِغَيْرِ خِدْمَتِهِ!

(١) الزّمن: المرض المقعد الذي لا يرجى برؤه.

(٢) هو ثعلبة بن حاطب: أنصاري بدري، وقصة بخله واهية بالمرّة كما ذكر جمع من أهل العلم
كالحافظ العراقي والهشمي وابن حجر، وقد رواه الطبري بأسانيد ضعيفة جدًا.

(٣) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، أبو عدي أحد أجواد العرب في الجاهلية يضرب المثل
بجوده، توفي سنة (٤٦) قبل الهجرة.

(٤) كان رجلًا بخيلًا لا يوقد نارًا بليل كراهية أن يلقاها من يتنفع بضوئها.

(٥) البدن، جمع بدنة: وهي الناقة.

٣١١ - فصل: ما يسلي عن الدنيا ويهون فراقها

١٣٧٩ - إني أعجب من عاقِلٍ يرى استيلاء الموتِ على أقرانه وجيرانه؛ كيف يطيبُ عيشه؟! خصوصًا إذا علتِ سنُّه!

وا عجبًا لمن يرى الأفاعي تدبُّ إليه، وهو لا ينزعج!! أما يرى الشيخَ ديببَ الموتِ في أعضائه، قد أخرج سكينَ القوى، وأنزل متعسِّم^(١) الضعف، وقلَّب السوادَ بيضاء، ثم في كلِّ يومٍ يزيدُ الناقصُ.

١٣٨٠ - ففي نظرِ العاقِلِ إلى نفسه ما يشغله عن النظرِ إلى خرابِ الدنيا، وفراقِ الإخوان، وإن كان ذلك مُزعجًا، ولكنَّ شغلَ من احترقَ بيته بنقلِ متاعه، يلهيه عن ذكرِ بيوتِ الجيران.

١٣٨١ - وإنه لِمِمَّا يسلي عن الدنيا، ويهونُ فراقها استبدالُ المعارفِ بمن تكثره، فقد رأينا أغنياء كانوا يؤثرون، وفقراء كانوا يصبرون، ومحاسبين لأنفسهم يتورعون: فاستبدل السُّفهاء عن العقلاء، والبخلَاء عن الكرماء.

فيا سهولةَ الرِّحيلِ! لعلَّ النفسَ تلقى من فقدت، فتلحقَ بمن أحبَّت.

٣١٢ - فصل: وهب الله تعالى العقل للإنسان

ليثبت عليه الحجة

١٣٨٢ - نظرتُ في قولِ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْفَلَاحَ وَالشَّرَّاحَ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]... فرأيتُ الجماداتِ كلها قد وُصفت بالسُّجود، واستثنيتُ من العقلاء! فذكرتُ قولَ بعضهم:

مَا جَحَدَ الصَّامِتُ مَنْ أَنْشَأَهُ
وَمِنْ ذَوِي النُّطْقِ أَتَى الْجُحُودُ

(١) المتعسِّم: الجريء الماضي.

فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَقُدْرَةٌ عَظِيمَةٌ، يُوَهَّبُ عَقْلٌ لِلشَّخْصِ، ثُمَّ تُسَلَّبُ فَأَيْدِيهِ! وَإِنَّ هَذَا لِأَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى قَادِرٍ قَاهِرٍ، وَإِلَّا؛ فَكَيْفَ يَحْسُنُ مِنْ عَاقِلٍ أَلَّا يَعْرِفَ بِوُجُودِهِ وَجُودَ مَنْ أَوْجَدَهُ؟! وَكَيْفَ يَنْحِتُ صَنَمًا بِيَدِهِ ثُمَّ يَعْبُدُهُ!؟

عَيْرَ أَنَّ الْحَقَّ ﷻ وَهَبَ لِأَقْوَامٍ مِنَ الْعَقْلِ مَا يُثَبِّتُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَأَعْمَى قُلُوبَهُمْ كَمَا شَاءَ عَنِ الْمَحَجَّةِ^(١).

٣١٣ - فصل: ليتزود العبد على قدر طول السفر

١٣٨٣ - مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ أَدَى لِلْمُؤْمِنِ مِنْ مُخَالَطَةِ مَنْ لَا يَصْلُحُ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ؛ فَإِنَّ لَمْ يَتَشَبَّهْ بِهِمْ، وَلَمْ يَسْرِقْ مِنْهُمْ؛ فَتَرَ عَنْ عَمَلِهِ.

فَإِنَّ رُؤْيَةَ الدُّنْيَا تَحُثُّ عَلَى طَلَبِهَا؛ وَقَدْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتْرًا عَلَى بَابِهِ، فَهَتَكَ^(٢)، وَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟!»، وَلَبَسَ ثَوْبًا لَهُ طَرَاژٌ، فَرَمَاهُ، وَقَالَ: «شَعَلْتَنِي أَعْلَامُهُ»، وَلَبَسَ خَاتَمًا، ثُمَّ رَمَاهُ، وَقَالَ: «نَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ، وَنَظْرَةٌ إِلَيْهِ». وَكَذَلِكَ رُؤْيَةُ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، وَدُورِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، خُصُوصًا لِمَنْ لَهُ نَفْسٌ تَطْلُبُ الرُّفْعَةَ.

١٣٨٤ - وَكَذَا سَمَاعُ الْأَغَانِي، وَمُخَالَطَةُ الصُّوفِيَّةِ، الَّذِينَ لَا نَظَرَ لَهُمْ الْيَوْمَ إِلَّا فِي الرِّزْقِ الْحَاصِلِ، لَوْ كَانَ مِنْ أَيِّ كَانَ؛ قَبْلُوهُ، وَلَا يَتَوَرَّعُونَ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ ظَالِمٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ خَوْفٌ كَمَا كَانَ أَوَائِلُهُمْ؛ فَقَدْ كَانَ سَرِيَّ السَّقَطِيِّ يَبْكِي طُولَ اللَّيْلِ، وَكَانَ يُبَالِغُ فِي الْوَرَعِ، وَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وَرَعٌ سَرِيٍّ، وَلَا لَهُمْ تَعَبُدُ الْجَنِيِّدِ، وَإِنَّمَا ثُمَّ أَكَلُ وَرَفُصٌ، وَبَطَالَةٌ، وَسَمَاعُ أَغَانٍ مِنَ الْمُرْدَانِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ مَنْ يُعْتَبَرُ قَوْلُهُ: حَضَرْتُ مَعَ رَجُلٍ كَبِيرٍ، يُؤْمَأُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَايخِ الرُّبُطِ، وَمُعَنِيهِمْ أَمْرُدٌ، فَقَامَ الشَّيْخُ، وَنَقَطَهُ بَدِينَارٍ عَلَى خَدِّهِ^(٣). وَادَّعَاوَهُمْ أَنْ سَمَاعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَدْعُو إِلَى الْآخِرَةِ فَوْقَ الْكُذْبِ! وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْهُمْ، إِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ جُهَالِ يَنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ^(٤)، فَيَنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ.

(١) المحجة: الطريق المبينة الواضحة. (٢) رواه البخاري (٢٧٩) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) وهبه دينارًا وألصقه على خده كفعل المجان. (٤) يروج عليهم دجلهم.

١٣٨٥ - وَلَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِّنَ الْقُدَمَاءِ يَرَوْنَ أَوَائِلَ الصُّوفِيَّةِ يَتَعَبَّدُونَ، وَيَتَوَرَّعُونَ، فَيُعْجِبُهُمْ حَالُهُمْ، وَهُمْ مَعْدُورُونَ فِي إِعْجَابِهِمْ بِهِمْ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ الْقَوْمِ فِي تَعَبُّدِهِمْ عَلَى غَيْرِ الْجَادَّةِ؛ كَمَا ذَكَرْتُ فِي كِتَابِي الْمُسَمَّى بِ(تَلْبِيسِ إِبْلِيسِ). فَأَمَّا الْيَوْمَ؛ فَقَدْ بَرِحَ ^(١) الْحَفَاءُ؛ أَحَدُهُمْ يَتَرَدَّدُ إِلَى الظَّلْمَةِ، وَيَأْكُلُ أَمْوَالَهُمْ، وَيُصَافِحُهُمْ بِقَمِيصٍ لَيْسَ فِيهِ طِرَازٌ! وَهَذَا هُوَ التَّصَوُّفُ فَحَسْبُ!!

أَوَّلًا يَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ مَنْ زَهَدَ رَفِيعَ الْأَتْوَابِ لِأَجْلِ الْخَلَائِقِ، لَا لِأَجْلِ الْحَقِّ، وَلَا يَزْهَدُ فِي مَطْعَمٍ، وَلَا فِي شُبْهَةٍ؟! فَالْبَعْدُ عَنْ هَؤُلَاءِ لَا زِمَّ.

١٣٨٦ - وَيَنْبَغِي لِلْمُنْفَرِدِ لِبَطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْخَلْقِ إِلَّا يَخْرُجَ إِلَى سُوقِ جَهْدُهُ؛ فَإِنْ خَرَجَ ضَرُورَةً؛ غَضَّ بَصَرَهُ، وَأَلَّا يَزُورَ صَاحِبَ مَنْصِبٍ، وَلَا يَلْقَاهُ؛ فَإِنْ اضْطُرَّ؛ دَارَى الْأَمْرَ، وَلَا يُخَالِطُ عَامِّيًّا إِلَّا لِضَرُورَةٍ مَعَ التَّحَرُّزِ، وَلَا يَفْتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ التَّرَوُّجِ، بَلْ يَقْنَعُ بِأَمْرَةٍ فِيهَا دِينٌ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا فِي أَعْيُنِ الْعَيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ
يَسُرُّ مَقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

١٣٨٧ - فَإِنْ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْعِلْمُ؛ انْفَرَدَ بِدِرَاسَتِهِ، وَاحْتَرَزَ مِنَ الْأَتْبَاعِ الْمُتَعَلِّمِينَ، وَإِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْعِبَادَةُ؛ زَادَ فِي احْتِرَازِهِ! وَلِيَجْعَلَ خُلُوتَهُ أَيْسَهُ، وَالنَّظَرَ فِي سِيرِ السَّلَفِ جَلِيسَهُ! وَلِتَكُنْ لَهُ وَظِيفَةٌ مِنْ زِيَارَةِ قُبُورِ الصَّالِحِينَ وَالْخُلُوةِ بِهَا! وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَفُوتَهُ وَرْدُ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَلِيَكُنْ بَعْدَ التَّصْفِ الْأَوَّلِ؛ فَلْيُطِلْ مَهْمَا قَدَرَ؛ فَإِنَّهُ زَمَانٌ بَعِيدُ الْمَثَلِ! وَلِيُمَثِّلْ رَحِيلَهُ عَنْ قُرْبٍ؛ لِيَقْصُرَ أَمَلُهُ! وَلِيَتَزَوَّدَ فِي الطَّرِيقِ عَلَى قَدْرِ طُولِ السَّفَرِ!

نَسَأَلُ اللَّهَ ﷻ يَقِظَةً مِنْ فَضْلِهِ، وَإِقْبَالًا عَلَى خِدْمَتِهِ، وَأَلَّا يَخْدِلَنَا بِالْأَلْتِمَاتِ عَنْهُ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

(١) برح: ظهر.

١٣٨٨ - كُلَّمَا نَظَرْتُ فِي تَوَاصِلِ النِّعَمِ عَلَيَّ؛ تَحَيَّرْتُ فِي شُكْرِهَا! وَأَعْلَمُ أَنَّ الشُّكْرَ مِنَ النِّعَمِ؛ فَكَيْفَ أَشْكُرُ^(١)؟! لِكِنِّي مُعْتَرِفٌ بِالتَّقْصِيرِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اعْتِرَافِي قَائِمًا بِبَعْضِ الْحُقُوقِ.

وَعِنْدِي خَلَّةٌ^(٢) أَرْجُو بِهَا كُلَّ خَيْرٍ، وَهِيَ أَنَّ مَنْ يَصُومُ أَوْ يُصَلِّي يَرَى أَنَّهُ تَعَبَدَ، وَيَخْدُمُ كَأَنَّهُ يَقْضِي حَقَّ الْمَخْدُومِ، وَأَنَا أَرَى أَنِّي إِذَا صَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ؛ فَإِنَّمَا قُمْتُ أَكْثَرُ^(٣)؛ فَلِنَفْسِي أَعْمَلُ؛ إِذِ الْمَخْدُومُ غَنِيٌّ عَنِّي عَنِ طَاعَتِي.

وَكَانَ بَعْضُ الْمَشَائِخِ يَقُولُ: جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»^(٤)، وَأَنَا أَقُولُ: الْعِبَادَةُ دُعَاءٌ.

١٣٨٩ - فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَقِفُ لِلْخِدْمَةِ يَسْأَلُ حَظَّ نَفْسِهِ؛ كَيْفَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ شَيْئًا؟! إِنَّمَا أَنْتَ فِي حَاجَتِكَ، وَمِنَّهُ مَنْ أَيْقَظَكَ، لَا تُقَاوِمُهَا خِدْمَتَكَ؛ فَأَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

يَا مُنْتَهَى الْأَمَالِ أَنُّ	تَ كَفَلْتَنِي وَحَفِظْتَنِي
وَعَدَا الزَّمَانَ عَلَيَّ كَيْ	يَجْتَا حَنِي فَمَنْعْتَنِي
فَأَنْقَادَ لِي مُتَخَشُّعًا	لَمَّا رَأَاكَ نَصَرْتَنِي
وَكَسَوْتَنِي ثَوْبَ الْغِنَى	وَمِنَ الْمُغَالِبِ صُنْتَنِي
فَإِذَا سَكَتُ بَدَأْتَنِي	وَإِذَا سَأَلْتُ أَجَبْتَنِي
فَإِذَا شَكَرْتُكَ زِدْتَنِي	فَمَنْحَتَنِي وَبَهَرْتَنِي
أَوْ إِنْ أَجَدُ بِالْمَالِ فَسَالُ	أَمْوَالُ أَنْتَ أَفْدَتَنِي

(١) شكر الله تعالى في امثال أوامره واجتناب نواهيه.

(٢) الخلة: الخصلة.

(٣) أكدي: أستجدي.

(٤) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمان بن بشير بلفظ: «الدعاء هو العبادة».

١٣٩٠- رَأَيْتُ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ يَتَشَاغَلُونَ بِصُورَةِ الْعِلْمِ؛ فَهَمُّ الْفَقِيهِ التَّدْرِيسُ، وَهَمُّ الْوَاعِظِ الْوَعْظُ.

فَهَذَا يُرَاعِي دَرَسَهُ، فَيَفْرَحُ بِكَثْرَةِ مَنْ يَسْمَعُهُ، وَيَقْدَحُ فِي كَلَامِ مَنْ يُخَالِفُهُ، وَيَمْضِي زَمَانَهُ فِي التَّفَكُّرِ فِي الْمُنَاقَصَاتِ؛ لِيَقْهَرَ مَنْ يُجَادِلُهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى التَّصَدُّرِ وَالْإِرْتِفَاعِ فِي الْمَجَالِسِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ هِمَّتُهُ جَمَعَ الْحُطَامِ وَمُخَالَطَةَ السَّلَاطِينِ!

وَالْوَاعِظُ هِمَّتُهُ مَا يُرَوِّقُ بِهِ كَلَامَهُ، وَيُكَثِّرُ [به] جَمْعَهُ، وَيَجْلِبُ بِهِ قُلُوبَ النَّاسِ إِلَى تَعْظِيمِهِ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ نَظِيرٌ فِي شُعْلِهِ؛ أَخَذَ يَطْعَنُ فِيهِ.

وَهَذِهِ قُلُوبٌ غَافِلَةٌ عَنِ اللَّهِ ﷻ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ لَهَا بِهِ مَعْرِفَةٌ؛ لَاسْتَعَلَّتْ بِهِ، وَكَانَ أَنْسَاهَا بِمُنَاجَاتِهِ، وَإِثَارُهَا لِطَاعَاتِهِ، وَإِقْبَالُهَا عَلَى الْخُلُوةِ بِهِ. لَكِنَّهَا لَمَّا خَلَتْ مِنْ هَذَا؛ تَشَاغَلَتْ بِالْدُنْيَا، وَذَلِكَ دُنْيَا مِثْلُهَا؛ فَإِذَا خَلَتْ بِخِدْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لَمْ تَجِدْ لَهَا طَعْمًا، وَكَانَ جَمْعُ النَّاسِ أَحَبَّ إِلَيْهَا، وَزِيَارَةُ الْخَلْقِ لَهَا أَثَرٌ عِنْدَهَا. وَهَذِهِ عَلَامَةُ الْخِذْلَانِ.

١٣٩١- وَعَلَى ضِدِّ هَذَا؛ مَتَى كَانَ الْعَالِمُ مُقْبِلًا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، مَشْغُولًا بِطَاعَتِهِ؛ كَانَ أَضْعَبَ الْأَشْيَاءِ عِنْدَهُ لِقَاءَ الْخَلْقِ وَمُحَادَثَتِهِمْ، وَأَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ الْخُلُوةُ، وَكَانَ عِنْدَهُ شُغْلٌ عَنِ الْقَدْحِ فِي النَّظَرِ^(١)، أَوْ عَنِ طَلَبِ الرَّئَاسَةِ؛ فَإِنَّ مَا عَلَّقَ بِهِ هِمَّتَهُ مِنَ الْآخِرَةِ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ.

١٣٩٢- وَالنَّفْسُ لَا بُدَّ لَهَا مِمَّا تَشَاغَلُ بِهِ؛ فَمَنْ اشْتَعَلَ لِخِدْمَةِ الْخَلْقِ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّمَا يُرَبِّي رِئَاسَتَهُ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الْإِعْرَاضَ عَنِ الْحَقِّ، وَ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

(١) في الأصل: النظر، وهو تصحيف.

١٣٩٣ - قَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ: اللَّهُمَّ! أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ! وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ غَايَةٌ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَرَوْنَ الْأَشْيَاءَ بِعَيْنِهَا؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْفَانِي كَأَنَّهُ بَاقٍ، وَلَا يَكَادُونَ يَتَحَايِلُونَ زَوَالَ مَا هُمْ فِيهِ؛ وَإِنْ عَلِمُوا ذَلِكَ؛ إِلَّا أَنَّ عَيْنَ الْحِسِّ مَشْغُولَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَاضِرِ. أَلَا تَرَى زَوَالَ اللَّذَّةِ، وَبَقَاءَ إِثْمِهَا؟! وَلَوْ رَأَى اللَّصُّ قَطَعَ يَدَهُ؛ هَانَ عِنْدَهُ الْمَسْرُوقُ.

فَمَنْ جَمَعَ الْأَمْوَالَ، وَلَمْ يُنْفِقْهَا؛ فَمَا رَأَاهَا بِعَيْنِهَا؛ إِذْ هِيَ آلَةٌ لِتَحْصِيلِ الْأَعْرَاضِ، لَا تَرَادُ لِذَاتِهَا.

وَمَنْ رَأَى الْمَعْصِيَةَ بِعَيْنِي الشَّهْوَةِ؛ فَمَا رَأَاهَا؛ إِذْ فِيهَا مِنَ الْعُيُوبِ مَا شِئْتَ، ثُمَّ ثَمَرْتُهَا عُقُوبَةٌ آجِلَةٌ، وَفَضِيحَةٌ عَاجِلَةٌ.

١٣٩٤ - وَانْظُرْ إِلَى أَكْبَرِ شَهَوَاتِ الْحِسِّ، وَهُوَ الْوِطْءُ! فَإِنَّ الْمَاءَ لَا يَحْضُلُ إِلَّا بَعْدَ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ. وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الْمَطْعَمِ؛ نَظَرَ إِلَى حَرْثِ الْأَرْضِ، وَأَنَّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى بَقَرٍ لِلْحِرَاثَةِ عَلَيْهِنَّ بِالْمِحْرَاثِ، وَهُوَ حَدِيدٌ، وَمَعَهُ خَشَبٌ، وَتَتَعَلَّقُ بِهِ حِبَالٌ، فَمَنْ تَفَكَّرَ فِي عَمَلِ الْحِبَالِ؛ نَظَرَ فِي زَرْعِ الْقَنْبِ وَتَسْرِيحِهِ وَقَتْلِهِ، وَالْحَدِيدِ وَجَلْبِهِ وَضَرْبِهِ، وَالْخَشَبِ وَنَبَاتِهِ وَنَجَارَتِهِ، وَدَوْرَانِ الدُّوَلَابِ وَعَمَلِهِ، ثُمَّ اسْتَحْصَادِ الزَّرْعِ، وَحَضِيدِهِ، وَتَذْرِيبَتِهِ، وَطْحِينِهِ، وَعَجْنِهِ، وَخَبْزِهِ، وَمِنْ عَمَلِ التَّنُورِ، وَجَلْبِ الشُّوكِ. وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ إِذَا نَظَرَ فِيهِ كَثْرًا جَدًّا، حَتَّى قَالُوا: لَا تَنَالُ لُقْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَمِلَ فِيهَا ثَلَاثَ مِئَةِ نَفْسٍ أَوْ نَحْوِهِمْ. فَإِذَا أَكَلَ تِلْكَ اللَّقْمَةَ؛ فَلْيُفَكِّرْ فِي خَلْقِ الْأَسْنَانِ لِقَطْعِهَا، وَالْأَضْرَاسِ لِطْحِينِهَا، وَعُدُوبَةِ مَاءِ الْفَمِ لِخَلْطِهَا، وَاللِّسَانِ لِيَقْلِبِهَا، وَعَضَلَاتِ الْفَمِ يَصْعَدُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَيَبْقَى شَيْءٌ، حَتَّى يَصْلَحَ الْبَلْعُ، ثُمَّ يَتَنَاوَلُهَا الْمَعْيُ، فَيُوصِلُهَا إِلَى الْكَبِدِ، فَيَقُومُ طَابِحًا لَهَا؛ فَإِذَا صَارَتْ دَمًا؛ نَفَتْ رُسُوبَهَا إِلَى الطَّحَالِ، وَمَائِيَّتِهَا إِلَى الْمَثَانَةِ، وَاسْتَخْلَصَتْ مِنْ أَخْلَصِ الدَّمِ وَأَصْفَاهُ لِلْكَبِدِ وَالِدَّمَاعِ وَالْقَلْبِ، وَأَخَذَتْ أَجُودَ ذَلِكَ، فَحَدَرَتْهُ إِلَى الْأَنْثِيِّينَ مُعَدًّا لِخَلْقِ آدَمِيِّ.

فَإِذَا تَحَرَّكَتْ نِيرَانُ الشَّهْوَةِ؛ تَدَفَّقَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ، وَقَدْ حَكَمَ الشَّرْعُ بِطَهَارَتِهَا،

وَحَكَمَ لَهَا بِطَهَارَةِ الرَّجْمِ، وَالْمَحَلِّ الَّذِي يُبَاشِرُهُ الذَّكْرُ، فَيُخْلَقُ مِنْهَا الْآدَمِيُّ الْمُوَحَّدُ.
فَمَا جَاءَ هَذَا الشَّخْصُ إِلَّا بِأَعْلَى الْغَلَاءِ، وَبَعْدَ عَجَائِبِ أَشْرَانَا إِلَيْهَا، لَا أَنَا
عَدَدْنَاها!!

١٣٩٥ - أَفَمَنْ فَهَمَ هَذَا يَحْسُنُ مِنْهُ أَنْ يُبَدَّدَ تِلْكَ النُّظْفَةَ فِي حَرَامٍ؟ أَوْ أَنْ يَطَأَ
فِي مَحَلٍّ نَجِسٍ فَتَضِيعٌ؟! فَكَمْ يَتَعَلَّقُ بِالزَّانَا مِنْ مَحَنٍ لَا يَفِي مِعْشَارُ عَشْرِيهَا بِلَذَّةِ
لِحْظَةٍ! مِنْهَا: هَتِكُ الْعَرِضِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَشْفُ الْعَوْرَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَخِيَانَةُ الْأَخِ
الْمُسْلِمِ فِي زَوْجَتِهِ إِنْ كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً، وَفَضِيحَةُ الْمَرْئِي بِهَا، وَهِيَ كَأَخْتٍ لَهْ أَوْ بِنْتٍ.
فَإِنْ عَلِقَتْ مِنْهُ وَلَهَا زَوْجٌ؛ أَلْحَقْتَهُ بِذَلِكَ الزَّوْجِ، وَكَانَ هَذَا الزَّانِي سَبِيًّا فِي مِيرَاثٍ مَنْ
لَا يَسْتَحِقُّ، وَمَنْعٍ مَنْ يَسْتَحِقُّ، ثُمَّ يَتَسَلَّلُ ذَلِكَ مِنْ وَلَدٍ إِلَى وَلَدٍ.

وَأَمَّا سَخَطُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ فَمَعْلُومٌ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشَّرْكِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ
تَعَالَى مِنْ نُظْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لَا تَحِلُّ لَهُ»^(١).

١٣٩٦ - وَمَنْ لَهُ فَهْمٌ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ النُّظْفَةِ إِيْجَادُ الْمُوَحَّدِينَ. وَلَوْ لَا
تَرْكِيْبُ الشَّهْوَةِ؛ لَمْ يَقَعِ الْوَطْءُ؛ لِأَنَّهُ التَّقَاءُ عَضْوَيْنِ غَيْرِ مُسْتَحْسِنِينَ، وَلَا صُورَتُهُمَا
حَسَنَةٌ، وَلَا رِيْحُهُمَا طَيِّبٌ، وَإِنَّمَا الشَّهْوَةُ تُغْطِي عَيْنَ النَّاطِرِ؛ لِيَحْصَلَ الْوَلَدُ أَضْلًا؛
فِيهَا عَارِضٌ. فَمَنْ طَلَبَ الشَّهْوَةَ، وَنَسِيَ جِنَايَتَهُ بِالزَّانَا؛ فَمَا رَأَى الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا
هِيَ^(٢). وَقَسَّ عَلَى هَذَا الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَجَمَعَ الْمَالَ وَغَيْرَ ذَلِكَ.

٣١٧ - فصل: الفائدة في خلق ما يؤدي

١٣٩٧ - إِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي خَلْقِ مَا يُؤْذِي؟! فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ قَدْ ثَبَّتَتْ
حِكْمَةَ الْخَالِقِ؛ فَإِذَا خَفِيَتْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ؛ وَجَبَ التَّسْلِيمُ، ثُمَّ إِنَّ الْمُسْتَحْسِنَاتِ فِي

(١) رواه ابن أبي الدنيا، وفي سنده بقية (ضعيف).

(٢) لذا قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الْجُمْلَةَ أُنْمُوذَجَ مَا أُعِدَّ مِنَ الثَّوَابِ، وَالْمُؤْذِيَاتِ أُنْمُوذَجَ مَا أُعِدَّ مِنَ الْعِقَابِ. وَمَا خُلِقَ شَيْءٌ يَضُرُّ؛ إِلَّا وَفِيهِ مَنَفَعَةٌ.

١٣٩٨ - قِيلَ لِبَعْضِ الْأَطْبَاءِ: إِنْ فَلَانًا يَقُولُ: أَنَا كَالْعَقْرَبِ أَضُرُّ وَلَا أَنْفَعُ؟ فَقَالَ: مَا أَقَلَّ عِلْمُهُ! إِنَّهَا لَتَنْفَعُ إِذَا شَقَّ بَطْنُهَا، ثُمَّ شُدَّتْ عَلَى مَوْضِعِ اللَّسْعَةِ. وَقَدْ تَوَضَّعُ فِي جَوْفِ فَخَّارٍ مَسْدُودِ الرَّأْسِ، مُطَبَّقِ الْجَوَانِبِ، ثُمَّ يُوَضَّعُ الْفَخَّارُ فِي تَنْوَرٍ؛ فَإِذَا صَارَتْ رَمَادًا؛ سُقِيَ مِنْ ذَلِكَ الرَّمَادِ مِقْدَارَ نِصْفِ دَانِقٍ^(١) أَوْ أَكْثَرَ مَنْ بِهِ الْحِصَاءُ، فَيَفْتَتُّهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضُرَّ بِشَيْءٍ مِنْ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ! وَقَدْ تَلَسَّعَ الْعَقْرَبُ مَنْ بِهِ حُمَّى عَتِيْقَةٌ فَتَزُولُ. وَلَسَعَتْ رَجُلًا مَفْلُوجًا، فَزَالَ عَنْهُ الْفَالِجُ^(٢). وَقَدْ تَلَقَّى فِي الدُّهْنِ، حَتَّى يَجْتَدِبَ قَوَاهَا، فَيَزِيلُ ذَلِكَ الدُّهْنَ الْأَوْرَامَ الْغَلِيْظَةَ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ. فَالْجَاهِلُ عَدُوٌّ لِمَا جِهَلَهُ، وَأَكْبَرُ الْحَمَاقَةِ رُدُّ الْجَاهِلِ عَلَى الْعَالِمِ.

٣١٨ - فصل: كلما أوغلت الفهوم في معرفة الخالق

تاھت في محبته

١٣٩٩ - كَلَّمَا أَوْغَلَتِ الْفُهُومُ فِي مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ، فَشَاهَدَتِ عَظَمَتَهُ وَلُطْفَهُ وَرَفَعَتُهُ؛ تَاهَتْ فِي مَحَبَّتِهِ، فَخَرَجَتْ عَنْ حَدِّ الثُّبُوتِ. وَقَدْ كَانَ خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ مَحَبَّتُهُ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى مُخَالَطَةِ الْخَلْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى السُّكُوتِ عَنِ الذِّكْرِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَمْ يَنْمِ إِلَّا غَلْبَةً، وَفِيهِمْ مَنْ هَامَ فِي الْبَرَارِيِّ، وَفِيهِمْ مَنْ احْتَرَقَ فِي بَدَنِهِ. فَيَا حُسْنَ مَحْمُورِهِمْ مَا أَلَدَّ سُكْرَهُ! وَيَا عَيْشَ قَلْبِهِمْ مَا أَحْسَنَ وَجْدَهُ!

١٤٠٠ - كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ الْخَوَاصِّ^(٣) قَدْ غَلَبَهُ الْوَجْدُ، فَكَانَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ يَقُولُ: وَاشْوَقَاهُ إِلَى مَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ.

١٤٠١ - وَكَانَ فُتْحُ بْنُ شَحْرَفٍ^(٤) يَقُولُ: قَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْكَ؛ فَعَجَّلْ قُدُومِي عَلَيْكَ.

(١) الدانق: سدس درهم، والدراهم = ٣,٢٢ غ.

(٢) الفالج: شلل يصيب أحد شقي البدن، وربما كان في الشقين، فيبطل الإحساس والحركة.

(٣) عباد بن عباد، واعظ له أقوال مأثورة.

(٤) أبو نصر الخراساني المروزي أحد العباد، توفي سنة (٢٧٣هـ).

١٤٠٢ - وَكَانَ قَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ ^(١) كَأَنَّهُ مَحْمُورٌ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ .

١٤٠٣ - وَكَانَ ابْنُ عَقِيلٍ يَقُولُ: إِنَّ التَّبَدُّلَ ^(٢) فِيهِ سُبْحَانَهُ أَحْسَنُ مِنَ التَّجْمُلِ فِي غَيْرِهِ .

١٤٠٤ - هَلْ رَأَيْتَ فَطْرَ عُرَاةٍ أَحْسَنَ مِنَ الْمُحْرَمِينَ؟! هَلْ رَأَيْتَ لِلْمُتَزَيِّنِينَ بَرِيَاشِ

الدُّنْيَا [سَمْتًا] كَأَثْوَابِ الصَّالِحِينَ؟! هَلْ رَأَيْتَ خُمَارًا ^(٣) أَحْسَنَ مِنْ نِعَاسِ الْمُتَهَجِّدِينَ؟! هَلْ رَأَيْتَ سُكْرًا أَحْسَنَ مِنْ صَعَقِ الْوَاجِدِينَ؟! هَلْ شَاهَدْتَ مَاءً صَافِيًا أَضْفَى مِنْ دُمُوعِ الْمُتَأَسِّفِينَ؟! هَلْ رَأَيْتَ رُؤُوسًا مَائِلَةً كَرُؤُوسِ الْمُنْكَسِرِينَ؟! هَلْ لَصِقَ بِالْأَرْضِ شَيْءٌ أَحْسَنَ مِنْ جِبَاهِ الْمُصَلِّينَ؟! هَلْ حَرَكَ نَسِيمَ الْأَسْحَارِ أَوْ رَاقَ الْأَشْجَارِ، فَبَلَغَ مَبْلَغَ تَحْرِيكِهِ أَذْيَالَ الْمُتَهَجِّدِينَ؟! هَلْ ارْتَفَعَتْ أَكْفُفٌ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدٍ، فَضَاهَتْ أَكْفُفَ الرَّاعِيينَ؟! هَلْ حَرَكَ الْقُلُوبَ صَوْتُ تَرْجِيحِ لَحْنٍ أَوْ رَنَّةِ وَتَرٍ كَمَا حَرَكَ حَنِينُ الْمُشْتَاقِينَ؟! وَإِنَّمَا يَحْسُنُ التَّبَدُّلُ فِي تَحْصِيلِ أَوْفَى الْأَغْرَاضِ؛ فَلِذَلِكَ حَسَنَ التَّبَدُّلِ فِي خِدْمَةِ الْمُنْعَمِ .

٣١٩ - فصل: في سبب تبذير الولاية

١٤٠٥ - الْوِلَاةُ [أَكْثَرُهُمْ ^(٤)] لَا يَعْرِفُ الدِّينَ، وَلَا يَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ، فَإِذَا كَانَ أَضْلُ

خِلْقَتِهِ سَيِّئَ الْعَقْلِ، وَلَمْ يُرْزَقْ مَعَ هَذَا السُّوءِ مَا يَهْدُبُ طَبْعَهُ، وَيُنْضِجُ فِكْرَهُ، فَكَيْفَ يُرْتَقِبُ الْخَيْرَ؟ إِنَّ الْعَقْلَ يَنْمُو بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّحْصِيلِ وَالدُّرْبَةِ، وَالْمِرَانَ مَعَ دَوَامِ الْعَمَلِ .

أَجَلِ ^(٥) أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْرِفُ الدِّينَ، وَلَا يَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ بِمَرَّةٍ، تَتَّفِقُ لَهُ قَلَّةُ الْعَقْلِ

فِي أَضْلِ الْوَضْعِ، ثُمَّ ذَلِكَ الْقَلِيلُ لَا يُعَاوَنُ، بَلْ يُعَانُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَارِحَةَ إِذَا دَامَ تَعَطُّلُهَا عَنْ عَمَلِهَا الَّذِي هَيَّئَتْ لَهُ؛ تَعَطَّلَتْ وَحَمَدَتْ، وَلِهَذَا تَنْقُصُ أَبْصَارُ النَّسَاجِ وَالرَّفَاقِينَ ^(٦)، وَتَحْتَدُّ أَبْصَارُ أَهْلِ الْبَوَادِي؛ لِأَنَّهُ لَا صَادَّ لِأَبْصَارِهِمْ .

(١) أبو محمد الأسدي الكوفي (٩٠ - ١٦٧هـ)، أحد أوعية العلم على ضعف فيه من قبل حفظه .

(٢) التبذل: أن يلبس الإنسان لباس الخدمة والعمل .

(٣) الخمار: بضم الخاء المعجمة: ما يعقب شرب الخمر من صداع وأذى .

(٤) أي الولاية . (٥) زيادة من حاشية (أ) .

(٦) الذي يخيظ الثياب ويصلحها .

وَشُغْلُ الْعَقْلِ التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ الْأَحْوَالِ، وَالْأَسْتِدْلَالُ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ، وَهَوْلَاءِ يَمْتَلِئُونَ مِنَ الطَّعَامِ دَائِمًا، وَذَلِكَ يُؤْذِي الْعَقْلَ، ثُمَّ يُطِيلُونَ النَّوْمَ؛ فَإِذَا انْتَبَهُوا؛ شَرِبُوا الْمُسْكِرَ، فَاتَّفَقَ لِلْعَقْلِ تَعْطِيلٌ وَتَعْطِيَةٌ، فَسَاءَ التَّدْبِيرُ.

٣٢٠ - فصل: تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم مخاطرة

١٤٠٦ - مِنَ الْمُخَاطَرَاتِ الْعَظِيمَةِ تَحْدِيثُ الْعَوَامِّ بِمَا لَا تَحْتَمِلُهُ قُلُوبُهُمْ أَوْ بِمَا قَدْ رَسَخَ فِي نُفُوسِهِمْ ضِدُّهُ. مِثَالُهُ: أَنَّ قَوْمًا قَدْ رَسَخَ فِي قُلُوبِهِمُ التَّشْبِيهُ، وَأَنَّ ذَاتَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ مُلَاصِقَةٌ لِلْعَرْشِ! وَهِيَ بِقَدْرِ الْعَرْشِ، وَيَفْضَلُ مِنَ الْعَرْشِ أَرْبَعُ أَصَابِعَ! وَسَمِعُوا مِثْلَ هَذَا مِنْ أَشْيَاحِهِمْ، وَتَبَّتْ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ وَأَنْتَقَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَخَلَّتْ مِنْهُ سِتُّ سَمَاوَاتٍ!!

١٤٠٧ - فَإِذَا دُعِيَ أَحَدُهُمْ إِلَى التَّنْزِيهِ، وَقِيلَ لَهُ: لَيْسَ كَمَا خَطَرَ لَكَ، إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُمَرَّ الْأَحَادِيثَ كَمَا جَاءَتْ؛ مِنْ غَيْرِ مُسَاكَنَةٍ مَا تَوَهَّمْتَهُ؛ صَعَبَ هَذَا عَلَيْهِ لَوْجَهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: لِعَلْبَةِ الْحِسِّ عَلَيْهِ، وَالْحِسُّ عَلَى الْعَوَامِّ أَغْلَبُ. وَالثَّانِي: لِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاحِ، الَّذِينَ كَانُوا أَجْهَلَ مِنْهُ. فَالْمُخَاطَبُ بِهَذَا مُخَاطَرٌ بِنَفْسِهِ.

١٤٠٨ - وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ مَنْ كَانَ يَتَدَيَّنُ مِمَّنْ قَدْ رَسَخَ فِي قَلْبِهِ التَّشْبِيهُ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ شَيْئًا مِنَ التَّنْزِيهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ؛ لَوْ قَدِرْتُ عَلَيْهِ؛ لَقَتَلْتَهُ.

فَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تُحَدِّثَ مُخْلُوقًا مِنَ الْعَوَامِّ بِمَا لَا يَحْتَمِلُهُ [دُونَ احْتِيَالٍ وَتَلَطُّفٍ]؛ فَإِنَّهُ لَا يَزُولُ مَا فِي نَفْسِهِ، وَيُخَاطَرُ الْمُحَدِّثُ لَهُ بِنَفْسِهِ. فَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَصُولِ.

٣٢١ - فصل: الرجل هو الذي يحفظ الحدود ويخلص العمل

١٤٠٩ - لَا يَغُرَّكَ مِنَ الرَّجُلِ طَنْطِنْتُهُ^(٢)، وَمَا تَرَاهُ يَفْعَلُ مِنْ صَلَاةٍ وَصَوْمٍ وَصَدَقَةٍ وَعُرْزَةٍ! إِنَّمَا الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُرَاعِي شَيْئَيْنِ: حِفْظَ الْحُدُودِ، وَإِخْلَاصَ الْعَمَلِ.

(٢) طنطنته: شهرته.

(١) زيادة من (أ).

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مُتَعَبِّدًا يَخْرِقُ الْحُدُودَ بِالْغَيْبَةِ، وَفِعْلَ مَا لَا يَجُوزُ مِمَّا يُوَافِقُ هَوَاهُ،
وَكَمْ قَدْ اعْتَبَرْنَا عَلَى صَاحِبِ دِينٍ أَنَّهُ يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى! وَهَذِهِ الْأَفَةُ تَزِيدُ
وَتَنْقُصُ فِي الْخَلْقِ.

قُرْبٌ ^(١) خَاشِعٌ لِيُقَالَ: نَاسِكٌ! وَصَامِتٌ لِيُقَالَ: خَائِفٌ! وَتَارِكٌ لِلدُّنْيَا لِيُقَالَ:
زَاهِدٌ!

فَالرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ هُوَ الَّذِي يُرَاعِي حُدُودَ اللَّهِ، وَهِيَ مَا فُرِضَ عَلَيْهِ، وَأُلْزِمَ
بِهِ، وَيُحْسِنُ الْقَصْدَ، فَيَكُونُ عَمَلُهُ وَقَوْلُهُ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى، لَا يُرِيدُ الْخَلْقَ وَلَا
تَعْظِيمَهُمْ لَهُ.

١٤١٠ - وَعَلَامَةُ الْمُخْلِصِ أَنْ يَكُونَ فِي جَلَوْتِهِ كَخَلَوْتِهِ، وَرُبَّمَا تَكَلَّفَ بَيْنَ
النَّاسِ التَّبَسُّمَ وَالْإِنْبِسَاطَ، لِيَنْمَحِيَ عَنْهُ اسْمُ الرَّاهِدِ؛ فَقَدْ كَانَ ابْنُ سِيرِينَ يَضْحَكُ
بِالنَّهَارِ؛ فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ؛ فَكَأَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَعْمُولَ ^(٢) مَعَهُ لَا يُرِيدُ الشُّرَكَاءَ؛ فَالْمُخْلِصُ مُفْرِدٌ لَهُ بِالْقَصْدِ،
وَالْمُرَائِي قَدْ أَشْرَكَ لِيَحْصَلَ لَهُ مَدْحُ النَّاسِ، وَذَلِكَ يَنْقَلِبُ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ بِيَدِ مَنْ أَشْرَكَ
مَعَهُ؛ فَهُوَ يُقَلِّبُهَا عَلَيْهِ لَا إِلَيْهِ.

فَالْمَوْفِقُ مَنْ كَانَتْ مُعَامَلَتُهُ بَاطِنَةً، وَأَعْمَالُهُ خَالِصَةً، وَذَلِكَ الَّذِي تُحِبُّهُ النَّاسُ،
وَإِنْ لَمْ يَبَالِغْ ^(٣)؛ كَمَا يَمُقْتُونَ الْمُرَائِي، وَإِنْ زَادَ تَعَبُّدَهُ.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ الْمَوْصُوفَ بِهَذِهِ الْخِصَالِ لَا يَتَنَاهَى عَنِ كَمَالِ الْعُلُومِ، وَلَا يُقْصِرُ
عَنِ طَلَبِ الْفَضَائِلِ؛ فَمَلَأَ الزَّمَانَ أَكْثَرَ مَا يَسَعُهُ مِنَ الْحَيْرِ، وَقَلْبُهُ لَا يَقْتَرُّ عَنِ الْعَمَلِ
الْقَلْبِيِّ، إِلَى ^(٤) أَنْ [يَصِيرَ] شُغْلُهُ بِالْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حَبِّ الصَّيِّتِ ٣٢٢ - فصل:

١٤١١ - رَأَيْتُ خَلْقًا يُفَرِّطُونَ فِي أَدْيَانِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: أَحْمِلُونَا إِذَا مِتْنَا إِلَى

(١) فِي الْأَصْلِ: فَرِيمًا، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

(٢) يَعْنِي: اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٣) فِي الْأَصْلِ: إِلَّا.

(٤) فِي الْأَصْلِ: وَإِنْ كَرِهُوا أَنْ يَقْلُدُوا بِهِ.

مَقْبَرَةَ أَحْمَدَ (١) ، أَتَرَاهُمْ مَا سَمِعُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ائْتَمَعَ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ مِنْ عَلِيهِ دِينَ (٢) وَعَلَى الْعَالِ، وَقَالَ: «مَا يَنْفَعُهُ صَلَاتِي عَلَيْهِ» (٣) ؟

١٤١٢ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ الْعُلَمَاءِ حَمَلَهُمْ حُبُّ الصَّيِّتِ عَلَيَّ أَنْ اسْتَخْرَجُوا إِذْنَا مِنَ السُّلْطَانِ، فَدَفِنُوا فِي دَكَّةٍ (٤) أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ هُنَاكَ خَلْقًا [رُفَاتٌ] بَعْضُهُمْ عَلَيَّ بَعْضٍ، وَمَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا يَسْتَحِقُّ الْقُرْبَ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ! فَأَيْنَ احْتِقَارُ النَّفْسِ؟! أَمَا سَمِعُوا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ. قِيلَ لَهُ: تُدْفَنُ فِي الْحُجْرَةِ (٥)؟! فَقَالَ: لِأَنَّ أَلْفَى اللَّهِ بِكُلِّ ذَنْبٍ - مَا خَلَا الشَّرْكَ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَى نَفْسِي أَهْلًا لِذَلِكَ!؟

لَكِنَّ الْعَادَاتِ وَحُبِّ الرِّئَاسَةِ غَلَبَتْ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ، فَبَقِيَ الْعِلْمُ يَجْرِي عَلَيَّ الْأَلْسِنِ عَادَةً، لَا لِلْعَمَلِ بِهِ.

١٤١٣ - ثُمَّ آلَ الْأَمْرُ إِلَى جَمَاعَةٍ خَالَطُوا السَّلَاطِينَ، وَبَاشَرُوا الظُّلْمَ، يُزَاحِمُونَ عَلَيَّ الدَّفْنَ بِمَقْبَرَةِ أَحْمَدَ، وَيُؤْصُونَ بِذَلِكَ!!

فَلَيْتَهُمْ أَوْصُوا بِالذَّفْنِ فِي مَوْضِعِ فَارِغٍ، إِنَّمَا يُدْفَنُونَ عَلَيَّ مَوْتِي، وَتُخْرَجُ عِظَامُ أَوْلِيكَ، فَيُحْسَرُونَ عَلَيَّ مَا أَلْفُوا مِنَ الظُّلْمِ، حَتَّى فِي مَوْتِهِمْ، وَيَسْئُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ. أَتَرَى مَا عَلِمُوا أَنَّ مُسَاعِدَ الظَّالِمِ ظَالِمٌ؟! وَفِي الْحَدِيثِ: «كَفَى بِالْمَرْءِ خِيَانَةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا لِلْخَوْنَةِ» (٦).

قَالَ السَّجَّانُ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: هَلْ أَنَا مِنْ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ؟ فَقَالَ: لَا؛ أَنْتَ مِنَ الظُّلْمَةِ، إِنَّمَا أَعْوَانُ الظُّلْمَةِ مَنْ أَعَانَكَ فِي أَمْرٍ.

(١) أحمد بن حنبل.

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٩) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٣) رواه النسائي (١٩٥٩)، وابن ماجه (٢٨٤٨) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عدا قوله: (ما ينفعه صلاتي عليه) (ضعيف).

(٤) الدكة: المقبرة.

(٥) حجرة عائشة رضي الله عنها التي دفن فيها النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهم.

(٦) من كلام مالك بن دينار. وقد ذكره البيهقي في الشعب برقم ٩٤٣٠.

٣٢٣ - فصل: خلق الإنسان ومعه الحسد

١٤١٤ - رَأَيْتَ النَّاسَ يَذْمُونَ الْحَاسِدَ، وَبِالْعُونَ، وَيَقُولُونَ: لَا يَحْسُدُ إِلَّا شَرِيرٌ؛ يُعَادِي نِعْمَةَ اللَّهِ، وَلَا يَرْضَى بِقَضَائِهِ، وَيَبْحَلُ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ. فَتَنَظَرْتُ فِي هَذَا؛ فَمَا رَأَيْتُهُ كَمَا يَقُولُونَ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ فَإِذَا رَأَى صَدِيقَهُ قَدْ عَلَا عَلَيْهِ؛ تَأَثَّرَ هُوَ، وَلَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ، وَوَدَّ لَوْ لَمْ يَنْلِ صَدِيقَهُ مَا يَنَالُ، أَوْ أَنْ يَنَالَ هُوَ مَا نَالَ ذَاكَ؛ لِئَلَّا يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ. وَهَذَا مَعْجُونٌ فِي الطَّبَعِ^(١)، وَلَا لَوْمَ عَلَى ذَلِكَ، إِنَّمَا اللَّوْمُ أَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وَكَنتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا قَدْ وَقَعَ لِي عَنْ سَبْرِي^(٢) وَفَحْصِي، فَرَأَيْتُ الْحَدِيثَ^(٣) عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْخَالِقِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ النَّفَّوْرِ^(٤)؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا الْمُخَلَّصُ^(٥)؛ قَالَ: حَدَّثَنَا الْبَغَوِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو رَوْحٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنْ هِشَامٍ، عَنِ الْحَسَنِ؛ قَالَ: لَيْسَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ خُلِقَ مَعَهُ الْحَسَدُ؛ فَمَنْ لَمْ يُجَاوِزْ ذَلِكَ بِقَوْلٍ وَلَا بِفِعْلٍ؛ لَمْ يَتَّبِعْهُ شَيْءٌ.

٣٢٤ - فصل: أعظم الضرر كثرة النساء

١٤١٥ - مِنْ أَعْظَمِ الضَّرَرِ الدَّاخِلِ عَلَى الْإِنْسَانِ كَثْرَةُ النِّسَاءِ.

إِنَّهُ أَوْلَا يَتَشَتَّتْ هَمُّهُ فِي مَحَبَّتِهِنَّ، وَمُدَارَاتِهِنَّ، وَغَيْرَتِهِنَّ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ. وَلَا

(١) في الأصل: الطين. أي: أصل الخلق.

(٢) في الأصل: سري، وهو تصحيف.

(٣) يستعمل المؤلف كلمة الحديث بمعناه اللغوي للإيمعان الاصطلاحي، وقد ورد أكثر من مرة بهذا المعنى.

(٤) أحمد بن محمد أبو الحسين البغدادي البزار (٣٨١ - ٤٧٠هـ) مسند العراق.

(٥) محمد بن عبد الرحمن البغدادي الذهبي (٣٠٥ - ٣٩٣هـ) المحدث المعمر، سمي المخلص لأنه كان يخلص الذهب من الغش.

يَأْمَنُ إِحْدَاهُنَّ أَنْ تَكْرَهَهُ، وَتُرِيدَ غَيْرَهُ؛ فَلَا تَتَخَلَّصَ إِلَّا بِقَتْلِهِ! وَلَوْ سَلِمَ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ؛ لَمْ يَسْلَمْ فِي الْكَسْبِ لَهْنًا، فَإِنْ سَلِمَ؛ لَمْ يَنْجُ مِنَ السَّامَةِ لَهْنًا، أَوْ لِبَعْضِهِنَّ، ثُمَّ يَطْلُبُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِنَّ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلَى نِسَاءِ بَعْدَادَ كُلِّهِنَّ، فَقَدِمَتْ أَمْرَأَةٌ مُسْتَرَّةٌ مِنْ غَيْرِ الْبَلَدِ؛ ظَنَّ أَنَّهُ يَجِدُ عِنْدَهَا مَا لَيْسَ عِنْدَهُنَّ!

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ فِي الْجِدَّةِ لَذَّةً، وَلَكِنْ؛ رَبُّ مَسْتُورٍ إِذَا انْكَشَفَ افْتُصِحَ.

وَلَوْ أَنَّهُ سَلِمَ مِنْ كُلِّ أَدَى يَتَعَلَّقُ بِهِنَّ؛ أَنَّهُكَ بَدَنُهُ فِي الْجِمَاعِ، فَيَكُونُ طَلْبُهُ لِلْإِتِّدَادِ مَانِعًا مِنْ دَوَامِ الْإِتِّدَادِ، وَرَبُّ لُفْمَةٍ مَعَتْ لُقَمَاتٍ! وَرَبُّ لَذَّةٍ كَانَتْ سَبَبًا فِي انْقِطَاعِ لَذَاتٍ!!

١٤١٦ - وَالْعَاقِلُ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى الْوَاحِدَةِ؛ إِذَا وَافَقَتْ غَرَضَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ

فِيهَا شَيْءٌ لَا يُوَافِقُ، إِنَّمَا الْعَمَلُ عَلَى الْعَالِبِ، فَتُوَهَّبُ الْحَلَّةُ الرَّدِيَّةُ لِلجَيِّدَةِ^(١).

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ إِلَى بَابِ الدِّينِ قَبْلَ النَّظَرِ إِلَى الْحُسْنِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا قَلَّ الدِّينُ؛ لَمْ يَنْتَفِعْ ذُو مَرُوءَةٍ بِتِلْكَ الْمَرَأَةِ.

١٤١٧ - وَمِمَّا يُهْلِكُ الشَّيْخَ سَرِيعًا الْجِمَاعُ؛ فَلَا يَغْتَرَّ بِمَا يَرَى مِنْ انْبِسَاطِ

الْآلَةِ، وَحُضُورِ الشَّهْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُسْتَخْرَجٌ مِنْ قُوَّتِهِ، مَا لَا يَعُودُ مِثْلُهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِحَرَكَةِ وَشَهْوَةِ، وَلَا يَقْرَبَ مِنَ التَّسَاءِ؛ إِنْ كَانَ لَهُ رَأْيٌ فِي الْبَقَاءِ.

٣٢٥ - فصل: قليل العقل لا يرجى خيره

١٤١٨ - إِذَا رَأَيْتَ قَلِيلَ الْعَقْلِ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ؛ فَلَا تَرْجُ خَيْرَهُ! فَأَمَّا إِنْ كَانَ

وَإِفْرَ الْعَقْلِ، لَكِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْهَوَى؛ فَارْجُهُ! وَعَلَامَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرَهُ فِي جَهْلِهِ؛ فَيَسْتَتِرُ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَتَى فَاحِشَةً، وَيُرَاقِبُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَيَبْكِي عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ، وَيَحْتَرِمُ أَهْلَ الدِّينِ. فَهَذَا عَاقِلٌ مَغْلُوبٌ بِالْهَوَى؛ فَإِذَا انْتَبَهَ بِالنَّدَمِ؛ حَنَسَ شَيْطَانُ الْهَوَى، وَجَاءَ مَلِكُ الْعَقْلِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: لِلْمَجِيدَةِ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

١٤١٩ - فَأَمَّا إِذَا كَانَ قَلِيلُ الْعَقْلِ فِي الْوَضْعِ - وَعَلَامَتُهُ أَلَّا يَنْظُرَ فِي عَاقِبَةِ عَاجِلَةٍ وَلَا آجِلَةٍ، وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ أَنْ يَرَوْهُ عَلَى فَاحِشَةٍ، وَلَا يُدَبِّرُ أَمْرَ دُنْيَاهُ: فَذَلِكَ بَعِيدُ الرَّجَاءِ، وَقَدْ يَنْدُرُ مِنْ هَوْلَاءِ مَنْ يُفْلِحُ. وَيَكُونُ السَّبَبُ فِيهِ^(١) حَمِيرَةٌ مِنَ الْعَقْلِ عَطَى عَلَيْهَا الْهَوَى، ثُمَّ تُكْشَفُ قَلِيلًا لِيَعُودَ؛ فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَضْرُوعِ أَفَاقٍ.

٣٢٦ - فصل: النظر في العواقب شأن العقلاء

١٤٢٠ - يَنْبَغِي الْإِحْتِرَازُ مِنْ كُلِّ مَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: الْغَالِبُ السَّلَامَةُ. وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ نَزَلَ مَعَ الْخَيْلِ فِي سَفِينَةٍ، فَاضْطَرَبَتْ، فَعَرِقَ مَنْ فِي السَفِينَةِ، وَإِنْ كَانَ الْغَالِبُ فِي هَذِهِ السَّلَامَةُ.

١٤٢١ - وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْدِرَ^(٢) الْإِنْسَانُ فِي نَفَقَتِهِ، وَإِنْ رَأَى الدُّنْيَا مُقْبِلَةً؛ لِحَوَازِ أَنْ تَنْقَطِعَ تِلْكَ الدُّنْيَا^(٣)، وَحَاجَةَ النَّفْسِ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا؛ فَإِذَا بَدَّرَ وَقْتُ السَّعَةِ، فَجَاءَ وَقْتُ الضِّيقِ؛ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَدْخَلَ فِي مَدَاخِلِ سَوْءٍ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ بِالطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْمُعَافَى أَنْ يُعَدَّ لِلْمَرَضِ، وَلِلْقَوِيِّ أَنْ يَتَهَيَّأَ لِلْهَرَمِ.

١٤٢٢ - وَفِي الْجُمْلَةِ؛ فَالنَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَفِيمَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ: شَأْنُ الْعُقَلَاءِ.

فَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ فَحَسْبُ؛ فَحَالَةُ الْجَهْلَةِ الْحَمَقِيِّ؛ مِثْلُ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ مُعَافَى، وَيَنْسَى الْمَرَضَ، أَوْ غَنِيًّا، وَيَنْسَى الْفَقْرَ، أَوْ يَرَى لَذَّةَ عَاجِلَةٍ، وَيَنْسَى مَا تَجَنَّبَ عَوَاقِبَهَا. وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ شُغْلٌ إِلَّا النَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَهُوَ يُشِيرُ بِالصَّوَابِ مِنْ أَيْنَ يُقْبَلُ.

٣٢٧ - فصل: يظهر إيمان المؤمن عند الابتلاء

١٤٢٣ - يَبِينُ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الْإِبْتِلَاءِ؛ فَهُوَ يُبَالِغُ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَرَى أَثْرًا لِلْإِجَابَةِ، وَلَا يَتَغَيَّرُ أَمَلُهُ وَرَجَاؤُهُ، وَلَوْ قَوِيَتْ أَسْبَابُ الْيَأْسِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْحَقَّ أَعْلَمُ

(٢) يقدر: يقتصد.

(١) أي: عدم الفلاح.
(٣) في الأصل: الأسباب.

بِالْمَصَالِحِ، أَوْ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الصَّبْرُ أَوْ الْإِيمَانُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْكَمْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ مِنَ الْقَلْبِ التَّسْلِيمَ؛ لِيَنْظَرَ كَيْفَ صَبْرُهُ، أَوْ يُرِيدُ كَثْرَةَ اللَّجَأِ وَالِدُّعَاءِ.

١٤٢٤ - فَأَمَّا مَنْ يُرِيدُ تَعْجِيلَ الْإِجَابَةِ، وَيَتَذَمَّرُ إِنْ لَمْ تَتَّعَجَلْ؛ فَذَلِكَ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ، يَرَى أَنَّ لَهُ حَقًّا فِي الْإِجَابَةِ، وَكَأَنَّهُ يَتَفَاضَى أُجْرَةَ عَمَلِهِ.

١٤٢٥ - أَمَا سَمِعْتَ قِصَّةَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بَقِيَ ثَمَانِينَ سَنَةً فِي الْبَلَاءِ، وَرَجَاؤُهُ لَا يَتَّعِيرُ، فَلَمَّا ضَمَّ إِلَى فَقْدِ يُوسُفَ فَقَدُ بْنُ يَامِينَ؛ لَمْ يَتَّعِيرْ أَمَلُهُ، وَقَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

١٤٢٦ - وَقَدْ كَشَفَ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَا يَصُدُّ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بَعْدَ طُولِ الْبَلَاءِ، وَقُرْبِ الْيَأْسِ مِنَ الْفَرَجِ. وَمِنْ هَذَا قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بَخِيرٌ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قِيلَ لَهُ: وَمَا يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي».

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَطِيلَ زَمَانَ الْبَلَاءِ، وَتَضَجَرَ مِنْ كَثْرَةِ الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّكَ مُبْتَلَى بِالْبَلَاءِ، مُتَعَبِّدٌ بِالصَّبْرِ وَالِدُّعَاءِ، وَلَا تِيَأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ؛ وَإِنْ طَالَ الْبَلَاءُ.

٣٢٨ - فصل: لذات الدنيا في ضمنها أكدار

١٤٢٧ - تَفَكَّرْتُ فِي سَبَبِ دُخُولِ جَهَنَّمَ؛ فَإِذَا هُوَ الْمَعَاصِي، فَتَنَزَّرْتُ فِي الْمَعَاصِي؛ فَإِذَا هِيَ حَاصِلَةٌ مِنْ طَلَبِ اللَّذَاتِ، فَتَنَزَّرْتُ فِي اللَّذَاتِ، فَرَأَيْتُهَا خِدْعًا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَفِي ضَمْنِهَا مِنَ الْأَكْدَارِ مَا يُصَيِّرُهَا نَعَصًا، فَتَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا لَذَاتٍ. فَكَيْفَ يَتَّبِعُ الْعَاقِلُ نَفْسَهُ، وَيَرْضَى بِجَهَنَّمَ، لِأَجْلِ هَذِهِ الْأَكْدَارِ؟!

١٤٢٨ - فَمِنْ اللَّذَاتِ الزُّنَا؛ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ إِرَاقَةَ الْمَاءِ؛ فَقَدْ يُرَاقُ فِي حَلَالٍ، وَإِنْ كَانَ فِي مَعْشُوقٍ؛ فَمُرَادُ النَّفْسِ دَوَامَ الْبَقَاءِ مَعَ الْمَعْشُوقِ؛ فَإِذَا هِيَ مَلَكَتْهُ؛ فَالْمَمْلُوكُ مَمْلُوكٌ، وَإِنْ هُوَ قَارِبُهُ سَاعَةً ثُمَّ فَارَقَهُ؛ فَحَسْرَةُ الْفِرَاقِ تَرُبُّو عَلَى لَذَّةِ

القُرْبِ، وَإِنْ كَانَ وُلِدَ لَهُ مِنَ الرِّئَا؛ فَالْفَضِيحَةُ الدَّائِمَةُ، وَالْعُقُوبَةُ التَّامَّةُ، وَتَنْكِيْسُ
الرَّأْسِ عِنْدَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ.

وَأَمَّا الْجَاهِلُ؛ فَيَرَى لَذَّةَ فِي بُلُوغِ ذَلِكَ الْغَرَضِ، وَيَنْسَى مَا يَجْنِي مِمَّا يُكَدِّرُ
عَيْشَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

١٤٢٩ - وَمَنْ ذَلِكَ شَرِبَ الْخَمْرَ؛ فَإِنَّهُ تَنْجِيْسٌ لِلْفَمِ وَالثُّوبِ، وَإِبْعَادٌ لِلْعَقْلِ،
وَتَأْتِيْرَاتُهُ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؛ فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يُؤَثِّرُ لَذَّةَ سَاعَةٍ تَجْنِي عِقَابًا،
وَذَهَابَ جَاهٍ! وَرَبَّمَا خَرَجَ بِالْعَرَبْدَةِ إِلَى الْقَتْلِ!!

١٤٣٠ - وَعَلَى هَذَا فَقَسَّ جَمِيعَ الْمَذُوقَاتِ؛ فَإِنَّ لَذَاتَهَا إِذَا وُزِنَتْ بِمِيزَانِ الْعَقْلِ
لَا تَفِي بِمِعْشَارِ عَشِيرِ عَوَاقِبِهَا الْقَبَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ هِيَ نَفْسُهَا لَيْسَتْ بِكَثِيرِ
شَيْءٍ فَكَيْفَ تَبَاعُ الْآخِرَةُ بِمِثْلِ هَذَا!؟

١٤٣١ - سُبْحَانَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَى أَقْوَامٍ، كُلَّمَا لَاحَتْ لَهُمْ لَذَّةٌ؛ نَصَبُوا مِيزَانَ
الْعَقْلِ، وَنَظَرُوا فِيمَا يَجْنِي، وَتَلَمَّحُوا مَا يُؤَثِّرُ تَرْكَهَا، فَرَجَّحُوا الْأَصْلَحَ. وَطَمَسَ عَلَى
قُلُوبٍ؛ فَهِيَ تَرَى صُورَةَ الشَّيْءِ، وَتَنْسَى جِنَايَاتِهِ.

١٤٣٢ - ثُمَّ الْعَجَبُ أَنَا نَرَى مَنْ يَبْعُدُ عَنِ رَوْجَتِهِ، وَهُوَ شَابٌّ، لِيَعْدُو فِي
الطَّرِيقِ، فَيَقَالَ: سَاعُ! فَيَغْلِبُ هَوَاهُ لِيَطْلُبَ مَا هُوَ أَعْلَى، وَهُوَ الْمَدْحُ؛ كَيْفَ لَا يَتْرُكُ
مُحَرَّمًا لِيَمْدَحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَى!؟

١٤٣٣ - ثُمَّ قَدَّرَ حُضُورًا مَا طَلَبَتْ مِنَ اللَّذَاتِ وَذَهَابُهَا، وَأَحْسِبُ أَنَّهَا قَدْ
كَانَتْ، وَقَدْ هَانَتْ، وَتَحَلَّصَتْ مِنْ مِحْنِهَا.

أَيْنَ أَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ!؟ أَيْنَ تَعْبُ عَالِمٍ قَدْ دَرَسَ الْعِلْمَ خَمْسِينَ سَنَةً!؟ ذَهَبَ
التَّعْبُ، وَحَصَلَ الْعِلْمُ، وَأَيْنَ لَذَّةُ الْبَطَالِ^(١)!؟ ذَهَبَتِ الرَّاحَةُ، وَأَعْقَبَتِ النَّدَمُ.

٣٢٩ - فصل: من تبع العقل سلّم

١٤٣٤ - مَنْ وَقَفَ عَلَى مُوجِبِ الْحِسِّ هَلَكَ، وَمَنْ تَبَعَ الْعَقْلَ سَلِمَ. لِأَنَّ مُجَرَّدَ

(١) البطال: من يتبع طريق اللهو والجهالة، ويشغل بما لا ينفعه.

الْحِسِّ لَا يَرَى إِلَّا الْحَاضِرَ، وَهُوَ الدُّنْيَا. وَأَمَّا الْعَقْلُ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَخْلُوقَاتِ، فَيَعْلَمُ وُجُودَ خَالِقِ قَدْ مَنَعَ وَأَبَاحَ، وَأَطْلَقَ وَحَظَرَ، وَأَخْبَرَ أَنِّي سَائِلُكُمْ وَمُبْتَلِيكُمْ؛ لِيُظْهِرَ دَلِيلَ وُجُودِي عِنْدَكُمْ، بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ، طَاعَةً لِي، وَأَنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ؛ لِإِثَابَةِ مَنْ يُطِيعُ، وَعُقُوبَةِ مَنْ يُخَالِفُ.

١٤٣٥ - ثُمَّ لَوْ تَرَكْتُ الْحِسَّ وَمَا يَشْتَهِي مَعَ أَغْرَاضِهِ؛ قَرُبَ الْأَمْرُ! إِنَّمَا يَزِينِي فَيُجَلِّدُ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ فَيُعَاقِبُ، وَيَسْرِقُ فَيُقَطِّعُ، وَيَفْعَلُ زَلَّةً، فَيُفْضَحُ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَيُعْرِضُ عَنِ الْعِلْمِ إِلَى الْبَطَالَةِ فَيَقْعُ النَّدَمَ عِنْدَ حُضُورِ الْجَهْلِ.

١٤٣٦ - ثُمَّ إِنَّا نَرَى الْكَثِيرَ مِمَّنْ عَمِلَ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ قَدْ سَلِمَتْ ذُنُوبُهُ وَآخِرَتُهُ، وَمَيَّزَ بَيْنَ الْخَلْقِ بِالْتَّعْظِيمِ، وَكَانَ عَيْشُهُ فِي لَذَاتِهِ غَالِبًا خَيْرًا مِنْ عَيْشِ مُوَافِقِ لِلْهُوَى. فَلْيَعْتَبِرْ ذُو الْفَهْمِ بِمَا قُلْتُ، وَلْيَعْمَلْ بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ، وَقَدْ سَلِمَ.

٣٣٠ - فصل: العجب لمؤثر شهوات الدنيا

١٤٣٧ - الْعَجَبُ لِمُؤَثِّرِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا! أَلَا يَتَدَبَّرُ أَمْرَهَا بِالْعَقْلِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَنقُولَاتِ الشَّرْعِ؟! إِنَّ أَعْظَمَ لَذَاتِ الْحِسِّ الْوَطْءَ؛ فَالْمَرْأَةُ الْمُسْتَحْسَنَةُ إِنَّمَا يَكُونُ حَالُ كَمَالِهَا مِنْ وَقْتِ بُلُوغِهَا إِلَى الثَّلَاثِينَ؛ فَإِذَا بَلَغَتْهَا؛ أَثَّرَ فِيهَا، وَرُبَّمَا أَيْبَضَتْ شَعْرَاتٌ مِنْ رَأْسِهَا، فَيَنْفِرُ الْإِنْسَانُ مِنْهَا، وَقَدْ يَقَعُ الْمَلَلُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَطُولُ الصُّحْبَةِ يَكْشِفُ الْعُيُوبَ. وَمَا عِيبَ نِسَاءِ الدُّنْيَا بِأَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]؛ فَلَوْ تَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي جَسَدٍ مَمْلُوءٍ بِالنَّجَاسَةِ؛ مَا طَابَ لَهُ ضَمُّهُ؛ غَيْرَ أَنَّ الشَّهْوَةَ تُعْطِي عَيْنَ الْفِكْرِ.

١٤٣٨ - فَالْعَاقِلُ مَنْ حَفِظَ دِينَهُ وَمُرُوءَتَهُ بِتَرْكِ الْحَرَامِ، وَحَفِظَ قُوَّتَهُ فِي الْحَلَالِ، فَأَنْفَقَهَا فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، وَلَمْ يَسْعَ فِي إِفْنَاءِ عُمُرِهِ، وَتَشْتِيتِ قَلْبِهِ فِي شَيْءٍ لَا تَحْسُنُ عَاقِبَتُهُ.

مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنٌ

١٤٣٩ - وَعَمُومٌ مَنْ رَأَيْنَا مِنَ الْكِبَارِ عَلَبَتْ عَلَيْهِمْ شَهْوَةُ الْوَطْءِ، فَانْهَدَمَتْ

أَعْمَارُهُمْ، وَرَحَلُوا سَرِيعًا. وَقَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْعُقَلَاءِ مَنْ زَجَرَ نَفْسَهُ عَنِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهَا إِلَّا وَقَتَ الْحَاجَةِ، فَبَقِيَ لَهُمْ سَوَادُ شُعُورِهِمْ وَقُوَّتُهُمْ، حَتَّى تَمَتَّعُوا بِهَا فِي الْحَيَاةِ، وَحَصَلُوا الْمَنَاقِبَ، وَعَرَفَتْ مِنْهُمْ النُّفُوسُ قُوَّةَ الْعَزِيمَةِ، فَلَمْ تُطَالِبْهُمْ بِمَا يُؤْذِي.

٣٣١ - فصل: رؤية النبي ﷺ في المنام

١٤٤٠ - قَدْ أَشْكَلَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّاسِ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ وَقَوْلُهُ: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ؛ فَقَدْ رَأَى»^(١)، فَقَالَ: ظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ يَرَاهُ حَقِيقَةً! وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرَاهُ شَيْخًا وَشَابًّا وَمَرِيضًا وَمُعَافَى! فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ جَسَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُودَعِ فِي الْمَدِينَةِ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ، وَحَضَرَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي رَأَاهُ فِيهِ؛ فَهَذَا جَهْلٌ لَا جَهْلَ يُشْبِهُهُ؛ فَقَدْ يَرَاهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَلْفَ شَخْصٍ، فِي أَلْفِ مَكَانٍ، عَلَى صُورٍ مَخْتَلِفَةٍ؛ فَكَيْفَ يَتَصَوَّرُ هَذَا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ؟! وَإِنَّمَا الَّذِي يَرَى مِثَالَهُ لَا شَخْصَهُ. فَيَبْقَى «مَنْ رَأَى.. فَقَدْ رَأَى»؛ مَعْنَاهُ: قَدْ رَأَى مِثَالِي، الَّذِي يُعْرِفُهُ الصَّوَابَ، وَتَحْصُلُ بِهِ الْفَائِدَةُ الْمَطْلُوبَةُ^(٢).

١٤٤١ - فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ فِي رُؤْيَا الْحَقِّ سُبْحَانَهُ؟! فَانْقُؤِلْ: يَرَى مِثَالًا لَا مِثْلًا، وَالْمِثَالُ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْمُسَاوَاةِ وَالْمُشَابَهَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، فَضْرَبَهُ مِثَالًا لِلْقُرْآنِ وَأَنْتِفَاعِ الْخَلْقِ بِهِ. وَيُوضِّحُ هَذَا أَنَّهُ إِنَّمَا يَرَى مَنْ رَأَى الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ، قَدْ تَوَحَّدَ، فَوَضَّحَ مَا قُلْنَا.

٣٣٢ - فصل عزيز الفائدة: العلم كثير والعمر قصير

١٤٤٢ - اعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ اتَّسَعَ الْعُمُرُ؛ لَمْ أَمْنَعْ مِنَ الْإِيْعَالِ فِي كُلِّ عِلْمٍ إِلَى مُتْنَهَاهُ؛

(١) رواه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال ابن جزي في (القوانين الفقهية) ص(٣٧٩): لا تصح رؤيا النبي ﷺ قطعاً إلا لصحابي رآه حافظاً صفته حتى يكون المثل الذي رآه في المنام مطابقاً لخلقته ﷺ. انظر: العقل والفقہ في فهم الحديث للأستاذ مصطفى الزرقا ص(١٧ - ٣٤) ط. دار القلم.

عَيْرَ أَنَّ الْعُمَرَ قَصِيرٌ، وَالْعِلْمَ كَثِيرٌ: فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنَ الْقِرَاءَاتِ إِذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ عَلَى الْعَشْرِ. وَمِنَ الْحَدِيثِ عَلَى الصَّحَّاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ الْمُصَنَّفَةِ؛ فَإِنَّ عُلُومَ الْحَدِيثِ قَدْ انْبَسَطَتْ زَائِدَةً فِي الْحَدِّ، [وَالْمُتُونُ مَحْضُورَةٌ] (١)، وَإِنَّمَا الطَّرُقُ تَخْتَلِفُ.

وَعِلْمُ الْحَدِيثِ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَهُوَ مُشْتَهَى، وَالْفُقَهَاءُ يُسَمُّونَهُ عِلْمَ الْكُسَالَى؛ لِأَنَّهُمْ يَتَشَاغَلُونَ بِكِتَابَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَلَا يَكَادُونَ يُعَانُونَ حِفْظَهُ، وَيَفُوتُهُمُ الْمُهْمُ، وَهُوَ الْفِقْهُ.

وَقَدْ كَانَ الْمُحَدِّثُونَ قَدِيمًا هُمُ الْفُقَهَاءُ، ثُمَّ صَارَ الْفُقَهَاءُ لَا يَعْرِفُونَ الْحَدِيثَ، وَالْمُحَدِّثُونَ لَا يَعْرِفُونَ الْفِقْهَ!! فَمَنْ كَانَ ذَا هِمَّةٍ، وَنَصَحَ نَفْسَهُ؛ تَشَاغَلَ بِالْمُهْمِ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَجَعَلَ جُلَّ شُغْلِهِ الْفِقْهَ، فَهُوَ أَعْظَمُ الْعُلُومِ، وَأَهْمُهَا.

١٤٤٣ - وَقَدْ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ (٢): كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو ثَوْرٍ (٣): فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ قَدْ رَوَاهُ ثَمَانِيَّةٌ وَتِسْعُونَ رَجُلًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي صَحَّ مِنْهُ طَرُقٌ يَسِيرَةٌ. فَالْتَشَاغَلُ بِغَيْرِ مَا صَحَّ يَمْنَعُ التَّشَاغَلَ بِمَا هُوَ أَهَمُّ.

وَلَوْ اتَّسَعَ الْعُمُرُ؛ كَانَ اسْتِنْفَاءُ كُلِّ الطَّرُقِ فِي كُلِّ الْأَحَادِيثِ غَايَةً فِي الْجُودَةِ، وَلَكِنَّ الْعُمَرَ قَصِيرٌ.

١٤٤٤ - وَلَمَّا تَشَاغَلَ بِالطَّرُقِ مِثْلُ يَحْيَى بْنِ مَعِينٍ (٤)؛ فَاتَهُ مِنَ الْفِقْهِ كَثِيرٌ، حَتَّى إِنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْحَائِضِ: أَيَجُوزُ أَنْ تَغْسِلَ الْمَوْتَى؟ فَلَمْ يَعْلَمْ، حَتَّى جَاءَ أَبُو ثَوْرٍ، فَقَالَ: يَجُوزُ؛ لِأَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أُرْجِلُ رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا حَائِضٌ (٥). فَيَحْيَى أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَشَاغَلَ بِفَهْمِهِ.

(١) في الأصل: وما في هذا الجزء، وما أثبت من (د).

(٢) عبيد الله بن عبد الكريم الرازي (٢٠٠ - ٢٦٤هـ): محدث الري، وإمام الجرح والتعديل وسيد الحفاظ.

(٣) إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي (١٧٠ - ٢٤٠هـ): إمام حافظ فقيه مجتهد.

(٤) إمام الجرح والتعديل، الحافظ، الجهيد، أحد الأعلام (١٥٨ - ٢٣٣هـ).

(٥) رواه البخاري (٢٩٥)، ومسلم (٢٩٧).

١٤٤٥ - فَأَنَا أَنهَى أَهْلَ الْحَدِيثِ أَنْ تَشْعَلَهُمْ كَثْرَةُ الطَّرِيقِ. وَمِنْ أَفْجَحِ الْأَشْيَاءِ أَنْ تَجْرِي حَادِثَةٌ، يُسْأَلُ عَنْهَا شَيْخٌ قَدْ كَتَبَ الْحَدِيثَ سِتِّينَ سَنَةً؛ فَلَا يَعْرِفُ حُكْمَ اللَّهِ ﷻ فِيهَا! وَكَذَلِكَ أَنهَى مَنْ يَتَشَاغَلُ بِالتَّزْهُدِ وَالانْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الْعِلْمِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ لِنَفْسِهِ مِنْهُ حَظًّا؛ لِيَعْلَمَ إِنْ زَلَّ كَيْفَ يَتَخَلَّصُ.

٣٣٣ - فصل: العاقل العالم يسير بين رفيقين: العلم والعقل

١٤٤٦ - مَعْرِفَةُ اللَّهِ سُحَّانَهُ لَا تَحْضُلُ إِلَّا لِكَامِلِ الْعَقْلِ، صَاحِبِ الْمِزَاجِ، وَالتَّرَقِّيَ إِلَى مَحَبَّتِهِ بِذَلِكَ يَكُونُ.

وَإِنَّ أَقْوَامًا قَلَّتْ عُقُولُهُمْ، وَفَسَدَتْ أَمْرَجَتُهُمْ، فَسَاءَتْ مَطَاعِمُهُمْ وَقَلَّتْ، فَتَحَايَلَتْ لَهُمُ الْخَيَالَاتُ الْفَاسِدَةُ، فَأَدَّعَوْا مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَمَحَبَّتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَصُدُّهُمْ عَمَّا ادَّعَوْا، فَهَلَكُوا.

١٤٤٧ - وَلِيُعْلَمَ أَنَّ فِي الْمَأْكُولَاتِ مَا يُسَبِّبُ إِفْسَادَ الْعَقْلِ، وَفِيهَا مَا يَزِيدُ فِي السُّوْدَاءِ، فَيُوجِبُ الْمَالِيئُحُولِيَا، فَتَرَى صَاحِبَهَا يُحِبُّ الْحَلْوَةَ، وَيَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ يَمْلَأُ الْمَطْعَمَ، فَيَقْوَى مَرَضُهُ، فَيَتَحَايَلُ خَيَالَاتٍ يَظُنُّهَا حَقًّا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنِّي رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ! وَفِيهِمْ مَنْ يُخْرِجُهُ الْأَمْرُ إِلَى دَعْوَى مَحَبَّةِ الْحَقِّ، وَالْوَلَاةِ^(١) فِيهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ أَصْلٍ مُعْتَمَدٍ عَلَيْهِ.

١٤٤٨ - وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ الْعَالِمُ يَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ الرَّفِيقَيْنِ: الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ. فَإِنْ تَقَلَّلَ مِنَ الطَّعَامِ؛ فَبِعَقْلِ، وَحَدُّ التَّقَلُّلِ: تَرَكَ فُضُولَ الْمَطْعَمِ، وَمَا يُخَافُ شَرَّهُ مِنْ شُبُهَةٍ، أَوْ شَهْوَةٍ يَحْذَرُ تَعَوُّدَهَا. وَأَمَّا زِيَادَةُ التَّقَلُّلِ مَعَ الْقُدْرَةِ؛ فَلَيْسَ لِعَقْلِ وَلَا شَرِّعٍ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْفَقْرُ عَمًّا، فَيَتَقَلَّلُ ضَرُورَةً.

١٤٤٩ - وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ وَجَدَهُمْ يَأْخُذُونَ بِمِقْدَارٍ، وَلَا يَتْرُكُونَ حُطُوظَ النَّفْسِ الَّتِي تُضْلِحُهَا. وَأَحْسَنُ الْأَمْرِ وَأَعْدَلُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

(١) الوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الحب.

«تُلْتُ طَعَامًا، وَتُلْتُ شَرَابًا، وَتُلْتُ نَفْسًا». وَقَدْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَهُوَ مَرِيضٌ: «أَصِيبُ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ؛ فَهُوَ أَوْفَقُ لَكَ مِنْ هَذَا».

وَكَانَ عليه السلام يُشَاوِرُ الْأَطْيَاءَ، وَيَحْتَجِمُ، وَيَحْتُ عَلَى التَّدَاوِي، وَيَقُولُ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً؛ فَتَدَاوُوا».

١٤٥٠ - فَجَاءَ أَقْوَامٌ جَهَلُوا الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ فِي بُنْيَانِ الْأَبْدَانِ؛ فَمِنْهُمْ: مَنْ أَقَامَ فِي الْجِبَالِ يَأْكُلُ الْبَلُوطَ^(١)، فَأَصَابَهُ الْقَوْلَجُ^(٢)، وَمِنْهُمْ: مَنْ قَلَّلَ الْمَطْعَمَ، إِلَى أَنْ ضَعُفَتْ قُوَاهُ، وَمِنْهُمْ: مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى نَبَاتِ الصَّحْرَاءِ، وَمِنْهُمْ: مَنْ كَانَ لَا يَتَّقُونَ^(٣) إِلَّا الْبَاقِلَاءَ^(٤) وَالشَّعِيرَ: فَأَوْجَبَتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ أَمْرًا فِي الْبَدَنِ، وَتَرَقَّتْ إِلَى إِفْسَادِ الْعَقْلِ.

وَاتَّفَقَ لَهُمْ قِلَّةُ الْعِلْمِ؛ إِذْ لَوْ عَلِمُوا لَفَهِمُوا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَنْهَى عَنْ مِثْلِ هَذَا؛ فَإِنَّ الْبَدْنَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَخْلَاطٍ، إِذَا اعْتَدَلَتْ وَافَقَتْ السَّلَامَةَ، وَإِذَا زَادَ بَعْضُهَا وَقَعَ الْمَرَضُ وَأَكْثَرَ هَوْلًا مَرِيضُوا، وَتَعَجَّلَ لَهُمُ الْمَوْتُ، وَفِيهِمْ مَنْ خَرَجَ إِلَى التَّسْوُدِ^(٥)، وَفِيهِمْ مَنْ لَاحَتْ لَهُ لَوَائِحُ، فَادَّعَى رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ.. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

١٤٥١ - فَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ؛ فَهَرَبُهُمْ مِنَ الْخَلْقِ لِحُوفِ الْمَعَاصِي، وَرُؤْيَا الْمُنْكَرِ، وَفِيهِمْ مَنْ قَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ، فَشَعَلَتْهُ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَمَحَبَّتُهُ عَنْ مُلَاقَاةِ الْخَلْقِ.

فَهَذِهِ هِيَ الْخَلَوَاتُ الصَّافِيَّةُ؛ لِأَنَّهَا تَصْدُرُّ عَنِ عِلْمٍ وَعَقْلٍ، فَتَحْفَظُ الْبَدْنَ؛ لِأَنَّهُ نَاقَةٌ تُوصِلُ.

١٤٥٢ - وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَهَاوَنَ بِالْمَأْكُولَاتِ، خُصُوصًا مَنْ لَمْ يَعْتَدِ التَّقَشُّفَ، وَلَا يَلْبَسَ الصُّوفَ عَلَى الْبَدَنِ مَنْ لَمْ يَعْتَدَهُ. وَلِيَنْظُرَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله

(١) البلوط: شجر حراجي غليظ الساق، متين الخشب، ثمرته تشبه الكستناء.

(٢) القولنج: المغص. (٣) في الأصل: يقوت، وهو تصحيف.

(٤) الباقلاء: الفول عند أهل بغداد.

(٥) غلبت عليه السوداء، وهي اضطرابات مصحوبة بالحزن العميق والتشاؤم العام، وما زال هذا الحرف مستعملًا في بلاد الشام.

وَصَحَابَتِهِ؛ فَإِنَّهُمْ الْقُدُوءُ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى بُنَيَاتِ الطَّرِيقِ^(١)؛ فَيَقَالَ: فَلَانَ الزَّاهِدُ قَدْ أَكَلَ الطَّيْنَ! وَفُلَانَ كَانَ يَمْشِي حَافِيًا! وَفُلَانَ بَقِيَ شَهْرًا مَا أَكَلَ! فَإِنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ الْجَادَّةِ؛ لِأَنَّ الْجَادَّةَ اتَّبَاعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

هَذَا؛ وَلَعَمْرِي؛ إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَقْنَعُ بِالْمِدْقَةِ^(٢) مِنَ اللَّبَنِ، وَيَصْبِرُ الْأَيَّامَ عَنِ الطَّعَامِ، وَلَكِنْ إِمَّا لِضُرُورَةٍ، أَوْ لِأَنَّهُ مُعْتَادٌ لَذَلِكَ؛ كَمَا يَعْتَادُ الْبَدَوِيُّ شُرْبَ اللَّبَنِ وَحَدَهُ، وَلَا يُؤْذِيهِ ذَلِكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: عَوَّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ^(٣).

١٤٥٣ - وَفِي الْمُتَرَهِّدِينَ مَنْ أَخْرَجَ مَالَهُ كُلَّهُ عَنِ يَدِهِ زُهْدًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَاجَاتِ لَا تَنْقُضِي، فَلَمَّا احْتَجَّ؛ تَعَرَّضَ لِلطَّلَبِ، وَافْتَقَرَ إِلَى أَخْذِ مَالٍ مِنْ يَدِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ، وَبَدَّلَ وَجْهَهُ!

وَقَدْ كَانَتْ الصَّحَابَةُ تَتَجَرَّ وَتَحْفَظُ الْمَالَ، وَجُهَالُ الْمُتَرَهِّدِينَ يَرَوْنَ جَمْعَ الْمَالِ يُنَافِي الزُّهْدًا!!

١٤٥٤ - فَمَمْخُضَةٌ^(٤) هَذَا الْفَضْلِ أَنْ أَقُولَ: يَبْنِي لِمَنْ رُزِقَ فَهَمًّا أَنْ يَسْعَى فِي صَلَاحِ بَدَنِهِ، وَلَا يَحْمِلَ عَلَيْهِ مَا يُؤْذِيهِ، وَلَا يَتَاوَلَهُ مِنَ الْقُوْتِ مَا لَا يُوَافِقُهُ. وَلَا يُضَيِّعُ مَالَهُ، وَلِيَجْتَهِدَ فِي اسْتِمْرَارِهِ لِئَلَّا يَحْتَاجَ؛ فَإِنَّهُ مَا نَافَقَ زَاهِدًا إِلَّا لِأَجْلِ الدُّنْيَا. وَلِيُنْظَرَ فِي سِيرِ الْكَامِلِينَ مِنَ السَّلَفِ، وَلِيَتَشَاعَلَ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ؛ فَحِينَئِذٍ يَحْمِلُهُ الْأَمْرُ عَلَى الْخُلُوةِ بِرَبِّهِ، وَالْأَسْتِغَالِ بِحَبِّهِ، فَيَكُونُ مَا ظَهَرَ مِنْهُ ثَمَرَةً نَضِيجَةً لَا فَجَّةً. وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ.

٣٣٤ - فصل: متى استقام باطنك استقامت لك الأمور

١٤٥٥ - مَا رَأَيْتُ أَظْرَفَ مِنْ لَعِبِ الدُّنْيَا بِالْعُقُولِ. وَقَدْ سَمِعْنَا وَرَأَيْنَا جَمَاعَةً

(١) بنيات الطريق: الترهات.

(٢) الجرعة من اللبن الممزوج بالماء.

(٣) قال ابن قيم في زاد المعاد (٤/١٠٤): هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه. يقصد المؤلف بكلمة (الحديث) المعنى اللغوي لا الاصطلاحي والدليل قوله في الفصل (٣٤٢): وقد قيل: عوّدوا كل بدن ما اعتاد.

(٤) الممخضة: الخلاصة.

مِنَ الْفُطْنَاءِ الْكَامِلِي الْعَقْلِ، لَعِبَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا، حَتَّى صَارُوا كَالْمَجَانِينِ، فَوَلُّوا
الْوَلَايَاتِ، فَحَرَجُوا إِلَى الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ، وَالْحَبْسِ وَالشَّتْمِ، وَذَهَابِ الدِّينِ، وَالْمُبَاشَرَةِ
لِلظُّلْمِ كُلِّهِ، لِأَجْلِ دُنْيَا تَذْهَبُ سَرِيعًا، وَهِيَ فِي مَدَّةِ إِقَامَتِهَا مَعْجُونَةٌ بِالنَّعْصِ.

١٤٥٦ - فَيَا أَيُّهَا الْمَرْزُوقُ عَقْلًا! لَا تَبْخَسُهُ حَقَّهُ، وَلَا تُظْفِي نُورَهُ، وَاسْمَعْ مَا
نُسِيْرُ بِهِ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى بُكَاءِ طِفْلِ الطَّبْعِ لِفَوَاتِ غَرَضِهِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ رَحِمْتَ بُكَاءَهُ؛ لَمْ
تَقْدِرْ عَلَى فِطَامِهِ، وَلَمْ يُمْكِنِكَ تَأْدِيبُهُ، فَيَبْلُغْ جَاهِلًا فَقِيرًا:

لَا تَسُهُ عَنِ أَدَبِ الصَّنِيفِ رِ وَلَوْ شَكَ أَلَمَ التَّعَبِ
وَدَعَ الْكَبِيرَ لِشَأْنِهِ كَبُرَ الْكَبِيرُ عَنِ الْأَدَبِ

١٤٥٧ - وَاعْلَمْ أَنَّ زَمَانَ الْإِبْتِلَاءِ ضَيْفٌ، قِرَاهُ الصَّبْرُ^(١)؛ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ
حَنْبَلٍ: إِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ، وَإِنَّمَا أَيَّامٌ قَلَائِلٌ؛ فَلَا تَنْظُرْ إِلَى
لَذَّةِ الْمُتْرَفِينَ، وَتَلْمَحْ عَوَاقِبَهُمْ، وَلَا تَضِقْ صَدْرًا بِضَيْقِ الْمَعَاشِ، وَعَلِّلِ^(٢) النَّاقَةَ
بِالْحَدْوِ تَسِيرًا:

طَاوُلٌ بِهَا اللَّيْلُ مَالِ النَّجْمِ أَمْ جَنَحًا وَمَاطِلِ النَّوْمِ ضَنَّ الْجَفْنُ أَمْ سَمَحًا
فَإِنْ تَشَكَّتْ فَعَلَّلْهَا الْمَجْرَةَ مِنْ ضَوْءِ الصَّبَاحِ، وَعِدْهَا بِالرَّوَّاحِ ضُحَى

١٤٥٨ - وَقَدْ كَانَ أَهْدِي إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ هَدِيَّةً فَرَدَّهَا. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ سَنَةٍ
لِأَوْلَادِهِ: لَوْ كُنَّا قَبْلِنَاهَا كَانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ.

١٤٥٩ - وَمَرَّ بِشَرِّ عَلَى بَيْتٍ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: أَنَا عَطَشَانٌ. فَقَالَ: الْبَيْتُ
الْأُخْرَى! فَمَرَّ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ: الْأُخْرَى! ثُمَّ قَالَ: كَذَا تُقَطِّعُ الدُّنْيَا.

١٤٦٠ - وَدَخَلُوا إِلَى بَيْتِ الْحَافِي، وَلَيْسَ فِي دَارِهِ حَصِيرٌ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا بِدَا
تُؤَدِي؟ فَقَالَ: هَذَا أَمْرٌ يَنْقُضِي.

١٤٦١ - وَكَانَ لِدَاوُدَ الطَّائِي دَارٌ يَأْوِي إِلَيْهَا، فَوَقَعَ سَقْفٌ، فَأَنْتَقَلَ إِلَى سَقْفِ
[آخِرًا]، إِلَى أَنْ مَاتَ فِي الدَّهْلِيْزِ. فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَظَرُوا فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ.

(٢) علل: تشاغل وتلهى.

(١) القرى: طعام الضيفان.

١٤٦٢ - وَبَعَدَ هَذَا؛ فَلَا أَطَالِبُكَ بِهَذِهِ الرَّثَبَةِ، بَلْ أَقُولُ لَكَ: إِنْ حَصَلَ لَكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُبَاحِ، لَا مَنْ فِيهِ وَلَا أَدَى، وَلَا نِلْتَهُ بِسُؤَالٍ، وَلَا مِنْ يَدِ ظَالِمٍ، تَعْلَمُ أَنَّ مَالَهُ حَرَامٌ، أَوْ فِيهِ شُبْهَةٌ؛ فَأَفْسَحْ لِنَفْسِكَ فِي مَبَاحَاتِهَا بِمِقْدَارِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَكُنْ مُقَدِّرًا لِلنَّفَقَةِ غَيْرَ مُبَدِّرٍ؛ فَإِنَّ الْحَلَالَ لَا يَحْتَمِلُ السَّرْفَ، وَمَتَى أَسْرَفْتَ؛ احْتَجَجْتَ إِلَى التَّعَرُّضِ لِلخَلْقِ، وَالتَّنَاوُلِ مِنَ الْأَكْدَارِ.

١٤٦٣ - وَإِنْ ضَاقَ بِكَ أَمْرٌ؛ فَاصْبِرْ؛ فَإِنْ ضَعُفَ الصَّبْرُ؛ فَسَلِّ فَاتِحَ الْأَبْوَابِ؛ فَهَوَ الْكَرِيمُ، وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَبْدُلَ دِينَكَ بِتَصْنَعِ الْخَلْقِ، أَوْ بِتَرْبٍ إِلَى الْأَمْرَاءِ، وَسَتَعْطِي أَمْوَالَهُمْ، وَأَذْكَرُ طَرِيقَ السَّلْفِ.

١٤٦٤ - كَانَ ابْنُ سَمْعُونَ^(١) لَهُ ثِيَابٌ يَجْلِسُ فِيهَا لِلنَّاسِ، ثُمَّ يَطْوِيهَا إِلَى الْمَجْلِسِ الْآخِرِ، وَرَثَهَا عَنْ أَبِيهِ، وَبَقِيَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

١٤٦٥ - وَكَانَتْ مَيْمُونَةُ بِنْتُ شَاقِلَةَ^(٢) تَعْطِي النَّاسَ، وَلَهَا ثِيَابٌ قَدْ بَقِيَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

١٤٦٦ - وَمَنْ صَفَا نَظْرُهُ، وَتَهَذَّبَ لَفْظُهُ؛ نَفَعَ وَعَظَّمَهُ، وَمَنْ كَدَّرَ كُدْرَهُ؛ كُدِّرَ عَلَيْهِ. وَالْحَالَةُ الْعَالِيَةُ فِي هَذَا: إِقْبَالُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ، وَالنِّفَاتُ الْقَلْبِ عَنِ الْخَلْقِ؛ فَإِنْ احْتَجَجْتَ؛ فَاسْأَلْهُ، وَإِنْ ضَعُفَتْ؛ فَارْعَبْ إِلَيْهِ. وَمَتَى سَاكَنْتَ الْأَسْبَابَ؛ انْقَطَعَتْ عَنْهُ، وَمَتَى اسْتَقَامَ بَاطِنُكَ؛ اسْتَقَامَتْ لَكَ الْأُمُورُ.

٣٣٥ - فصل: المحقق لا يطلب إلا الأرفع

١٤٦٧ - رَأَيْتُ نَفْسِي تَأْتِسُ بِخُلَطَاءِ نُسَمِيِّهِمْ أَصْدِقَاءَ، فَبَحِثْتُ بِالتَّجَارِبِ عَنْهُمْ؛ فَإِذَا أَكْثَرَهُمْ حُسَادًا عَلَى النِّعَمِ، وَأَعْدَاءًا؛ لَا يَسْتُرُونَ رِزْقَهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ لِجَلِيسٍ حَقًّا، وَلَا يُوَأْسُونَ مِنْ مَالِهِمْ صَدِيقًا. فَتَأَمَّلْتُ الْأَمْرَ؛ فَإِذَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَغَارُ عَلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ شَيْئًا يَأْتِسُ بِهِ؛ فَهَوَ يُكَدِّرُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا؛ لِيَكُونَ أُنْسُهُ بِهِ.

(١) في حاشية الأصل: وفي نسخة ابن مسعود وهو تصحيف.

(٢) عابدة زاهدة، وواعظة بليغة، توفيت سنة (٣٩٣هـ).

١٤٦٨ - فَيَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّ الْخَلْقُ كُلَّهُمْ مَعَارِفَ، لَيْسَ فِيهِمْ صَدِيقٌ، بَلْ تَحَسَّبُهُمْ
أَعْدَاءً، وَلَا تُظْهِرُ سِرَّكَ لِمَخْلُوقٍ مِنْهُمْ، وَلَا تُعَدِّنَنَّ مَنْ يَصْلُحُ لِشِدَّةِ لَا وَلَدًا وَلَا أَخًا
وَلَا صَدِيقًا، بَلْ عَامِلُهُمْ بِالظَّاهِرِ، وَلَا تُخَالِطُهُمْ إِلَّا حَالَةَ الصَّرُورَةِ بِالتَّوَقُّي لِحِطَّةً، ثُمَّ
أَنْفِرْ عَنْهُمْ.

وَأَقْبِلْ عَلَى شَأْنِكَ؛ مُتَوَكِّلًا عَلَى خَالِقِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجْلِبُ الْحَيْرَ سِوَاهُ، وَلَا
يَصْرِفُ السُّوَاءَ إِلَّا إِيَّاهُ. فَلْيَكُنْ جَلِيسَكَ وَأَنْيَسَكَ، وَمَوْضِعَ تَوَكُّلِكَ وَشُكُوكِكَ؛ فَإِنْ
ضَعَفَ بَصْرُكَ؛ فَاسْتَعْنِ بِهِ، وَإِنْ قَلَّ يَقِينُكَ؛ فَسَلِّهِ الثَّوَّةَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَمِيلَ إِلَى غَيْرِهِ؛
فَإِنَّهُ غَيُورٌ، وَأَنْ تَشْكُوَ مِنْ أَفْدَارِهِ، فَرَبِّمَا غَضِبَ وَلَمْ يُمْهِلْ^(١).

١٤٦٩ - أَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَى يُوسُفَ ﷺ: مَنْ خَلَصَكَ مِنَ الْجُبِّ؟ مَنْ فَعَلَ؟
مَنْ فَعَلَ؟ قَالَ: أَنْتَ. قَالَ: فَلِمَ ذَكَرْتَ غَيْرِي؟ فَلَأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ! أَوْ كَمَا قَالَ.

هَذَا، وَإِنَّمَا تَعَرَّضَ يُوسُفُ ﷺ بِسَبَبِ مُبَاحٍ: ﴿أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾
[يوسف: ٤٢]. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥].

١٤٧٠ - وَمَا أَعْرِفُ الْعَيْشَ إِلَّا لِمَنْ يَعْرِفُهُ [جَلَّ شَأْنُهُ]، وَيَعِيشُ مَعَهُ، وَيَتَأَدَّبُ
بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَرَكَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ، كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَيَقِفُ عَلَى بَابِ طَرْفِهِ حَارِسًا مِنْ نَظَرَةٍ لَا
تَصْلُحُ، وَعَلَى بَابِ لِسَانِهِ حَافِظًا لَهُ مِنْ كَلِمَةٍ لَا تَحْسُنُ، وَعَلَى بَابِ قَلْبِهِ حِمَايَةً
لِمَسْكِنِهِ مِنْ دُخُولِ الْأَغْيَارِ، وَيَسْتَوْحِشُ مِنَ الْخَلْقِ شُغْلًا بِهِ. وَهَذَا يَكُونُ عَلَى سِيرَةِ
الرُّوحَانِيِّينَ. فَأَمَّا الْمُخَلِّطُ؛ فَالْكَدْرُ غَالِبٌ عَلَيْهِ. وَالْمُحِقُّ لَا يَطْلُبُ إِلَّا الْأَرْفَعَ. قَالَ
الْقَائِلُ:

أَلَا لَا أَحِبُّ السَّيْرَ إِلَّا مُصَاعِدًا وَلَا الْبَرْقَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَمَانِيَا

٣٣٦ - فصل: الاشتغال بصورة العلم دون حقيقته ومقصوده

١٤٧١ - رَأَيْتُ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ مَشْتَغَلِينَ بِصُورَةِ الْعِلْمِ دُونَ فَهْمِ حَقِيقَتِهِ وَمَقْصُودِهِ:
فَالْقَارِئُ مَشْغُولٌ بِالرُّوَايَاتِ، عَاكِفٌ عَلَى الشُّوَادِّ، يُرَى أَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْسُ

(١) فِي الْأَصْلِ: يَحْتَمَلُ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

التَّلَاوَةِ، وَلَا يَتَلَمَّحُ عَظَمَةَ الْمُتَكَلِّمِ، وَلَا زَجَرَ الْقُرْآنِ وَوَعْدَهُ، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ يَدْفَعُ عَنْهُ؛ فَتَرَاهُ يَتَرَخَّصُ فِي الذُّنُوبِ، وَلَوْ فَهِمَ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقْوَى مِمَّنْ لَمْ يَقْرَأْ!

وَالْمُحَدِّثُ يَجْمَعُ الطُّرُقَ، وَيَحْفَظُ الْأَسَانِيدَ، وَلَا يَتَأَمَّلُ مَقْصُودَ الْمُتَقُولِ، وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ حَفِظَ عَلَى النَّاسِ الْأَحَادِيثَ؛ فَهُوَ يَرْجُو بِذَلِكَ السَّلَامَةَ، وَرُبَّمَا تَرَخَّصَ فِي الْحَطَايَا؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا فَعَلَ فِي الشَّرِيعَةِ يَدْفَعُ عَنْهُ!

وَالْفَقِيهُ قَدْ وَقَعَ لَهُ أَنَّهُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِنَ الْجِدَالِ، الَّذِي يُقَوِّي بِهِ حِصَامَهُ، أَوْ الْمَسَائِلِ الَّتِي قَدْ عَرَفَ فِيهَا الْمَذْهَبَ: قَدْ حَصَلَ بِمَا يُفْتِي بِهِ النَّاسَ مَا يَرْفَعُ قَدْرَهُ، وَيَمْحُو ذَنْبَهُ؛ فَرُبَّمَا هَجَمَ عَلَى الْحَطَايَا؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ يَدْفَعُ عَنْهُ! وَرُبَّمَا لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ، وَلَمْ يَعْرِفِ الْحَدِيثَ، وَأَنْهَمَا يَنْهَيَانِ عَنِ الْفَوَاحِشِ بِزَجْرِ وَرَفْقٍ، وَيَنْصَافُ إِلَيْهِ مَعَ الْجَهْلِ بِهِمَا حُبُّ الرِّئَاسَةِ، وَإِثَارُ الْعَلْبَةِ فِي الْجِدْلِ، فَتَزِيدُ قَسْوَةَ قَلْبِهِ!

وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ النَّاسِ؛ صُورُ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ صِنَاعَةٌ، فِيهِ تَكْسِبُهُمُ الْكِبَرَ وَالْحِمَاقَةَ.

١٤٧٢ - وَقَدْ حَكَى بَعْضُ الْمُعْتَبِرِينَ، عَنْ شَيْخٍ أَفْتَى عُمُرَهُ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ، أَنَّهُ فُتِنَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بِفِسْقٍ أَصَرَ عَلَيْهِ، وَبَارَزَ اللَّهَ بِهِ، وَكَانَتْ حَالُهُ تُعْطِي بِمَضْمُونِهَا: أَنَّ عِلْمِي يَدْفَعُ عَنِّي شَرًّا مَا أَنَا فِيهِ، وَلَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ! وَكَانَ كَأَنَّهُ قَدْ قَطَعَ لِنَفْسِهِ بِالنَّجَاةِ؛ فَلَا يَرَى عِنْدَهُ أَثَرَ لِحُوفٍ، وَلَا نَدَمَ عَلَى ذَنْبٍ!! قَالَ: فَتَغَيَّرَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَلَا زَمَهُ الْفَقْرُ، فَكَانَ يَلْقَى الشَّدَائِدَ، وَلَا يَنْتَهِي عَنْ قُبْحِ حَالِهِ، إِلَى أَنْ جُمِعَتْ لَهُ يَوْمًا قَرَارِيضٌ^(١) عَلَى وَجْهِ الْكُذْبَةِ^(٢)، فَاسْتَحْيَا مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا رَبِّ! إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟! قَالَ الْحَاكِمِيُّ: فَتَعَجَّبْتُ مِنْ عَفَلْتِهِ؛ كَيْفَ نَسِيَ اللَّهُ ﷻ، وَأَرَادَ مِنْهُ حُسْنَ التَّدْبِيرِ لَهُ، وَالصِّيَانَةَ، وَسَعَةَ الرِّزْقِ؟! وَكَأَنَّهُ مَا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلُوْا اسْتَقْمُوْا عَلَى الطَّرِيْقَةِ لِاسْقِيْنَهُمْ مَّاءَ عَدْوًا﴾ [الجن: ١٦]، وَلَا عَلِمَ أَنَّ الْمَعَاصِي تَسُدُّ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، وَأَنَّ مَنْ ضَيَّعَ أَمْرَ اللَّهِ ضَيَّعَهُ اللَّهُ؟! فَمَا رَأَيْتُ عِلْمًا مَا أَفَادَ كَعِلْمِ هَذَا! لِأَنَّ الْعَالِمَ إِذَا زَلَّ انْكَسَرَ^(٣)، وَهَذَا

(١) القيراط = ٢٢٣٢، غ.

(٢) الكذبة: الاستجداء وسؤال الناس.

(٣) انكسر: اندل.

مُصِرٌّ، لَا تُؤْلِمُهُ مَعْصِيَتُهُ، وَكَأَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ مَا يَفْعَلُ، أَوْ كَأَنَّ لَهُ التَّصَرُّفَ فِي الدِّينِ تَحْلِيلًا
وَتَحْرِيمًا، فَمَرِضٌ عَاجِلًا، وَمَاتَ عَلَى أَقْبَحِ حَالٍ!!

١٤٧٣ - قَالَ الْحَاكِمِيُّ: وَرَأَيْتُ شَيْخًا آخَرَ، حَصَلَ صُورَ عِلْمٍ فَمَا أَفَادَتْهُ؛ كَانَ
أَيُّ فُسُوقٍ أَمْكَنَهُ، لَمْ يَتَحَاشَ مِنْهُ، وَأَيُّ أَمْرٍ لَمْ يُعْجِبْهُ مِنَ الْقَدْرِ، عَارَضَهُ بِالْاِعْتِرَاضِ
عَلَى الْمُقَدَّرِ وَاللَّوْمِ، فَعَاشَ أَكْثَرَ عَيْشٍ، وَعَلَى أَقْبَحِ اِعْتِقَادٍ، حَتَّى دَرَجَ ^(١).

١٤٧٤ - وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَى الْعِلْمِ، وَلَيْسَ الْعِلْمُ صُورَ الْأَلْفَاظِ، إِنَّمَا
الْمَقْصُودُ فَهْمُ الْمُرَادِ مِنْهُ، وَذَلِكَ يُورِثُ الْحَشِيَّةَ وَالْخَوْفَ، وَيُرِي الْمِنَّةَ لِلْمُنْعَمِ بِالْعِلْمِ،
وَقُوَّةَ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ يَقْظَةً تُفْهِمُنَا الْمَقْصُودَ، وَتُعَرِّفُنَا الْمَعْبُودَ. وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَبِيلِ
رِعَاعٍ يَتَسَمَّوْنَ بِالْعُلَمَاءِ؛ لَا يَنْهَاهُمْ مَا يَحْمِلُونَ، وَيَعْلَمُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى
النَّاسِ بِمَا لَا يَعْمَلُونَ، وَيَأْخُذُونَ عَرَضَ الْأَذْنَى ^(٢)، وَقَدْ نُهُوا عَمَّا يَأْخُذُونَ، غَلَبَتْهُمْ
طِبَاعُهُمْ، وَمَا رَاضَتْهُمْ عُلُومُهُمْ الَّتِي يَدْرُسُونَ؛ فَهُمْ ^(٣) أَحْسُّ حَالًا مِنَ الْعَوَامِّ الَّذِينَ
يَجْهَلُونَ، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

٣٣٧ - فصل: للفقهاء أن يطالع من كل فن طرفًا

١٤٧٥ - لِلْفَقَّهِهِ أَنْ يُطَالِعَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ طَرَفًا: مِنْ تَارِيخٍ، وَحَدِيثٍ، وَلُغَةٍ، وَعَبْرٍ
ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْفِقْهَ يَحْتَاجُ إِلَى جَمِيعِ الْعُلُومِ؛ فَلْيَأْخُذْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا مُهْمًا.

١٤٧٦ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ يَقُولُ: اجْتَمَعَ الشَّبْلِيُّ وَشَرِيكُ الْقَاضِي ^(٤)!
فَاسْتَعَجَبْتُ لَهُ! كَيْفَ لَا يَدْرِي بَعْدَ مَا بَيْنَهُمَا؟! وَقَالَ آخَرُ فِي مَنَاطِرَةٍ: كَانَتْ الزَّوْجِيَّةُ
بَيْنَ فَاطِمَةَ وَعَلِيِّ عليهما السلام غَيْرَ مُنْقَطِعَةِ الْحُكْمِ؛ فَلِهَذَا غَسَلَهَا! فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! فَقَدْ

(١) درج: مات.

(٢) في الأصل: فبي، وهو تصحيف.

(٣) شريك بن عبد الله النخعي الكوفي (٩٥ - ١٧٧هـ): الفقيه العلامة، أما الشبلي فقد ولد سنة

(٤) ٢٤٧هـ؛ فكيف يلتقيان!؟

تَزَوَّجَ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ، وَهِيَ ابْنَةُ أُخْتِهَا! فَانْقَطَعَ^(١).

١٤٧٧ - وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ (إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ) لِلْغَزَالِيِّ مِنْ هَذَا مَا يُدْهِشُ مِنَ التَّخْلِيْطِ فِي الْأَحَادِيثِ وَالتَّوَارِيخِ، فَجَمَعْتُ مِنْ أَغَالِيْطِهِ كِتَابًا^(٢).

وَقد ذَكَرَ فِي كِتَابِ لَهُ سَمَاهُ (المُسْتَظْهَرِي)^(٣) وَعَرَضَهُ عَلَى المُسْتَظْهَرِ بِاللَّهِ^(٤):
أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ^(٥) بَعَثَ إِلَى أَبِي حَازِمٍ^(٦)، فَقَالَ لَهُ: ابْعَثْ لِي مِنْ فُطُورِكَ!
فَبَعَثَ إِلَيْهِ نُخَالَةَ مَقْلُوءَةً، فَأَفْطَرَ عَلَيْهَا، ثُمَّ جَامَعَ زَوْجَتَهُ، فَجَاءَتْ بِعَبْدِ الْعَزِيزِ^(٧)، ثُمَّ
وُلِدَ لَهُ عَمْرٌ^(٨)!! وَهَذَا تَخْلِيْطٌ قَبِيْحٌ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنَ
عَبْدِ الْمَلِكِ! فَجَعَلَ سُلَيْمَانَ جَدَّهُ، وَإِنَّمَا هُوَ ابْنُ عَمِّهِ.

١٤٧٨ - وَقد ذَكَرَ أَبُو الْمَعَالِيِّ الْجُوَيْنِيُّ فِي أَوَاخِرِ كِتَابِ (الشَّامِلِ فِي
الْأُصُولِ)^(٩)؛ قَالَ: قَدْ ذَكَرْتُ طَائِفَةً مِنَ الثَّقَاتِ الْمُعْتَمِنِينَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْبَوَاطِنِ أَنَّ
الْحَلَّاجَ وَالْجَنَابِيَّ^(١٠) الْقَرْمِطِيَّ وَابْنَ الْمُقَنِّعِ تَوَاصَوْا عَلَى قَلْبِ الدُّوَلِ، وَإِفْسَادِ
الْمَمْلَكَةِ، وَاسْتِعْطَافِ الْقُلُوبِ، وَارْتَادِ كُلِّ مِنْهُمْ فُطْرًا، فَقَطَّنَ الْجَنَابِيُّ فِي الْأَحْسَاءِ،
وَتَوَعَّلَّ ابْنُ الْمُقَنِّعِ فِي أَطْرَافِ بِلَادِ التُّرْكِ، وَقَطَّنَ الْحَلَّاجُ بِبَغْدَادَ، فَحَكَّمَ عَلَيْهِ صَاحِبَاهُ
بِالْهَلَكَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ بُلُوغِ الْأَمْنِيَّةِ؛ لِبُعْدِ أَهْلِ بَغْدَادَ عَنِ الْأَنْخِدَاعِ، وَتَوَفُّرِ فِطْنَتِهِمْ،
وَصِدْقِ فِرَاسَتِهِمْ.

(١) انقطع: لم يحر جوابًا.

(٢) وقد وقع مثل هذا للمؤلف في الفصل (٤٩) من هذا الكتاب. وفي الأصل: في كتاب.

(٣) وطبع تحت اسم (فضائح الباطنية) بتحقيق عبد الرحمن بدوي.

(٤) أحمد بن المقتيدي بأمر الله عبد الله الهاشمي الخليفة العباسي (٤٧٠ - ٥١٢هـ) كان موصوفًا
بالسخاء والجود ومحبة العلماء وأهل الدين.

(٥) الخليفة الأموي السابع (٥٤ - ٩٩هـ) وهو الذي رشح عمر بن عبد العزيز للخلافة.

(٦) سلمة بن دينار عالم المدينة، توفي سنة (١٤٠هـ).

(٧) عبد العزيز بن مروان أمير مصر، توفي سنة (٨٥هـ).

(٨) فضائح الباطنية ص (٢١٧).

(٩) كتاب في أصول الدين. طبع قسم منه بتحقيق الدكتور علي سامي النشار.

(١٠) الحسن بن بهرام، أبو سعيد، كبير القرامطة في البحرين، قتله غلام له سنة (٣٠١هـ).

قُلْتُ: وَلَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَوْ مَنْ حَكَى عَنْهُ عَرَفَ التَّارِيخَ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الْحَلَّاجَ لَمْ يَدْرِكِ ابْنَ الْمُقَنِّعِ؛ فَإِنَّ ابْنَ الْمُقَنِّعِ^(١) أَمَرَ بِقَتْلِهِ الْمَنْصُورُ، فَقُتِلَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِئَةٍ، وَأَبُو سَعِيدِ الْجَنَابِيِّ الْقِرْمِطِيُّ ظَهَرَ فِي سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَمِئَتَيْنِ، وَالْحَلَّاجُ قُتِلَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِ مِئَةٍ؛ فَرَمَانَ الْقِرْمِطِيِّ وَالْحَلَّاجِ مُتَقَارِبَانِ؛ فَأَمَّا ابْنُ الْمُقَنِّعِ؛ فَكَلا.

١٤٧٩ - فَيَنْبَغِي لِكُلِّ ذِي عِلْمٍ أَنْ يُسَاهِمَ بِبَاقِي الْعُلُومِ، فَيُطَالِعَ مِنْهَا طَرَفًا؛ إِذْ لِكُلِّ عِلْمٍ بِعِلْمٍ تَعَلُّقٌ. وَأَقْبَحُ^(٢) بِمُحَدِّثٍ يُسْأَلُ عَنْ حَادِثَةٍ فَلَا يَدْرِي، وَقَدْ شَغَلَهُ مِنْهَا جَمْعُ الْأَحَادِيثِ.

وَقَبِيحٌ بِالْفَقِيهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مَا مَعْنَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَذَا؟ فَلَا يَدْرِي صِحَّةَ الْحَدِيثِ وَلَا مَعْنَاهُ! نَسَأَلُ اللَّهَ ﷻ هِمَّةً عَالِيَةً، لَا تَرْضَى بِالنَّقَائِصِ بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ.

٣٣٨ - فصل: همم القدماء من العلماء

١٤٨٠ - كَانَتْ هِمَمُ الْقُدَمَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَالِيَةً، تَدُلُّ عَلَيْهَا تَصَانِيهُمُ، الَّتِي هِيَ زُبْدَةُ أَعْمَارِهِمْ؛ إِلَّا أَنْ أَكْثَرَ تَصَانِيهِمْ دُثِرَتْ؛ لِأَنَّ هِمَمَ الطُّلَّابِ ضَعُفَتْ، فَصَارُوا يَطْلُبُونَ الْمُخْتَصِرَاتِ، وَلَا يَنْشَطُونَ لِلْمَطْوَلَاتِ، ثُمَّ اقْتَصَرُوا عَلَى مَا يَدْرُسُونَ بِهِ مِنْ بَعْضِهَا^(٣)، فَدَثِرَتِ الْكُتُبُ، وَلَمْ تُنَسَخْ!

١٤٨١ - فَسَبِيلُ طَالِبِ الْكَمَالِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْكُتُبِ، الَّتِي قَدْ تَخَلَّفَتْ مِنَ الْمُصَنَّفَاتِ؛ فَلْيَكْثِرْ مِنَ الْمُطَالَعَةِ؛ فَإِنَّهُ يَرَى مِنْ عُلُومِ الْقَوْمِ، وَعَلَوْ هِمَمِهِمْ مَا يَشْحَدُ خَاطِرَهُ، وَيَحْرِكُ عَزِيمَتَهُ لِلجِدِّ، وَمَا يَخْلُو كِتَابٌ مِنْ فَائِدَةٍ.

١٤٨٢ - وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَيْرِ هَوْلَاءِ الَّذِينَ نَعَاشِرُهُمْ! لَا نَرَى فِيهِمْ ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ؛ فَيَقْتَدِي بِهَا الْمُبْتَدِئُ، وَلَا صَاحِبَ وَرَعٍ، فَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ الرَّاهِدُ.

(١) الذي قتله المنصور هو عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٤هـ) من أئمة الكتاب ترجم كليله ودمنه. أما المقنع - وليس ابن المقنع - فاسمه عطاء، مشعوذ مشهور ادعى الربوبية، فتبعه قوم، وقاتلوا في سبيله، وكان مشوه الخلق، فاتخذ وجهًا من ذهب تقنع به، جيش المهدي إليه العجوش فسَمَّ نفسه ومات سنة (١٦٣)هـ، فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ التيس عليه الرجلان.

(٢) في الأصل: ما أقبح، ولا يستقيم مع ما بعده.

(٣) وهذا حال كثير من المشايخ ومريديهم

فَاللَّهُ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ بِمُلاحَظَةِ سَيْرِ السَّلَفِ، وَمُطالَعَةِ تَصانِيهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ؛
فَالاسْتِثْناءُ مِنْ مُطالَعَةِ كُتُبِهِمْ رُؤيةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ^(١):

فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي فَلَعَلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي

١٤٨٣ - وَإِنِّي أَخْبِرُ عَنْ حَالِي: مَا أَشْبَعُ مِنْ مُطالَعَةِ الكُتُبِ، وَإِذَا رَأَيْتُ كِتَابًا
لَمْ أَرَهُ؛ فَكَأَنِّي وَقَعْتُ عَلَى كَنْزٍ؛ وَلَقَدْ نَظَرْتُ فِي ثَبَتِ الكُتُبِ المَوْفُوفَةِ فِي المَدْرَسَةِ
النَّظامِيَّةِ^(٢)؛ فَإِذَا بِهِ يَحْتَوِي عَلَى نَحْوِ سِتَّةِ آلافِ مُجلَّدٍ، وَفِي ثَبَتِ كُتُبِ أَبِي حَنِيفَةَ،
وَكُتُبِ الحَمِيدِيِّ، وَكُتُبِ شَيْخِنَا عَبْدِ الوَهَّابِ، وَابْنِ ناصِرٍ، وَكُتُبِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ
الحَشَّابِ - وَكَانَتْ أَحْمالًا - وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ كِتَابٍ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَوْ قُلْتُ: إِنِّي
طالَعْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ مُجلَّدٍ؛ كَانَ أَكْثَرَ، وَأَنَا بَعْدُ فِي الطَّلَبِ! فَاسْتَفَدْتُ بِالنَّظَرِ فِيهَا مِنْ
مُلاحَظَةِ سَيْرِ القَوْمِ، وَقَدَرِ هَمَمِهِمْ، وَحَفْظِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ، وَغَرَائِبِ عُلُومِهِمْ: مَا لَّا
يَعْرِفُهُ مَنْ لَمْ يَطالِعْ، فَصِرْتُ أَسْتَرْزِي^(٣) مَا النَّاسُ فِيهِ، وَأَحْتَقِرُ هَمَمَ الطُّلابِ. وَاللَّهُ
الحَمْدُ.

٣٣٩ - فصل: أثر قلة العقل وترك أعماله

١٤٨٤ - لَيْسَ لِلأَدَمِيِّ أَعزُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ عَجِبْتُ مِمَّنْ يُحَاطِرُ بِهَا، وَيُعَرِّضُهَا
لِلْهَلَاكِ! والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ قِلَّةُ العَقْلِ، وَسَوْءُ النَّظَرِ!! فَمِنْهُمْ مَنْ يُعَرِّضُهَا لِلتَّلَفِ،
لِيُمدِّحَ بِرِغْمِهِ؛ مِثْلُ قَوْمٍ يَخْرُجُونَ إِلَى قَتْلِ السَّبْعِ! وَمِنْهُمْ مَنْ يَضَعُدُ إِلَى إِيْوَانِ
كِسْرَى^(٤)؛ لِيُقَالَ: شَاطِرٌ! وَسَاعَ يَمْشِي ثَلَاثِينَ فَرَسْحًا! وَهُوَ إِذَا تَلَفُوا؛ حُمِلُوا إِلَى
النَّارِ؛ فَإِنَّ هَلَكَ؛ ذَهَبَتِ النَّفْسُ الَّتِي يُرَادُ المَالُ لِأَجْلِهَا.

(١) هو للشريف الرضي، ديوانه (١/٥٠٠).

(٢) المدرسة الكبرى التي أنشأها الوزير نظام الملك الحسن بن علي الطوسي ببغداد، وبدئ
التدريس فيها سنة (٤٥٩هـ).

(٣) محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي الأندلسي الميورقي، الفقيه، ولد قبل سنة (٤٢٠هـ)
واستوطن بغداد، وتوفي سنة (٤٨٨هـ).

(٤) قال ياقوت: رأيته وقد بقي منه طاق الإيوان فحسب، وهو مبني بآجر، طول كل آجرة نحو
ذراع في عرض أقل من شبر، وهو عظيم جدًا، وهو من بناء كسرى أبرويز.

وَأَعْجَبُ مِنَ الْكُلِّ مَنْ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ فِي الْهَلَاكِ وَلَا يَدْرِي؛ مِثْلُ أَنْ يَغْضَبَ،
فَيَقْتُلَ الْمُسْلِمَ، فَيَسْفِي عَيْظَهُ بِالتَّعْذِيبِ فِي جَهَنَّمَ.

١٤٨٥ - وَأَظْرَفُ مِنْ هَذَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَبْلُغُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ
يُنْظَرَ فِي نُبُوَّةِ نَبِيِّنا ﷺ؛ فَإِذَا فَرَّطَ فَمَاتَ؛ فَلَهُ الْخُلُودُ فِي جَهَنَّمَ.

وَلَقَدْ قُلْتُ لِبَعْضِهِمْ: وَيْحَكَ! تُخَاطِرُ بِنَفْسِكَ فِي عَذَابِ الْأَبَدِ! نَحْنُ نُوْمِنُ بِنَبِيِّكُمْ
فَنَقُولُ: لَوْ أَنَّ مُسْلِمًا آمَنَ بِنَبِيِّنا، وَكَذَّبَ بِنَبِيِّكُمْ أَوْ بِالتَّوْرَةِ؛ خُلِدَ فِي النَّارِ؛ فَمَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ خِلافٌ!! إِذْ نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِصِدْقِهِ وَكِتَابِهِ؛ فَلَوْ لَقِينَاهُ؛ لَمْ نَحْجَلْ، وَلَوْ عَاتَبَنَا
مَثَلًا وَقَالَ: هَلْ قُمْتُمْ بِالسَّبْتِ؟ وَالسَّبْتُ مِنَ الْفُرُوعِ، وَالْفُرُوعُ لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهَا
بِالْخُلُودِ.

فَقَالَ لِي رَئِيسُ الْقَوْمِ: مَا نَظَائِكُمْ بِهَذَا؛ لِأَنَّ السَّبْتَ إِنَّمَا يَلْزَمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَقُلْتُ: فَقَدْ سَلِمْنَا بِإِجْمَاعِكُمْ، وَأَنْتُمْ هَالِكُونَ؛ لِأَنَّكُمْ تُخَاطِرُونَ بِأَرْوَاحِكُمْ فِي
العَذَابِ الدَّائِمِ!! وَالْعَجَبُ بِمَنْ يُهْمِلُ النَّظَرَ فِيمَا إِذَا تَوَانَى فِيهِ أَوْجَبَ الْخُلُودَ فِي
العِقَابِ الدَّائِمِ.

وَأَعْجَبُ مِنَ الْكُلِّ جَاحِدُ الْخَالِقِ، وَهُوَ يَرَى إِحْكَامَ الصَّنْعَةِ، وَيَقُولُ: لَا
صَانِعَ. وَالسَّبَبُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا قِلَّةُ الْعَقْلِ، وَتَرْكُ إِعْمَالِهِ فِي النَّظَرِ
وَالاسْتِدْلَالِ.

٣٤٠ - فصل: رَبِّ سِرِّ ظَهَرَ فَكَانَ سَبَبَ الْهَلَاكِ

١٤٨٦ - لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُظْهِرَ سِرًّا حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ لَا يَتَأَدَّى
بِظُهُورِهِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّبَبَ فِي بَثِّ السَّرِّ طَلْبُ الْاسْتِرَاحَةِ بِبَيْتِهِ، وَذَلِكَ أَلَمٌ قَرِيبٌ؛
فَلْيَضِرَّ عَلَيْهِ. فَرَبُّ مُظْهِرِ سِرِّ لِرُؤُوسِهِ؛ فَإِذَا طَلَّقَتْ بَيْتَهُ وَهَلَكَ، أَوْ لِصَدِيقِهِ، فَيُظْهِرُ
عَلَيْهِ حَسَدًا لَهُ، إِذَا كَانَ مُمَاطِلًا، وَإِنْ كَانَ عَامِيًّا؛ فَالْعَامِيُّ أَحْمَقُ. وَرَبُّ سِرِّ أُظْهِرَ
فَكَانَ سَبَبَ الْهَلَاكِ.

١٤٨٧ - مَا يَتَنَاهَى فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا عَاشِقُ الْعِلْمِ، وَالْعَاشِقُ يَنْبَغِي أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَمِنْ ضَرُورَةِ الْمُتَشَاغِلِ بِهِ الْبُعْدُ عَنِ الْكَسْبِ. وَمُذْ فَقَدَ التَّفَقُّدَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَمِنَ الْإِخْوَانِ؛ لِأَزْمَهُمُ الْفَقْرُ ضَرُورَةً، وَالْفَضَائِلُ تُنَادِي: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]؛ فَكُلَّمَا خَافَتْ مِنْ ابْتِلَاءٍ؛ قَالَتْ:

لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ أَكَلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا

١٤٨٨ - وَلَمَّا آثَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رضي الله عنه طَلَبَ الْعِلْمَ، وَكَانَ فَقِيرًا؛ بَقِيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَشَاغَلُ بِهِ، وَلَا يَتَزَوَّجُ.

فَيَنْبَغِي لِلْفَقِيرِ أَنْ يُصَابِرَ فَقْرَهُ كَمَا فَعَلَ أَحْمَدُ! وَمَنْ يُطِيقُ مَا أَطَاقَ؟! فَقَدْ رَدَّ مِنَ الْمَالِ خَمْسِينَ أَلْفًا، وَكَانَ يَأْكُلُ الْكَامِخَ ^(١) وَيَتَأَدَّمُ بِالْمَلْحِ؛ فَمَا شَاعَ لَهُ الذُّكْرُ الْجَمِيلُ جُرَافًا، وَلَا تَرَدَّدَتِ الْأَقْدَامُ إِلَى قَبْرِهِ إِلَّا لِمَعْنَى عَجِيبٍ. فَيَا لَهُ ثَنَاءً مَلَأَ الْأَفَاقَ، وَجَمَالَ زَيْنَ الْوُجُودِ، وَعِزًّا نَسَخَ كُلَّ ذُلٍّ! هَذَا فِي الْعَاجِلِ، وَثَوَابُ الْآجِلِ لَا يُوصَفُ.

١٤٨٩ - وَتَلَمَّحَ قُبُورَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ؛ لَا تُعْرِفُ وَلَا تُرَارُ، تَرَحَّصُوا، وَتَأَوَّلُوا، وَخَالَطُوا السَّلَاطِينَ، فَذَهَبَتْ بَرَكَةُ الْعِلْمِ، وَمُحِي الْجَاهُ، وَوَرَدُوا عِنْدَ الْمَوْتِ حِيَاضَ النَّدَمِ! فَيَا لَهَا حَسْرَاتٍ لَا تُتَلَفَى، وَخُسْرَانًا لَا يُنْجَبَرُ! وَكَانَتْ صُحْبَةُ اللَّذَاتِ طَرْفَةً عَيْنٍ، وَلَا زَمَ الْأَسَفِ دَائِمًا.

فَالصَّبْرُ الصَّبْرُ أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلْفَضَائِلِ! فَإِنَّ لَذَّةَ الرَّاحَةِ بِالْهَوَىٰ أَوْ بِالْبِطَانَةِ تَذْهَبُ، وَيَبْقَى الْأَسَىٰ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه ^(٢):

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرٌ أَيَّامٍ كَأَنَّ مُدَّتَهَا أَضْعَاثُ أَحْلَامٍ
يَا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً وَخَلَّ عَنْهَا فَإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِي

(١) طعام من السميد واللبن يجفف، ولعله قريب من الكشك.

(٢) ديوانه ص (١٠٨) ط. دار القلم بدمشق.

١٤٩٠ - ثُمَّ أَيُّهَا الْعَالِمُ الْفَقِيرُ! أَيْسُرُكَ مُلْكُ سُلْطَانٍ مِنَ السَّلَاطِينِ، وَأَنَّ مَا تَعَلَّمَهُ مِنَ الْعِلْمِ لَا تَعَلَّمُهُ؟ كَلَّا؛ مَا أَظُنُّ بِالْمُتَقَيِّظِ أَنْ يُؤَثِّرَ هَذَا!

١٤٩١ - ثُمَّ أَنْتَ إِذَا وَقَعَ لَكَ خَاطِرٌ مُسْتَحْسَنٌ أَوْ مَعْنَى عَجِيبٌ؛ تَجِدُ لَذَّةً لَا يَجِدُهَا مُلْتَذِّ بِاللَّذَاتِ الْحَسِّيَّةِ. فَقَدْ حُرِمَ مَنْ رُزِقَ الشَّهَوَاتِ مَا قَدْ رُزِقَتْ، وَقَدْ شَارَكْتُهُمْ فِي قِوَامِ الْعَيْشِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْفُضُولُ، الَّذِي إِذَا أَخَذَ لَمْ يَكُذْ يَضُرُّ. ثُمَّ هُمْ عَلَى الْمُخَاطَرَةِ فِي بَابِ الْآخِرَةِ غَالِبًا، وَأَنْتَ عَلَى السَّلَامَةِ فِي الْأَغْلَبِ.

فَتَلَمَّحْ يَا أَخِي عَوَاقِبَ الْأَحْوَالِ! وَاقَمِعِ الْكَسَلَ الْمُثَبِّطَ عَنِ الْفَضَائِلِ! فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ مَاتُوا مُفْرَطِينَ يَتَقَلَّبُونَ فِي حَسَرَاتٍ وَأَسْفِ.

١٤٩٢ - رَأَى رَجُلٌ شَيْخَنَا ابْنَ الرَّاعُونِيِّ^(١) فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: أَكْثَرُ مَا عِنْدَكُمْ الْعَقْلَةُ، وَأَكْثَرُ مَا عِنْدَنَا النَّدَامَةُ.

١٤٩٣ - فَاهْرُبْ وَفَقِّكَ اللَّهُ قَبْلَ الْحَبْسِ! وَافْسَحْ عَقْدَ الْهَوَى عَلَى الْعَبْنِ الْفَاحِشِ! وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ لَا تُنَالُ بِالْهُوَيْنِيِّ^(٢)، وَأَنَّ يَسِيرَ التَّفْرِيطِ يَشِينُ وَجْهَ الْمَحَاسِنِ!

فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ؛ وَنَفْسُ النَّفْسِ يَتَرَدَّدُ، وَمَلِكُ الْمَوْتِ غَائِبٌ مَا قَدِمَ بَعْدُ، وَأَنْهَضُ بَعَزِيمَةَ عَازِمٍ:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَبَ عَنِ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًا^(٣)
وَلَمْ يَسْتَشِيرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبًا

١٤٩٤ - وَارْفُضْ فِي هَذِهِ الْعَزِيمَةِ الدُّنْيَا وَأَرْبَابَهَا؛ فَبَارَكَ اللَّهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ؛ فَتَحَنُّ الْأَعْنِيَاءُ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ؛ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ؛ لَجَالِدُونَا^(٤) عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

(١) أبو الحسن علي بن عبيد الله البغدادي (٤٥٥ - ٥٢٧هـ): الإمام العلامة شيخ الحنابلة. وقد تصحف بالأصل إلى (ابن الزغواني).

(٢) الهويني: الاتتداد والرفق.

(٣) البيتان لسعد بن ناشب المازني. انظر: شرح الحماسة للتبريزي (١/٣٥).

(٤) جالدونا: قاتلونا.

١٤٩٥ - فَأَبْنَاءُ الدُّنْيَا؛ أَحَدُهُمْ لَا يَكَادُ يَأْكُلُ لُفْمَةً إِلَّا حَرَامًا أَوْ شُبُهَةً، وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يُؤْثِرْ ذَلِكَ؛ فَوَكَيْلُهُ يَفْعَلُهُ، وَلَا يُبَالِي هُوَ بِقَلَّةِ دِينٍ وَكَيْلِهِ، وَإِنْ عَمَرُوا دَارًا؛ سَخَّرُوا الفَعْلَةَ^(١)، وَإِنْ جَمَعُوا مَالًا؛ فَمِنْ وُجُوهِ لَا تَصْلُحُ، ثُمَّ كُلُّ مِنْهُمْ خَائِفٌ أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يُسْتَمَّ؛ فَعَيْشُهُمْ نَعَصٌ.

١٤٩٦ - وَنَحْنُ نَأْكُلُ مَا ظَاهَرُ الشَّرْعِ يَشْهَدُ لَهُ بِالِإِبَاحَةِ، وَلَا نَخَافُ مِنْ عَدُوٍّ، وَلَا وَلايَتُنَا تَقْبُلُ العَزْلَ، وَالعِزُّ فِي الدُّنْيَا لَنَا لَا لَهُمْ، وَإِقْبَالُ الخَلْقِ عَلَيْنَا، وَتَقْبِيلُ أَيْدِينَا وَتَعْظِيمُنَا عِنْدَهُمْ كَثِيرٌ، وَفِي الآخِرَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. فَإِنْ لَفَتِ أَرْبَابُ الدُّنْيَا أَعْنَاقَهُمْ؛ يَعْلَمُونَ قَدْرَ مَرِيَّتِنَا، وَإِنْ عُلتِ أَيْدِيهِمْ عَنْ إعْطَائِنَا؛ فَلَذَّةُ العَفَافِ أَطْيَبُ، وَمَرَارَةُ المِنَنِ لَا تَقِي بِالْمَأْخُودِ، وَإِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ، وَإِنَّمَا أَيَّامٌ قَلِيلٌ.

١٤٩٧ - وَالعَجَبُ لِمَنْ شَرَفَتْ نَفْسُهُ حَتَّى طَلَبَ العِلْمَ - إِذْ لَا تَطْلُبُهُ إِلَّا ذُو نَفْسٍ شَرِيفَةٍ؛ كَيْفَ يَذِلُّ لِبَذْلِ مَنْ لَا عِزَّهُ إِلَّا بِالدَّنَانِيرِ؛ وَلَا فَخْرُهُ إِلَّا بِالمَكْنَةِ؟! وَلَقَدْ أَنشَدَنِي أَبُو يَغْلَى العَلَوِيُّ^(٢):

رُبَّ قَوْمٍ فِي خَلَائِقِهِمْ عَرَّرَ قَدْ صَيَّرُوا غُرَرًا
سَتَرَ المَالَ القَبِيحَ لَهُمْ سَتَرِي إِنْ زَالَ مَا سَتَرَا

أَيَقَطُّنَا اللهُ مِنْ رَقْدَةِ العَافِلِينَ، وَرَزَقَنَا فِكْرَ المُتَيَقِّظِينَ، وَوَفَّقَنَا لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَى العِلْمِ وَالعَقْلِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

٣٤٢ - فصل: البدن كالراحلة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب

١٤٩٨ - لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى بَدَنِهِ مَا لَا يُطِيقُ؛ فَإِنَّ البَدَنَ كَالرَّاحِلَةِ؛ إِنْ لَمْ يُرْفَقْ بِهَا؛ لَمْ تَصِلْ بِالرَّائِبِ.

(١) هم الذين يعملون بالميأومة في أعمال البناء والترميم ونحوها، وما زال هذا التعبير درجاً عندنا في الشام وكانوا يسمون في عصر المؤلف الرؤزجارية. انظر الفصل (٣٧١).

(٢) لم أجد له ترجمة، والعرر: العيوب.

١٤٩٩ - فَتَرَى فِي النَّاسِ مَنْ يَتَزَهَّدُ، وَقَدْ رَبَّى جَسَدَهُ عَلَى التَّرَفِ، فَيُعْرِضُ عَمَّا أَلْفَهُ، فَتَتَجَدَّدُ لَهُ الْأَمْرَاضُ، فَتَقْطَعُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ. وَقَدْ قِيلَ: عَوَّدُوا كُلَّ بَدَنِ مَا اعْتَادَا! وَقَدْ قُرِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَبٌّ، فَقَالَ: «أَجِدُنِي أَعَافُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضٍ قَوْمِي»^(١).

١٥٠٠ - وَفِي حَدِيثِ الْهَجْرَةِ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَلَبَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الظَّلَّ، وَفَرَسَ لَهُ فَرَوَةً، وَصَبَّ عَلَى الْقَدَحِ الَّذِي فِيهِ اللَّبَنُ مَاءً حَتَّى بَرَدَ.

١٥٠١ - وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْمٍ، فَقَالَ: «إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِي شَيْءٍ، وَإِلَّا؛ كَرَعْنَا». وَكَانَ ﷺ يَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ. وَفِي «الصَّحِيحِ»: أَنَّهُ كَانَ يَحِبُّ الْحَلْوَى وَالْعَسَلَ. وَكَانَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ؛ أَكَلَ مَا حَضَرَ.

١٥٠٢ - وَلَعَمْرِي؛ إِنْ فِي الْعَرَبِ وَأَهْلِ السَّوَادِ^(٢) مَنْ لَا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ التَّحَشُّنُ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ، وَذَلِكَ إِذَا جَرَى بَعْدَ تَوْبَتِهِ عَلَى عَادَتِهِ؛ لَمْ يَسْتَصِرَّ. فَأَمَّا مَنْ قَدْ أَلْفَ اللَّطْفَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا غَيَّرَ حَالَتَهُ؛ تَغَيَّرَ بَدَنُهُ، وَقَلَّتْ عِبَادَتُهُ.

١٥٠٣ - وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ^(٣) يُدِيمُ أَكْلَ اللَّحْمِ، وَيَقُولُ: لَا رَغِيْفِي مَالِكٍ^(٤)، وَلَا صَحْنِي فَرْقَدٍ^(٥).

١٥٠٤ - وَكَانَ ابْنُ سَيْرِينَ لَا يُخْلِي مَنْزِلَهُ مِنْ حَلْوَى. وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يُسَافِرُ، وَفِي سُفْرَتِهِ الْحَمْلُ الْمَسْوِيُّ وَالْقَالُودَجُ. وَقَالَتْ رَابِعَةُ: مَا أَرَى لِبَدَنِ يَرَادُ بِهِ الْعَمَلُ لِلَّهِ إِذَا أَكَلَ الْقَالُودَجَ عَيْبًا.

فَمَنْ أَلْفَ التَّرَفَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَلَطَّفَ بِنَفْسِهِ إِذَا أَمَكَّنَهُ.

١٥٠٥ - وَقَدْ عَرَفْتُ هَذَا مِنْ نَفْسِي؛ فَإِنِّي رَبَّيْتُ فِي تَرَفٍ، فَلَمَّا ابْتَدَأْتُ فِي التَّقَلُّلِ وَهَجَرَ الْمُشْتَهَى؛ أَثَّرَ مَعِيَ مَرَضًا، فَطَعَنِي عَنْ كَثِيرٍ مِنَ التَّعْبُدِ، حَتَّى إِنِّي قَرَأْتُ

(١) رواه البخاري (٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) جنوب العراق: وحده من حدیثة الموصل إلى عبادان طولاً، ومن العذیب بالقادسیة إلى حلوان عرضاً، وسمی سواداً لخضرته.

(٣) هو البصري.

(٤) مالك بن دينار.

(٥) فرقد السبخي.

فِي أَيَّامِ كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَةَ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَنَاوَلْتُ يَوْمًا مَا لَا يَصْلُحُ، فَلَمْ أَقْدِرْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى قِرَاءَتِهَا، فَقُلْتُ: إِنَّ لِقَمَّةً تُؤَثِّرُ قِرَاءَةَ خَمْسَةِ أَجْزَاءٍ، بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ؛ إِنَّ تَنَاوُلَهَا لَطَاعَةٌ عَظِيمَةٌ! وَإِنَّ مَطْعَمًا يُؤْذِي الْبَدَنَ، فَيَقْوَتُهُ فِعْلٌ خَيْرٌ يَنْبَغِي أَنْ يَهْجَرَ!

١٥٠٦ - وَقَدْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ حَضَرَ عِنْدَهُ، وَقَدْ تَغَيَّرَ مِنْ التَّقَشُّفِ، فَقَالَ لَهُ: «مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟!»^(١).

١٥٠٧ - فَالْعَاقِلُ يُعْطِي بَدَنَهُ مِنَ الْغِذَاءِ مَا يُوَافِقُهُ، كَمَا يُنْقِي الْغَازِي شَعِيرَ الدَّابَّةِ.

وَلَا تَظَنَّ أَنِّي أَمُرُ بِأَكْلِ الشَّهَوَاتِ، وَلَا بِالْإِكْتَارِ مِنَ الْمَلْدُودِ! إِنَّمَا أَمُرُ بِتَنَاوُلِ مَا يَحْفَظُ النَّفْسَ، وَأَنْهَى عَمَّا يُؤْذِي الْبَدَنَ؛ فَأَمَّا التَّوَسُّعُ فِي الْمَطَاعِمِ؛ فَإِنَّهُ سَبَبُ النَّوْمِ، وَالشَّبَعُ يُعْمِي الْقَلْبَ، وَيُرْهِلُ^(٢) الْبَدَنَ وَيُضْعِفُهُ. فَافْهَمْ مَا أَشْرْتُ إِلَيْهِ؛ فَالطَّرِيقُ هِيَ الْوَسْطَى.

٣٤٣ - فصل: إذا تكامل العقل قوي الذكاء والفتنة

١٥٠٨ - إِذَا تَكَامَلَ الْعَقْلُ؛ قَوِيَ الذِّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ، وَالذِّكْيُ يَتَخَلَّصُ إِذَا وَقَعَ فِي آفَةٍ؛ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ: إِذَا كَانَ اللَّصُّ ظَرِيفًا؛ لَمْ يُقْطِعْ، فَأَمَّا الْمُغْفَلُ؛ فَيَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ الْمِحْنَ.

١٥٠٩ - هُوَلَاءِ إِخْوَةَ يُوسُفَ ﷺ؛ أَبْعَدُوهُ عَنِ أَبِيهِ، لِيَتَقَدَّمُوا عِنْدَهُ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ حُزْنَهُ عَلَيْهِ يَشْغَلُهُ عَنْهُمْ، وَتُهَمَّتْهُ إِيَاهُمْ تَبْغِضُهُمْ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَمَوْهُ فِي الْجُبِّ، فَقَالُوا: ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، وَلَيْسَ بِطِفْلِ، إِنَّمَا هُوَ صَبِيٌّ كَبِيرٌ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ إِذَا التَّقَطَّ؛ يُحَدِّثُ بِحَالِهِ، فَيَبْلُغُ الْخَبَرَ إِلَى أَبِيهِ! وَهَذَا تَعْفِيلٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَالُوا: أَكَلَهُ الذُّبُّ؛ وَجَاؤُوا بِقَمِيصِهِ صَحِيحًا، وَلَوْ خَرَّقُوهُ؛ احْتَمَلَ الْأَمْرَ، ثُمَّ لَمَّا مَضُوا إِلَيْهِ

(١) رواه أبو داود (٢٤٢٨)، وابن ماجه (١٧٤١) (ضعيف).

(٢) في الأصل يهزل.

يَمْتَارُونَ^(١)؛ قَالَ: ﴿أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]؛ فَلَوْ فَطُنُوا؛ عَلِمُوا أَنَّ مَلِكَ مَصْرَ لَا غَرَضَ لَهُ فِي أَحْيِهِمْ، ثُمَّ حَبَسَهُ بِحُجَّةٍ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا الصُّوَاعُ يُخْبِرُنِي أَنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا! هَذَا كُلُّهُ وَمَا يَقْتُنُونَ. فَلَمَّا أَحَسَّ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَعْقُوبُ ﷺ؛ قَالَ: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وَكَانَ يُوسُفُ ﷺ قَدْ نُهِيَ بِالْوَحْيِ أَنْ يُعْلِمَ أَبَاهُ بِوُجُودِهِ، وَلِهَذَا؛ لَمَّا التَّفَيَّا؛ قَالَ لَهُ: هَلَا كَتَبْتَ إِلَيَّ! فَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيْلَ ﷺ مَنَعَنِي. فَلَمَّا نُهِيَ أَنْ يُعَرِّفَهُ خَبْرَهُ، لِيَنْفُذَ الْبَلَاءَ؛ كَانَ مَا فَعَلَ بِأَخِيهِ تَنْبِيْهَا، فَصَارَ كَأَنَّهُ يُعَرِّضُ بِخُطْبَةِ الْمُعْتَدَّةِ. وَعَلَى فَهْمِ يُوسُفَ - وَاللَّهِ - بَكَى يَعْقُوبُ، لَا عَلَى مُجَرَّدِ صُورَتِهِ.

٣٤٤ - فصل: من رزق اليقظة ينبغي أن يصابر لنيل الفضائل

١٥١٠ - الْأَدَمِيُّ مَوْضُوعٌ عَلَى مَظْلُوبَاتٍ تُسْتَتُّ الْهَمُّ؛ الْعَيْنُ تَطْلُبُ الْمَنْظُورَ، وَاللِّسَانُ يَطْلُبُ الْكَلَامَ، وَالْبَطْنُ يَطْلُبُ الْمَأْكُولَ، وَالْفَرْجُ الْمَنْكُوحَ، وَالطَّعْنُ يُحِبُّ جَمْعَ الْمَالِ. وَقَدْ أَمَرْنَا بِجَمْعِ الْهَمِّ لِذِكْرِ الْآخِرَةِ وَالْهَوَى يُسْتَتُّ؛ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ حَاجَاتٌ لِازِمَةٍ مِنْ طَلَبِ قُوَّةِ الْبَدَنِ، وَقُوَّةِ الْعِيَالِ!؟

١٥١١ - وَهَذَا يُبَكِّرُ إِلَى دُكَّانِهِ، وَيَفْتَكِرُ فِي التَّحْصِيلِ، وَيَسْتَعْمِلُ آلَةَ الْفَهْمِ فِي نَيْلِ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ؛ فَأَيُّ هَمٍّ يَجْتَمِعُ مِنْهُ؟! خُصُوصًا إِنْ أَخَذَهُ الشَّرُّ فِي صُورَةٍ، فَيَمْضِي الْعُمْرُ، فَيَنْهَضُ مِنَ الدُّكَّانِ إِلَى الْقَبْرِ؛ فَكَيْفَ يَحْصُلُ الْعِلْمُ أَوْ الْعَمَلُ أَوْ إِخْلَاصُ الْقَصْدِ أَوْ طَلَبُ الْفَضَائِلِ!؟

١٥١٢ - فَمَنْ رَزَقَ يَقَظَةً؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُصَابِرَ لِنَيْلِ الْفَضَائِلِ: فَإِنْ كَانَ مُتَزَهِّدًا بِغَيْرِ عَائِلَةٍ؛ اكَتَفَى بِسَعْيِ قَلِيلٍ؛ فَقَدْ كَانَ السَّبْتِيُّ^(٢) يَعْمَلُ يَوْمَ السَّبْتِ فَيَكْتَفِي بِهِ طَوْلَ الْأُسْبُوعِ. فَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ؛ بَاضَعَ^(٣) بِهِ مَنْ يَكْفِيهِ بَدِينَهُ وَثِقَتِهِ مَنْ أَنْ يَهْتَمَّ هُوَ. وَإِنْ كَانَ لَهُ عَائِلَةٌ؛ جَمَعَ هَمَّهُ فِي نِيَّةِ الْكَسْبِ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ مُتَعَبِّدًا. أَوْ أَنْ يَكُونَ [لَهُ] قُنِيَّةٌ

(١) يمتارون: يجلبون الميرة وهي الطعام.

(٢) أحمد بن هارون الرشيد، توفي سنة (١٨٤هـ).

(٣) باضع: ضارب.

مَالٍ كَعِقَارٍ؛ نَاصِفُهُ فِي نَفَقَتِهِ^(١)؛ لِيَكْفِيَهُ دَخْلُهُ، وَلِيُقَلِّلَ الْهَمَّ عَلَى مِقْدَارِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ حَذْفِ الْعَلَائِقِ جَهْدُهُ؛ لِيَجْمَعَ الْهَمَّ فِي ذِكْرِ الْآخِرَةِ. فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؛ أُخِذَ فِي غَفْلَتِهِ، وَنَدِمَ فِي حُفْرَتِهِ.

١٥١٣ - وَأَفْبِحِ الْأَحْوَالِ حَالَ عَالِمٍ فَقِيهِ، كُلَّمَا جَمَعَ هَمَّهُ لِدِكْرِ الْآخِرَةِ، سَتَّتَهُ طَلَبُ الْقُوْتِ لِلْعَائِلَةِ، وَرُبَّمَا احتَاجَ إِلَى التَّعَرُّضِ لِلظَّلْمَةِ، وَأَخِذَ الشُّبُهَاتِ، وَبَدَّلِ الْوَجْهَ، فَيَلْزَمُ هَذَا التَّقْدِيرُ فِي النَّفَقَةِ، وَإِذَا حَصَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ وَجْهِ؛ دَبَّرَ فِيهِ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ قِصْرُ الْأَمَلِ عَلَى إِخْرَاجِ مَا فِي يَدِهِ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «لَأَنْ تَتْرَكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ».

١٥١٤ - وَأَذَلِّ مِنْ كُلِّ ذَلِّ التَّعَرُّضِ لِلْبُخْلَاءِ وَالْأَمْرَاءِ؛ فَلْيُدَبِّرْ أَمْرَهُ، وَيُقَلِّلِ الْعَلَائِقَ، وَيَحْفَظْ جَاهَهُ؛ فَالْأَيَّامُ قَلَائِلُ. وَقَدْ بَعَثَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ مَالًا، فَسَأَلَهُ ابْنُهُ قَبُولَهُ، فَقَالَ: يَا صَالِحُ! صُنِّي! ثُمَّ قَالَ: أَسْتَخِيرُ اللَّهَ. فَأَصْبَحَ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! قَدْ عَزَمَ لِي أَلَا أَقْبَلُهُ. هَذَا؛ وَكَانَ الْعِطَاءُ هِنِيئًا، وَجَاءَهُ مِنْ وُجُوهِ! فَانْعَكَسَ الْأَمْرُ الْيَوْمَ.

٣٤٥ - فصل: لا بد من مخالطة بمقدار

١٥١٥ - الْعُرْلَةُ عَنِ الْخَلْقِ سَبَبُ طَيْبِ الْعَيْشِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُخَالَطَةِ بِمِقْدَارٍ. فَدَارِ الْعَدُوَّ وَاسْتَمِلَّهُ؛ فَرُبَّمَا كَادَكَ فَأَهْلَكَكَ! وَأَحْسِنِ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ! وَاسْتَعِنِ عَلَى أُمُورِكَ بِالْكِتْمَانِ!

١٥١٦ - وَتَلْتَكُنِ النَّاسُ عِنْدَكَ مَعَارِفَ، فَأَمَّا أَضْدَقَاءُ؛ فَلَا؛ لِأَنَّ أَعَزَّ الْأَشْيَاءِ وَجُودُ صَدِيقٍ، ذَاكَ أَنَّ الصَّدِيقَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي مَرْتَبَةِ مُمَاثِلٍ؛ فَإِنْ صَادَفْتَهُ عَامِيًّا؛ لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ؛ لِسُوءِ أَخْلَاقِهِ، وَقِلَّةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ، وَإِنْ صَادَفْتَهُ مُمَاثِلًا أَوْ مُقَارِبًا؛ حَسَدِكَ، وَإِذَا كَانَ لَكَ يَقْظَةٌ؛ تَلَمَّحْتَ مِنْ أَفْعَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى حَسَدِكَ، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وَإِذَا أَرَدْتَ تَأْكِيدَ ذَلِكَ؛ فَضَعْ عَلَيْهِ مَنْ يَضْعُكَ^(٢) عِنْدَهُ؛ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا فِي قَلْبِهِ.

(١) أي سكن النصف وأجر النصف الآخر. (٢) وضعه: حظ من قدره.

١٥١٧ - فَإِنْ أَرَدْتَ الْعَيْشَ؛ فَابْعُدْ عَنِ الْحُسُودِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى نِعْمَتَكَ؛ فَرُبَّمَا أَصَابَهَا بِالْعَيْنِ! فَإِنْ اضْطُرِرْتَ إِلَى مُحَالَطَتِهِ؛ فَلَا تُفْسِدْ لَهُ سِرِّكَ، وَلَا تُشَاوِرْهُ، وَلَا يَغْرَبَنَّكَ تَمَلُّقُهُ لَكَ، وَلَا مَا يُظْهِرُهُ مِنَ الدِّينِ وَالتَّعَبُّدِ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَغْلِبُ الدِّينَ! وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ قَابِلَ أَخْرَجَهُ الْحَسَدُ إِلَى الْقَتْلِ! وَأَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ بَاعُوهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ! وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ^(١) مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْعُقَلَاءِ، وَعَبَدُ اللَّهِ بَنُ أَبِي^(٢) مِنَ الرُّؤَسَاءِ؛ أَخْرَجَهُمَا حَسَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى النِّفَاقِ، وَتَرَكَ الصَّوَابَ.

١٥١٨ - وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَطْلُبَ لِحَاسِدِكَ عِقُوبَةً أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ مُتَّصِلٍ، لَا يُرِضِيهِ إِلَّا زَوَالُ نِعْمَتِكَ، وَكُلَّمَا أَمْتَدَّتْ؛ أَمْتَدَّ عَذَابُهُ؛ فَلَا عَيْشَ لَهُ! وَمَا طَابَ عَيْشُ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا حِينَ نَزَعَ الْحَسَدَ وَالْغِلُّ مِنْ صُدُورِهِمْ، وَلَوْلَا أَنَّهُ نُزِعَ؛ تَحَاسَدُوا، وَتَنَعَّصَ عَيْشُهُمْ.

٣٤٦ - فصل: من سار مع العقل أمكنه أن يتمتع من الدنيا

١٥١٩ - مَنْ سَارَ مَعَ الْعَقْلِ، وَخَالَفَ طَرِيقَ الْهَوَى، وَنَظَرَ إِلَى الْعَوَاقِبِ؛ أَمَكَّنَهُ أَنْ يَتَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا أَضْعَافَ مَا تَمَتَّعَ مِنْ اسْتِعْمَلِ الشَّهَوَاتِ. فَأَمَّا الْمُسْتَعَجِلُ فَيَفُوتُ [على] نَفْسِهِ حَظَّ الدُّنْيَا وَالذِّكْرَ الْجَمِيلَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِفَوَاتِ مُرَادِهِ مِنَ اللَّذَاتِ، وَبَيَانُ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّ [مَنْ] مَالَ إِلَى شَهَوَاتِ النِّكَاحِ وَأَكْثَرَ مِنْهَا؛ قَلَّ أَلْتِدَادُهُ، وَفَنِيَتْ حَرَارَتُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي عَدَمِ مَطْلُوبِهِ مِنْهَا! وَمَنْ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ بِمِقْدَارٍ مَا يُجِيزُهُ الْعَقْلُ وَيَحْتَمِلُهُ؛ كَانَ أَلْتِدَادُهُ أَكْثَرَ، لِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْجَمَاعِعِينَ، وَأَمَكَّنَهُ التَّرَدُّدُ لِبَقَاءِ الْحَرَارَةِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ غَشَّ فِي مُعَامَلَتِهِ أَوْ خَانَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَامَلُ، فَيَفُوتُهُ رِبْحُ الْمُعَامَلَةِ

(١) عمرو بن صيفي بن مالك الأوسي، جاهلي من أهل المدينة، كان يذكر البعث والحنيفية، فلما بعث النبي ﷺ عاداه أشد العداوة، هلك سنة (هـ٩).

(٢) ابن سلول، وسلول جدته لأمه. أبو الحباب رأس المنافقين في المدينة، هلك سنة (هـ٩).

الدَّائِمَةَ لِخِيَانَتِهِ مَرَّةً، وَلَوْ عُرِفَ بِالثَّقَّةِ؛ دَامَتْ مُعَامَلَةُ النَّاسِ لَهُ، فَرَادَ رِيحُهُ.

والثاني: أَنَّهُ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ، وَتَشَاعَلَ بِالْعِلْمِ أَوْ تَحْقِيقِ الرَّهْدِ؛ فَتَحَّ لَهُ مِنَ الْمُبَاحَاتِ مَا يَلْتَدُّ بِهِ كَثِيرًا، وَمَنْ تَقَاعَدَ بِهِ الْكَسَلُ عَنِ الْعِلْمِ أَوْ الْهَوَىٰ عَنْ تَحْقِيقِ الرَّهْدِ؛ لَمْ يَحْضُلْ لَهُ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ مُرَادِهِ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

٣٤٧ - فصل: عيش الصديقين وعيش البهائم

١٥٢٠ - يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَمَعَهُ، وَمِنْ أَجْلِهِ؛ وَقَدْ كَفَاكَ كُلُّ مَخْلُوقٍ، وَجَلَبَ لَكَ كُلَّ خَيْرٍ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَمِيلَ عَنْهُ بِمُؤَافَقَةِ هَوَىٰ، وَإِرْضَاءِ مَخْلُوقٍ؛ فَإِنَّهُ يَعْكِسُ عَلَيْكَ الْحَالَ، وَيَفُوتُكَ الْمَقْصُودُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ؛ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ دَائِمًا»^(١).

١٥٢١ - وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ مَنْ يَعِيشُ مَعَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَعِيشُ مَعَهُ؟ قُلْتُ: بِأَمْتِنَالِ أَمْرِهِ، وَأَجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَمُرَاعَاةِ حُدُودِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ فِي الْخَلْوَةِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، وَسَلَامَةِ الْقَلْبِ مِنَ الْأَعْتِرَاضِ فِي أَقْدَارِهِ؛ فَإِنْ أَحْتَجَبْتَ؛ سَأَلْتُهُ؛ فَإِنْ أَعْطَى، وَإِلَّا؛ رَضِيتُ بِالْمَنْعِ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ بِخُلَا، وَإِنَّمَا نَظَرًا لَكَ، وَلَا تَنْقَطِعَ عَنِ السُّؤَالِ؛ لِأَنَّكَ تَتَعَبَّدُ بِهِ، وَمَتَى دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ؛ رَزَقَكَ مَحَبَّتَهُ، وَصَدَقَ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، فَصَارَتِ الْمَحَبَّةُ تَدْلُكَ عَلَى الْمَقْصُودِ، وَأَثْمَرَتْ لَكَ مَحَبَّتَهُ إِيَّاكَ؛ فَحِينَئِذٍ تَعِيشُ عَيْشَ الصَّدِيقِينَ.

وَلَا خَيْرَ فِي عَيْشٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَا فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مُخَبِّطٌ فِي عَيْشِهِ، يُدَارِي الْأَسْبَابَ، وَيَمِيلُ إِلَيْهَا بِقَلْبِهِ، وَيَتَعَبُّ فِي تَحْصِيلِ الرَّزْقِ بِحِرْصٍ زَائِدٍ عَلَى الْحَدِّ، وَبِرَغْبَةٍ إِلَى الْخَلْقِ، وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ انْكِسَارِ الْأَعْرَاضِ؛ وَالْقَدْرُ يَجْرِي، وَلَا يُبَالِي بِسَخَطِ، وَلَا يَحْضُلْ لَهُ إِلَّا مَا قَدَّرَ، وَقَدْ فَاتَهُ الْقُرْبُ مِنَ الْحَقِّ، وَالْمَحَبَّةُ لَهُ، وَالنَّادُبُ مَعَهُ. فَذَلِكَ الْعَيْشُ عَيْشُ الْبَهَائِمِ.

(١) رواه البزار (كشف الأستار: ٣٥٦٨)، والبيهقي في الزهد (٨٨٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

١٥٢٢ - نَظَرْتُ فِي حِكْمَةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَنْكَحِ، فَرَأَيْتُ أَنَّ
الْأَدَمِيَّ لَمَّا خُلِقَ مِنْ أَصُولٍ تَتَحَلَّلُ، وَهِيَ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ وَالنَّارُ وَالهَوَاءُ، وَبَقَاؤُهُ إِنَّمَا
يَكُونُ بِالْحَرَارَةِ وَالرُّطُوبَةِ، [وَالْحَرَارَةُ تُحَلِّلُ الرُّطُوبَةَ] دَائِمًا؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ شَيْءٍ
يَخْلُفُ مَا بَطَلَ^(١). وَلَمَّا كَانَ اللَّحْمُ لَا يَنْوُبُ عَنْهُ إِلَّا اللَّحْمُ؛ أَبَاحَ الشَّرْعُ ذَبْحَ
الْحَيَوَانِ، لِيَتَقَوَّى بِهِ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ.

وَلَمَّا كَانَ بَدَنُهُ يَحْتَاجُ إِلَى كُسُوفَةٍ، وَلَهُ قُدْرَةٌ تَمَيِّزُ، وَقُدْرَةٌ يَصْنَعُ بِهَا مَا يَقِيهِ
الْأَذَى مِنَ الْقُطَنِ وَالصُّوفِ؛ لَمْ يَجْعَلْ عَلَى جِلْدِهِ مَا يَقِيهِ خِلْقَةً؛ بِخِلَافِ الْحَيَوَانِ
الْبَهِيمِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى مَا يُعْطِي جِلْدَهُ؛ عَوَّضَهُ بِالرِّيشِ وَالشَّعْرِ وَالْوَبْرِ.
وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ فَنَاءِ الْأَدَمِيِّ وَالْحَيَوَانِ؛ هَيَّجَ شَهْوَةَ الْجَمَاعِ؛ لِتُخْلِفَ
التَّسْلُ. فَمُقْتَضَى الْعَقْلِ الَّذِي حُرِّكَ عَلَى طَلَبِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ أَنْ يَكُونَ التَّنَاوُلُ لِلْمَطْعَمِ
وَالْمَشْرَبِ مِقْدَارَ الْحَاجَةِ وَالْمَصْلَحَةِ؛ لِيَقَعَ الْأَلْتِدَادُ بِالْعَافِيَةِ.

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ طَلَبُ الْأَلْتِدَادِ بِالْمَطْعَمِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ، وَالْإِكْتِثَارُ مِنْهُ، وَالشَّرُّ
فِي تَنَاوُلِهِ، وَكَذَلِكَ الْكُسُوفَةُ وَالتَّكَاحُ!

١٥٢٣ - وَمِنَ الْحَزْمِ جَمْعُ الْمَالِ، وَادِّخَارُهُ لِعَارِضِ حَاجَةٍ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنَ
التَّعْفِيلِ إِنْثَاقُ الْحَاصِلِ؛ فَرَبَّمَا عَرَضَتْ حَاجَةٌ، فَلَمْ يُقَدِّرْ عَلَيْهَا، فَأَثَّرَ عَدْمُهَا فِي
الْبَدَنِ، أَوْ فِي الْعَرِضِ بِطَلَبِهَا مِنَ الْأَنْدَالِ!

١٥٢٤ - وَمِنَ أَقْبَحِ الْأُمُورِ الْأَنْهَمَاكُ فِي التَّنَاحِ طَلَبًا لِصُورَةِ اللَّذَّةِ؛ نَاسِيًا مَا
يَجْنِي ذَلِكَ مِنَ انْحِلَالِ الْقُوَّةِ، وَيَزِيدُ فِي الْحَرَامِ بِالْعُقُوبَةِ.

١٥٢٥ - فَمَنْ مَالَ إِلَى تَدْبِيرِ الْعَقْلِ سَلِمَ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ
مُسَاوَرَتِهِ أَوْ عَنِ الْقَبُولِ مِنْهُ؛ تَعَجَّلَ عَطْبُهُ. فَلْيُنْفِهِمْ مَقْصُودَ الْمَوْضُوعَاتِ وَحِكْمَهَا وَالْمُرَادَ
مِنْهَا! فَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَى مَا فِيهِمْ؛ كَانَ كَأَجْهَلِ الْعَوَامِّ، وَإِنْ كَانَ عَالِمًا.

(١) هذه نظرية يونانية قديمة.

١٥٢٦ - الْعَجَبُ مِمَّنْ لَهُ مُسَكَّةٌ مِنْ عَقْلِ، أَوْ عِنْدَهُ قَلِيلٌ مِنْ دِينٍ؛ كَيْفَ يُؤَثِّرُ مَخَالَطَتُهُمْ؟! فَإِنَّهُ بِالْمَخَالَطَةِ لَهُمْ، أَوْ الْعَمَلِ مَعَهُمْ، يَكُونُ قَطْعًا خَائِفًا مِنْ عَزْلِ، أَوْ قَتْلِ، أَوْ سُمِّ، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ إِلَّا بِمُقْتَضَى أَوْامِرِهِمْ؛ فَإِنْ أَمَرُوا بِمَا لَا يَجُوزُ؛ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُرَاجِعَ؛ فَقَدْ بَاعَ دِينَهُ قَطْعًا بِدُنْيَاهُ، فَمَنَعَهُ الْخَوْفُ [مِنَ الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَضَاعَتْ عَلَيْهِ آخِرَتُهُ]، وَلَمْ يَبْقَ بِيَدِهِ إِلَّا عَاجِلُ التَّعْظِيمِ، وَأَنْ يُقَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ: بِسْمِ اللَّهِ! وَأَنْ يُنْفَذَ أَوْامِرُهُ! وَذَلِكَ بَعِيدٌ مِنَ السَّلَامَةِ فِي بَابِ الدِّينِ، وَمَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَمْرُوجٌ بِخَوْفِ الْعَزْلِ أَوْ الْقَتْلِ.

١٥٢٧ - مِنَ الْعَلَطِ الْعَظِيمِ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي حَقِّ مَعْرُوفٍ بِمَا لَا يَصْلُحُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَلِيَّ فَيَنْتَقِمَ. وَفِي الْجُمْلَةِ؛ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُظْهِرَ الْعَدَاوَةَ لِأَحَدٍ أَصْلًا؛ فَقَدْ يَرْتَفِعُ الْمُحْتَقَرُّ، وَقَدْ يَتِمَكَّنُ مَنْ لَا يُعَدُّ^(١). بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُكْتَمَ مَا فِي النُّفُوسِ مِنْ ضَعْفٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ؛ فَإِنْ أُمِكَنَ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُمْ؛ كَانَ الْعَفْوُ إِنْتِقَامًا؛ لِأَنَّهُ يُدْلُهُمْ.

١٥٢٨ - وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ، خُصُوصًا مَنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وِلَايَةٌ، وَأَنْ يُخْدَمَ الْمَعْرُوفُ؛ فَرَبَّمَا نَفَعَ فِي وِلَايَتِهِ.

١٥٢٩ - وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى قَاضِيِ الْفِضَاةِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ وَقَالَ: قُولُوا لَهُ: أَبُو جَعْفَرٍ بِالْبَابِ! فَلَمَّا سَمِعَ؛ هَشَّ^(٢) لِذَلِكَ، وَقَالَ: ائِذْنُوا لَهُ! فَدَخَلَ، فَقَامَ، وَتَلَقَّاهُ، وَأَكْرَمَهُ، وَأَعْطَاهُ خَمْسَةَ آلَافٍ، وَوَدَّعَهُ. فَقِيلَ لَهُ: رَجُلٌ مِنَ الْعَوَامِّ فَعَلْتَ بِهِ هَذَا؟! قَالَ: إِنِّي كُنْتُ فَقِيرًا، وَكَانَ هَذَا صَدِيقًا، فَجِئْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ لَهُ: أَنَا جَائِعٌ. فَقَالَ: اجْلِسْ! وَخَرَجَ، فَجَاءَ بِشِوَاءٍ وَحَلْوَى وَخَبِزٍ، فَقَالَ: كُلْ. فَقُلْتُ: كُلْ مَعِيَ. قَالَ: لَا. قُلْتُ: وَاللَّهِ؛ لَا أَكُلُ حَتَّى تَأْكُلَ مَعِيَ. فَأَكَلَ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَجْرِي مِنْ

(١) من لا يعد: من لا يحسب له حساب. (٢) في الأصل: دهش، وهو تصحيف.

فِيهِ . فَقُلْتُ : مَا هَذَا؟ فَقَالَ : مَرَضٌ . فَقُلْتُ : وَاللَّهِ ؛ لَا بُدَّ أَنْ تُخْبِرَنِي . فَقَالَ : إِنَّكَ لَمَّا جِئْتَنِي ؛ لَمْ أَكُنْ أَمْلِكُ شَيْئًا ، وَكَانَتْ أَسْنَانِي مُضْطَبَّةً بِشَرِيظٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَزَعَعْتُهُ ، وَاشْتَرَيْتُ بِهِ ! فَهَلَّا أَكْفِيءُ مِثْلَ هَذَا؟!

١٥٣٠ - وَعَلَى عَكْسِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كَانَ ابْنُ الرِّيَّاتِ ^(١) وَزَيْرَ الْوَائِقِ ^(٢) ، وَكَانَ يَضَعُ مِنَ الْمُتَوَكَّلِ ، فَلَمَّا وَلِيَ ؛ عَذَّبَهُ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ .

١٥٣١ - وَكَذَلِكَ ابْنُ الْجَزْرِيِّ ؛ كَانَ لَا يُوقَرُ الْمُسْتَرْشِدَ قَبْلَ الْوِلَايَةِ ، فَجَرَتْ عَلَيْهِ الْأَقَاتُ لَمَّا وَلِيَ .

١٥٣٢ - فَالْعَاقِلُ مَنْ تَأَمَّلَ الْعَوَاقِبَ وَرَعَاهَا ، وَصَوَّرَ كُلَّ مَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ ، فَعَمِلَ بِمُقْتَضَى الْحَزْمِ .

١٥٣٣ - وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا تَصْوِيرُ وُجُودِ الْمَوْتِ عَاجِلًا ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأْتِيَ بَعْتَهُ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ ؛ فَالْحَازِمُ مَنْ اسْتَعَدَّ لَهُ ، وَعَمِلَ عَمَلًا مَنْ لَا يَنْدَمُ إِذَا جَاءَهُ ، وَحَذَرَ مِنَ الذُّنُوبِ ؛ فَإِنَّهَا كَعَدُوِّ مُرَاصِدٍ بِالْجِزَاءِ ، وَادَّخَرَ لِنَفْسِهِ صَالِحَ الْأَعْمَالِ ؛ فَإِنَّهَا كَصَدِيقِ صَدِيقٍ ، يَنْفَعُ وَقْتُ الشَّدَةِ .

١٥٣٤ - وَأَبْلَغُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَعْلَمَ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ كُلَّمَا زَادَ عَمَلُهُ فِي الْفَضَائِلِ ؛ عَلَتْ مَرَبَّتُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنْ نَقَصَ نَقَصَتْ ؛ فَهُوَ ، وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فِي نَقْصٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى كَمَالٍ غَيْرِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِهِ ، وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ . فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَلَمَّحَ الْعَوَاقِبَ ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى التَّلَمُّحِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُؤَفَّقُ .

٣٥١ - فصل: هلك الهالكون لقلة الصبر عن المشتهى

١٥٣٥ - لَمَّا جَمَعْتُ كِتَابِي الْمُسَمَّى بِ«الْمُنْتَظَمِ فِي تَارِيخِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَّمِ» ^(٣) ؛

(١) محمد بن عبد الملك، أبو جعفر (١٧٣ - ٢٣٣هـ): هو وزير المعتصم والوائق العباسيين .

(٢) هارون بن المعتصم، الخليفة العباسي (١٩٦ - ٢٣٢هـ) كان عالمًا لكنه تابع أباه وعمه في حمل الناس على القول بخلق القرآن .

(٣) طبع من (٥ - ١٠) بحيدرآباد، ثم طبع كاملاً في دار الكتب العلمية .

اَظْلَعْتُ عَلَى سَيْرِ الْخَلْقِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ
وَالرُّهَادِ وَغَيْرِهِمْ، فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا قَدْ تَلَاعَبَتْ بِالْأَكْثَرِينَ تَلَاعِبًا أَذْهَبَ أَذْيَانَهُمْ، حَتَّى
كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعِقَابِ.

١٥٣٦ - فَمِنَ الْأَمْرَاءِ مَنْ يَقْتُلُ، وَيُصَادِرُ، وَيَقْطَعُ، وَيَحْبِسُ بِغَيْرِ حَقٍّ، ثُمَّ
يَنْحَرِطُ فِي سِلْكِ الْمَعَاصِي، كَأَنَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، أَوْ قَدْ جَاءَهُ الْأَمْنُ مِنَ الْعِقَابِ، فَرُبَّمَا
تَحَايَلُ أَنْ حِفْظِي الرَّعَايَا يَرُدُّ عَنِّي، وَيَنْسَى أَنَّهُ قَدْ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ
إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]!!

١٥٣٧ - وَقَدْ انْحَرَطَ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ يَتَّبِعُ بِالْعِلْمِ فِي سِلْكِ الْمَعَاصِي لَتَحْصِيلِ
أَغْرَاضِهِمُ الْعَاجِلَةِ؛ فَمَا نَفَعَهُمُ الْعِلْمُ!

وَرَأَيْنَا خَلْقًا مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ [خَالَفُوا] لِنَيْلِ أَغْرَاضِهِمْ! وَهَذَا لِأَنَّ الدُّنْيَا فَخٌّ،
وَالنَّاسُ كَعَصَافِيرٍ، وَالْعُضْفُورُ يُرِيدُ الْحَبَّةَ، وَيَنْسَى الْخَنْقَ. قَدْ نَسِيَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ مَا لَهُمْ،
مَيْلًا إِلَى عَاجِلِ لَذَاتِهِمْ، فَأَقْبَلُوا يُسَامِرُونَ الْهَوَى، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مُشَاوَرَةِ الْعَقْلِ.
فَلَقَدْ بَاعُوا بِلَذَّةِ يَسِيرَةٍ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاسْتَحَقُّوا^(١) بِشَهَوَاتِ مَرْدُودَةٍ عَذَابًا عَظِيمًا. فَإِذَا
نَزَلَ بِأَحَدِهِمُ الْمَوْتُ؛ قَالَ: لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ! ﴿يَلْتَنِي كُنْتُ رَبًّا﴾ [النبأ: ٤٠]! فَيَقَالُ لَهُ:
﴿يَلْتَنِي﴾ [يونس: ٩١]!

١٥٣٨ - فَوَا أَسْفَا؛ لِغَائِبِ لَا يُمَكِّنُ اسْتِدْرَاكِهِ، وَلِمُرْتَهِنٍ لَا يَصِحُّ فَكَاكُهُ،
وَلِنَدَمٍ لَا يَنْقَطِعُ زَمَانُهُ، وَلِمُعَذِّبٍ عَزَّ عَلَيْهِ إِيمَانُهُ.

١٥٣٩ - بِاللَّهِ؛ مَا نَفَعَتِ الْعُقُولُ إِلَّا لِمَنْ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَيَعُوْلُ عَلَيْهَا، وَلَا يُمَكِّنُ
قَبُولَ مُشَاوَرَتِهَا إِلَّا بِعَزِيمَةِ الصَّبْرِ عَمَّا يَسْتَهْيِي.

١٥٤٠ - فَتَأَمَّلْ فِي الْأَمْرَاءِ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ، وَفِي
الْعُلَمَاءِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَفِي الرُّهَادِ أُوَيْسَ الْقَرْنِيِّ^(٢)؛ لَقَدْ أَعْطُوا
الْجِدَّ حَقَّهُ، وَفَهَمُوا مَقْصُودَ الْوُجُودِ.

(١) في الأصل: استبدلوا.

(٢) أويس بن عامر بن القرني المرادي اليماني، أبو عمر، القدوة العابد، سيد التابعين بشهادة
سيد المرسلين ﷺ، وجد مقتولاً في صفين مع أصحاب علي ﷺ سنة (٤٣٧هـ).

١٥٤١ - وَمَا هَلَكَ الْهَالِكُونَ إِلَّا لِقَلَّةِ الصَّبْرِ عَنِ الْمُشْتَهَى، وَرُبَّمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَالْعِقَابِ. وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ ذَاكَ، إِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ مُؤْمِنٍ يُوقِنُ، وَلَا يَنْفَعُهُ يَقِينُهُ! وَيَعْقِلُ الْعَوَاقِبَ، وَلَا يَنْفَعُهُ عَقْلُهُ!

٣٥٢ - فصل: من رزق هممة عالية يعذب بمقدار علوها

١٥٤٢ - مَنْ رُزِقَ هِمَّةً عَالِيَةً؛ يُعَذَّبُ بِمِقْدَارِ عُلُوِّهَا! كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(١):

وَإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ
وَقَالَ الْآخَرُ^(٢):

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُولِ بَلِيَّةٌ وَبِلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي
وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ؛ طَلَبَ الْعُلُومَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى بَعْضِهَا،
وَطَلَبَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ نَهَائَتَهُ، وَهَذَا لَا يَحْتَمِلُهُ الْبَدَنُ.

١٥٤٣ - ثُمَّ يَرَى أَنَّ الْمُرَادَ الْعَمَلَ، فَيَجْتَهِدُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، وَصِيَامِ النَّهَارِ،
وَالْجَمْعِ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْعِلْمِ صَعْبٌ، ثُمَّ يَرَى تَرَكَ الدُّنْيَا، وَيَحْتَاجُ إِلَى مَا لَا بُدَّ مِنْهُ،
وَيُحِبُّ الْإِثَارَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْبُخْلِ، وَيَتَقَاضَاهُ الْكَرَمُ الْبَدَلُ، وَيَمْنَعُهُ عِزُّ النَّفْسِ عَنِ
الْكَسْبِ؛ فَإِنَّهُ جَرَى عَلَى طَبْعِهِ مِنَ الْكَرَمِ؛ احْتِاجَ وَافْتَقَرَ، وَتَأَثَّرَ بَدَنُهُ وَعَائِلَتُهُ، وَإِنْ
أَمْسَكَ؛ فَطَبَعُهُ يَأْتِي ذَلِكَ.

وَفِي الْجُمْلَةِ؛ يَحْتَاجُ إِلَى مُعَانَاةٍ؛ وَجَمْعِ بَيْنِ أَضْدَادٍ؛ فَهُوَ أَبَدًا فِي نَصَبٍ لَا
يَنْقُضِي، وَتَعَبٍ لَا يَفْرُغُ. ثُمَّ إِذَا حَقَّقَ الْإِخْلَاصَ فِي الْأَعْمَالِ؛ زَادَ تَعَبُهُ، وَقَوِيَ وَصَبُهُ^(٣).

١٥٤٤ - فَأَيُّنَ هُوَ؟ وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ؟! إِنْ كَانَ فَقِيهًا، فَسُئِلَ عَنْ حَدِيثٍ؛ قَالَ:
مَا أَعْرِفُهُ! وَإِنْ كَانَ مُحَدِّثًا، فَسُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِقْهِيَّةٍ؛ قَالَ: مَا أَدْرِي! وَلَا يُبَالِي إِنْ
قِيلَ عَنْهُ: مُقْصَرٌّ!!

(١) هو الممتني، ديوانه ص (٢٤٩).

(٢) نسبه المؤلف للرضي في الفصل (١٧٠) ولم أجد البيت في ديوانه.

(٣) الوصب: المرض والتعب.

١٥٤٥ - وَالْعَالِي هِمَّةٌ يَرَى التَّقْصِيرَ فِي بَعْضِ الْعُلُومِ فَضِيحَةً قَدْ كَشَفَتْ عَيْبَهُ، وَقَدْ أَرَتِ النَّاسَ عَوْرَتَهُ. وَالْقَصِيرُ هِمَّةٌ لَا يُبَالِي بِمَنْ النَّاسِ، وَلَا يَسْتَقْبِحُ سُؤَالَهُمْ، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ رَدِّ!!

وَالْعَالِي هِمَّةٌ لَا يَحْمِلُ ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ تَعَبَ الْعَالِي هِمَّةٍ رَاحَةً فِي الْمَعْنَى، وَرَاحَةَ الْقَصِيرِ هِمَّةٍ تَعَبٌ وَشَيْنٌ؛ إِنْ كَانَ تَمَّ فَهَمٌّ.

١٥٤٦ - وَالذُّنْيَا دَارُ سَبَاقٍ إِلَى أَعَالِي الْمَعَالِي؛ فَيَنْبَغِي لِذِي هِمَّةٍ أَلَّا يَقْصَرَ فِي شَوَظِهِ؛ فَإِنْ سَبَقَ؛ فَهُوَ الْمَقْصُودُ، وَإِنْ كَبَا جَوَادُهُ مَعَ اجْتِهَادِهِ؛ لَمْ يَلَمْ.

٣٥٣ - فصل: المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه

١٥٤٧ - الْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى رِضَا الْإِنْسَانِ عَنِ نَفْسِهِ، وَاقْتِنَاعُهُ بِعِلْمِهِ! وَهَذِهِ مِخْنَةٌ قَدْ عَمَّتْ أَكْثَرَ الْخَلْقِ: فَتَرَى الْيَهُودِيَّ أَوْ النَّصْرَانِيَّ يَرَى أَنَّهُ عَلَى الصَّوَابِ، وَلَا يَبْحَثُ وَلَا يَنْظُرُ فِي دَلِيلِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنا ﷺ، وَإِذَا سَمِعَ مَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ، مِثْلَ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ؛ هَرَبَ، لِيَلَّا يَسْمَعَ! وَكَذَلِكَ كُلُّ ذِي هَوَى يَثْبُتُ عَلَيْهِ: إِمَّا لِأَنَّهُ مَذْهَبُ أَبِيهِ وَأَهْلِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ نَظَرَ نَظْرًا أَوَّلَ فَرَأَهُ صَوَابًا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيمَا يَنَاقِضُهُ، وَلَمْ يَبَاحِثِ الْعُلَمَاءَ لِيُبَيِّنُوا لَهُ خَطَأَهُ!

١٥٤٨ - وَمِنْ هَذَا حَالُ الْخَوَارِجِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُمْ اسْتَحْسَنُوا مَا وَقَعَ لَهُمْ، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَنْ يَعْلَمُ، وَلَمَّا لَقِيَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَبَيَّنَ لَهُمْ خَطَأَهُمْ؛ رَجَعَ عَنِ مَذْهَبِهِ مِنْهُمْ أَلْفَانِ. وَمِمَّنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنِ هَوَاهُ ابْنُ مُلْجَمٍ، فَرَأَى مَذْهَبَهُ هُوَ الْحَقُّ، فَاسْتَحَلَّ قَتْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَرَأَى دِينًا، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا قُطِعَتْ أَعْضَاؤُهُ؛ لَمْ يُمَانِعْ، فَلَمَّا طَلِبَ لِسَانَهُ لِيُقَطَعَ؛ انزَعَجَ، وَقَالَ: كَيْفَ أَبْقَى سَاعَةً فِي الدُّنْيَا لَا أَذْكُرُ اللَّهَ؟! وَمِثْلُ هَذَا مَا لَهُ دَوَاءٌ.

١٥٤٩ - وَكَذَلِكَ كَانَ الْحِجَّاجُ^(١) يَقُولُ: وَاللَّهِ؛ مَا أَرْجُو الْخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ!

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي: قائد سفك للدماء، ووال ظالم جبار، وداهية خطيب، وفتح عظيم (٤٠ - ٩٥هـ) يعد من مساوي بني أمية.